

مذكّرات نجاتي صدقي

تقديم وإعداد

حنّا أبو حنّا

مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة

مذكرات

نجاتي صدقي

الإهداء

نهدي هذه «المذكرات» إلى الغاليتين اللتين ارتسمت حياتهما وتشكلت بالأحداث المذكورة فيها:

إلى والدتنا لوتكا المولودة سنة ١٩٠٥ في لفوف ـ أوكرانيا حالياً ـ والتي توفيت مؤخراً في أثينا في سن الخامسة والتسعين. لقد كانت شريكة نجاتي الفعّالة والمخلصة في كل مجالات النضال، وخصوصاً أعوام الكفاح الشيوعي ـ على الصعيدين المحلي والعالمي.

وإلى أختنا الكبرى دولت التي ولدت في القدس سنة ١٩٣٠ قُبَيْل سجن والدينا بأمر سلطات الاحتلال البريطاني. وحينما شُغل والداها بشؤون الحرب الأهلية الإسبانية أُلحقت بمدرسة إيفانوف الداخلية لأبناء القادة الشيوعيين ـ قرب موسكو، وقد حالت الحرب العالمية الثانية دون الاتصال بوالديها. وهي تعيش الآن في موسكو ـ مهندسةً متقاعدة.

لقد هيّأت لنا «المذكرات» مزيداً من التقدير لالتزام والدينا بقضية العدالة السياسية وانتصار القيم الإنسانية ـ ولدراميّة حياتهما في خضم التيارات السياسية العاصفة آنذاك.

إنه لمن دواعي سعادتنا، بل فخرنا، أن تقرر «مؤسسة الدراسات الفلسطينية» نشر هذه المخطوطة اعترافاً بأهميتها كرافد عضوي لسيرة نضال الشعب الفلسطيني الدؤوب ليحظى بالموقع العادل اللائق به في هذا العالم.

سعيد وهند/نجاتي صدقي

« لقد كتمتُ هذه المرحلة من حياتي السياسيّة مدّة سبع وثلاثين سنة على وجه التقريب وأسقطتها من البحث الذي كتبه عني المرحوم (البدوي الملثّم) يعقوب العودات، والمنشور في مجلة "الأديب" بتاريخ أول (مايو) أيار سنة ١٩٦٨.»

المحتويات

نجاتي صدقي

- اسمه: محمد نجاتي بن بكر صدقي ألاي أميني.
- ولد في القدس، في ١٥ أيار/مايو ١٩٠٥.
- والده بكر صدقي، مقدسي، كان مدرساً للغة التركية، ومحباً للفنون الجميلة - الموسيقى والمسرح.
- والدته نظيره مراد، مقدسية.
- تعلم في المدرسة الصالحية ثم في الرشيدية والمأمونية والمكتب السلطاني في القدس.
- كان في الرابعة عشرة من عمره عندما رافق والده إلى الحجاز، وكان والده آنذاك مع قوات الأمير فيصل بن الحسين - في الفرقة الذاهبة لمحاربة الوهابيين. أقام في الحجاز بجدة ومكة والمدينة والطائف.
- بعد الحملة عاد مع والده إلى سورية، ثم انتقل معه إلى القاهرة. ويذكر نجاتي كيف اصطحبه والده هناك إلى المسرح، «مسرح الريحاني» و«مسرح السندكيس».
- عاد مع والده إلى فلسطين وبدأ يعمل في دائرة البريد والبرق في القدس حتى أواخر سنة ١٩٢٤. في أثناء عمله ذاك تعرّف إلى الحركة الشيوعية وانتسب إليها.

من هنا تبدأ المذكرات وتغطي فترة ١٩٢٤ - ١٩٣٩.

أمّا أبرز مراحل هذه الفترة فهي:

- سافر إلى موسكو مبعوثاً من الحركة الشيوعية للدراسة في جامعة «كوتف» - وقد أنشئت سنة ١٩٢١ ليدرس فيها الطلاب من الجمهوريات السوفياتية الشرقية، وكذلك الطلاب الشرقيون من الشعوب الخاضعة للاستعمار.
- بعد ثلاثة أعوام أنهى الدراسة وقدم أطروحة عن: «الحركة الوطنية العربية من الانقلاب الاتحادي حتى عهد الكتلة الوطنية».
- عاد إلى فلسطين سنة ١٩٢٩ ليشارك بنشاط في حياة الحزب الشيوعي. وتتحدث المذكرات عن هذه المرحلة ومشكلاتها، وعن ظروف العمل السياسي السري - بالتفصيل.
- سنة ١٩٣١ تقرر إيفاده مع عضو يهودي في الحزب لحضور مؤتمر اتحاد

النقابات الدولية «البروفنترن» في موسكو. وبعد عودته إلى البلد تمكنت الاستخبارات البريطانية ـ بكمين مدبر ـ من أن تعتقله مع رفيقه محمود الأطرش ـ المغربي ـ فكانا في القدس ويافا ثم صدر الحكم بسجنهما عامين، وانتهى بهما الأمر إلى سجن قلعة عكا حيث بقيا حتى نهاية سنة ١٩٣٢.

ـ عشية أول أيار/مايو ١٩٣٣ اعتقل اعتقالاً إدارياً مدة أسبوع، ثم فرضت عليه الإقامة الجبرية وإثبات الوجود ثلاث مرات في اليوم لمدة سنة.

ـ بعد ذلك نقلته اللجنة المركزية للحزب إلى حيفا، ثم جاءت تعليمات من «الكومنترن» بأن يسافر إلى باريس.

ـ في أيلول/سبتمبر ١٩٣٣ أصدر في باريس صحيفة «الشرق العربي» الشهرية، وقد اتخذ اسماً مستعاراً هو «مصطفى العمري». وكانت توزع سراً في البلاد العربية. تابعت هذه الصحيفة الصدور إلى أن عطلها رئيس الحكومة الفرنسية (لافال) في أوائل صيف سنة ١٩٣٦ بمرسوم خاص.

ـ بعد تعطيل الصحيفة استدعي نجاتي إلى موسكو، فوصل إليها في صيف سنة ١٩٣٦، وهناك قابل خالد بكداش في مقر «الكومنترن». وتتحدث المذكرات عن الاختلاف في وجهات النظر بشأن الموقف من الوحدة العربية.

ـ سافر في تلك السنة إلى طشقند ليطلع على التجربة السوفياتية في «حل المشكلة القومية» هناك.

ـ بعد العودة من طشقند اقترح عليه المسؤولون في «الكومنترن» السفر إلى إسبانيا للمساعدة ـ في أثناء الحرب الأهلية ـ في الدعاية في الأوساط المغربية.

ـ في ١٠ آب/أغسطس ١٩٣٦ وصل إلى باريس، ثم تابع طريقه إلى إسبانيا ـ إلى الأراضي الجمهورية. أقام ببرشلونة ثم انتقل إلى مدريد، وهناك رتب له الحزب الشيوعي الإسباني مقراً يحرر فيه المقالات والنشرات ـ بالعربية ـ للجنود المغاربة. وقد تجاوز نشاطه الكتابة فوصل إلى ساحة القتال وخاطب المغاربة المحاربين مع فرنكو بمكبرات الصوت، وقابل الأسرى، وكتب التقارير من الجبهة.

ـ في أواخر كانون الأول/ديسمبر ١٩٣٦ قررت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الإسباني إيفاده مع مسؤول إسباني إلى الجزائر لإنشاء محطة إذاعة عربية تبث إلى إفريقيا الشمالية عامة، والمغرب الإسباني خاصة. بعد وصول نجاتي إلى الجزائر تبيّن أن أسباباً فنية قاهرة تحول دون تحقيق المشروع.

ـ عاد إلى باريس. وهناك تأزمت علاقاته بالحزب الشيوعي الفرنسي.

ـ في نيسان/أبريل ١٩٣٧ ورد توجيه من «الكومنترن» بترتيب أمر سفره إلى لبنان.

ـ وصل إلى دمشق وأسندت إليه منظمة دمشق الحزبية. وتحدثنا المذكرات عن

علاقات نجاتي بخالد بكداش.

- بدأ ينشر في الصحف مسلسلاً بعنوان «عربي حارب في إسبانيا» من دون ذكر اسمه الصريح، لكن الكتاب الذي جمع تلك المادة نشر باسم خالد بكداش.
- قررت اللجنة المركزية للحزب نقل النشاط إلى بيروت بعد تأزم العلاقات السورية ـ الفرنسية، فانتقل نجاتي إلى هناك.
- تتحدث المذكرات عن ظروف تجميد نشاط نجاتي صدقي الحزبي، وانقطاعه عن العمل في صحيفة «صوت الشعب».
- بحث عن مصادر للعمل والرزق في جريدة «النهار» ومجلة «الجمهور». وبعد نشوب الحرب العالمية الثانية انضم إلى أُسرة مجلة «المراحل المصوّرة».
- هاجم اتفاقية عدم الاعتداء التي عُقدت بين هتلر وستالين في ٢١ آب/أغسطس ١٩٣٩، وفي ذلك كان الانفصام التام بين نجاتي والحزب.
- فصل نجاتي من الحزب سنة ١٩٣٩ ونشر «القرار في صحيفة حزبية سرية مطبوعة على الجلاتين». إلى هنا تنتهي المذكرات.
- عاد إلى القدس سنة ١٩٤٠، وبدأ العمل في «محطة إذاعة الشرق الأدنى». بقي في القدس حتى النكبة سنة ١٩٤٨. وفي هذه الفترة بذل جهوداً كبيرة للإنتاج الأدبي، فكتب القصة والمقالة والدراسات الأدبية، وصدر له كتابان في سلسلة «إقرأ» (القاهرة): «بوشكين» (١٩٤٥)، و«تشيخوف» (١٩٤٧).
- في سنة ١٩٤٨ انتقلت «إذاعة الشرق الأدنى» إلى قبرص، فانتقل معها وعاش في مدينة ليماسول حتى سنة ١٩٥٠. ثم انتقل إلى بيروت، وعمل في الصحافة والأدب وكتابة النصوص الإذاعية حتى سنة ١٩٧٦، فانتقل إلى أثينا حيث أقام عند ابنته.
- توفي في ١٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٩.

الفصل الأول

١ ـ هجرة ومبادئ مستوردة

حملت الهجرة اليهودية إلى فلسطين فيما حملته معها عادات وأفكاراً ومناهج اجتماعية غريبة عن البيئة العربية الفلسطينية.. فسمعنا وقتئذ، أي أوائل العشرينات، عن البلشفية[١] والفوضوية[٢] وماركس[٣] ولينين[٤] وتروتسكي[٥] وهيرتسل.[٦] وأخذنا نتعرف إلى حركات عمالية بين المهاجرين اليهود، مثل «الهستدروت»، أي اتحاد نقابات العمال اليهود، و«الفراكتسيا»، أي المعارضة اليسارية في الهستدروت، وحزب «بوعالي تسيون»،[٧] أي عمال صهيون، و«الكيبوتس»،[٨] أي المعسكرات التعاونية شبه الاشتراكية للعمال اليهود القادمين حديثاً إلى البلاد.

وشرع العمال اليهود من ذوي الميول اليسارية يبثون الدعاية بين العرب. وكانت أول تظاهرة قاموا بها في شوارع يافا هي تظاهرة أول أيار/مايو سنة ١٩٢١، فرفعوا الأعلام الحمراء في حي المنشية، وأخذوا يرسلون هتافات شتى بالعبرية والعربية، والسكان العرب ينظرون إليهم واجمين دهشين، لا يفقهون ما يقوله هؤلاء المتظاهرون، ولا يدرون ما يريدون.

قال فريق من العرب الواعين: «هؤلاء بلاشفة أتوا من روسيا متأثرين بمبادئ الثورة البلشفية ويسعون إلى تطبيقها في المحيط العربي..»، وقال فريق آخر: «هؤلاء صهاينة حمر قد أعلنوا الثورة على العرب فلنرد عليهم بثورة مضادة..»؛ وكانت أولى ثورات العرب في فلسطين ثورة يافا سنة ١٩٢١.[٩]

كانت الحركة العمالية اليسارية تتمثل في المهاجرين اليهود بحزب «بوعالي تسيون»، ويدعو إلى تأسيس دولة اشتراكية يهودية في فلسطين على أنقاض دولة إسرائيل البورجوازية، وهو لا يعترف بالكيان العربي؛ فالعرب في نظره شعب متأخر اجتماعياً وهو أبعد الناس عن اعتناق المذهب الاشتراكي. ويرى الحزب أن حل المشكلة العربية في فلسطين لا يكون إلاّ بدمج العرب باليهود عن طريق التجنيس والاختلاط الجنسي.. فلا تنقضي مرحلة من الزمن إلاّ ويكون العرب قد أذيبوا في بوتقة الدولة الاشتراكية اليهودية.

وقامت في الحزب حركة معارضة، هي نواة الحركة الشيوعية في فلسطين، تقول بقيام دولة اشتراكية في فلسطين على أنقاض الاستعمار الإنكليزي والبورجوازية الصهيونية، وتكون الدفة القائدة في هذه الدولة بيد العمال اليهود لأنهم أكثر إدراكاً لحرب الطبقات. أمّا العرب فيظلون يتمتعون بكيانهم الخاص، وليس ضرورياً اندماجهم بالشعب اليهودي. ويعمل عمال هذا الشعب وفلاحوه على التخلص من طبقة «الأفندية»، بمساعدة زملائهم من العمال اليهود المتشبعين بالأفكار الاشتراكية الثورية التي حملوها معهم من روسيا وأوروبا الشرقية.

ووجد البلاشفة الروس وقتئذ في هذه المعارضة اتجاهاً يتفق لدرجة كبيرة مع برنامجهم، فأيدوها بالمال والتوجيه.. وفي سنة ١٩٢٣ طلبت المعارضة هذه قبولها في «الأممية الشيوعية».[١٠] فقبل طلبها وصارت تدعى «الحزب الشيوعي لفلسطين»، بدلاً من الاسم الذي اتخذته لنفسها وهو حزب العمال لفلسطين، لأنها تتألف من أكثرية يهودية ساحقة، على أن تتغير هذه التسمية إلى «الحزب الشيوعي الفلسطيني» متى تساوى العرب في الحزب مع اليهود، أو أصبحوا يؤلفون أغلبية ساحقة.

كنت وقتئذ فتى يافعاً أعمل في دائرة البريد والبرق في القدس، وتقع هذه الدائرة في دار القنصلية الإيطالية القديمة، المجابهة لبنك باركليس اليوم.. أي أنها تقع عند الحد الفاصل بين المناطق العربية والمناطق اليهودية خارج السور.

فدائرة البريد والبرق تضم موظفين من العنصرين، وفيها يلتقي مختلف الأجناس والطوائف، فترى ابن البلد بلباسه العربي.. و«الأشكنازي» (يهود النمسا الذين هاجروا إلى فلسطين قبل الحرب العالمية الأولى لاعتبارات دينية بحتة)، وهم يرتدون المعاطف المخملية الملونة، ويضعون على رؤوسهم قبعات من الفراء تشبه إلى حد كبير قبعات التتر، ولعلهم اقتبسوا هذا اللباس عن التتر بأكمله حين بلغوا في زحفهم حدود أوروبا الشرقية.. و«الخلوتس»، أي طلائع المهاجرين اليهود وهم في سراويلهم القصيرة رجالاً ونساء.. و«السفاردي»، وهم بقايا اليهود المستعربين الذين نزحوا عن إسبانيا بعد انهيار الحكم العربي في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي.. و«الكرجي»، وهم بقايا اليهود الذين سباهم الأشوريون في عهد الملك شلمنصر* ٧٣٠ق.م.، ثم عاد قسم منهم إلى فلسطين في عهود متأخرة.

---

* أُطلق اسم شلمنصر على خمسة من ملوك الأشوريين، والإشارة هنا إلى شلمنصر الخامس (٧٢٧ ـ ٧٢٢ ق.م.) الذي احتل مملكة السامرة في شتاء ٧٢٢ ق.م. وقد ورد ذكره في سفر الملوك الثاني (العهد القديم) الإصحاح ١٧، الآيات ٣ ـ ٦: «وصعد عليه [على هوشع ملك السامرة] شلمناسر ملك أشور فصار له هوشع عبداً ودفع له جزية.... وصعد ملك أشور على كل الأرض وصعد إلى السامرة =



نجاتي صدقي في دائرة البريد والبرق/ القدس، ١٩٢٣

وفي دائرة البريد والبرق هذه تسمع لغات شتى، وترى أزياء تمثل مختلف الشعوب والطوائف.. أو مختلطة اختلاطاً عجيباً، كأن ترى فتاة يهودية ترتدي سروالاً قصيراً وقد عقدت الكوفية العربية على رأسها، أو فتى يهودياً يرتدي سترة صنعت من جلود الخراف.. أو إنكليزياً يضع على رأسه قلبقاً ضخماً بقصد إثارة الرعب في نفوس السكان.. أو فلاحاً يرتدي عباءة ويحتذي نعلاً ثقيلاً من مخلفات الجيش البريطاني.

كنا نحتك بالمهاجرين اليهود في هذه الدائرة إمّا بحكم العمل وإمّا بطريق التعارف.. إضافة إلى أننا كنا نرتاد مقهى صغيراً يقع خلف بنك باركليس اليوم، صاحبه يهودي روسي ضخم الجسم، طويل القامة يرتدي بنطلوناً أبيض، وقميصاً أسود، له فتحة وأزرار من جهة كتفه اليسرى، يحلق رأسه بالموسى بقصد التبريد في فصل الصيف، وله لحية مكورة وشاربان مهذبان على الطريقة الروسية.. وكانت تعمل عنده فتاة بولونية جذابة، شعرها أشقر، وبشرتها مزيج من اللونين الأبيض والأحمر، وعيناها زرقاوان.. ففي هذا المقهى الصغير كنا نجتمع عصر كل يوم، ونتعرف إلى رواده من الأجانب، فهناك رجل قيصري بلحيته البيضاء، يقول أنه كان ربان سفينة حربية روسية، وقد استولى البلاشفة على سفينته في ميناء أوديسا.. وشاب من أب روسي وأم عربية يعمل في مصلحة البلدية.. وفنان رسام مهاجر يرسم الناس لقاء قروش معدودات.. وسيدة أنيقة تتحدث كثيراً عن أملاكها في أوكرانيا.. وفتيان وفتيات من المهاجرين يرطبون حلوقهم بشراب من «السيفون».

وتدور في هذا الوسط مناقشات في مواضيع شتى تتعلق بهجرة اليهود، ونضال العرب، وعصيان جابوتنسكي،[١١] الصهيوني الروسي المتطرف، ومعركة «تل حاي»[١٢] في شمال فلسطين، ومقتل الضابط اليهودي يوسف ترومبلدور في تلك المعركة، وثورة يافا، والاصطدام المسلح بين اليهود والعرب في القدس بعد قيام جابوتنسكي بزحفه إلى حائط المبكى في القدس القديمة.. وكانت تتخلل هذه المناقشات أبحاث عقائدية يترجمها لنا بعض المهاجرين الذين يتحدثون بالعربية الدارجة، عرفنا منها أن الاشتراكية تسعى إلى بسط سلطانها عن طريق المجالس النيابية، وأن الفوضوية لا تعترف بأي نوع من الحكومات وترمي إلى إدارة شؤون الناس بواسطة النقابات، وأن البلشفية (ولم يكن العرب قد استعملوا اصطلاح

= وحاصرها ثلاث سنين. في السنة التاسعة لهوشع أخذ ملك أشور السامرة وسبى إسرائيل إلى أشور....».

أمّا خليفة شلمناسر هذا فهو سرجون الذي أكمل الاحتلال والنفي. (المحرر)

الشيوعية بعد) أقامت في روسيا حكماً اشتراكياً عن طريق الانقلاب والجيش الأحمر.

كانت هذه الأحاديث بالنسبة لنا وقتئذ مبهمة، وبعيدة عن مشاكلنا المحلية. فالشيء الذي كان يهمنا ويستولي على أحاسيسنا هو «المستقبل الغامض المروع»، و«الاحتلال الإنكليزي»، و«وعد بلفور». كنا نسمع من آبائنا أن الإنكليز والفرنسيين جاؤونا محررين، وأن لورنس(١٣) هو صديق العرب، وأن ثورة الحسين بن علي(١٤) ترمي إلى توحيد العرب وإقامة دولة لهم.. وكانت تروق لنا العبارات المكتوبة على الجدران في الشوارع، مثل: «فليحيا الاستقلال»، و«ليسقط الاستعمار»، و«ليسقط وعد بلفور»، و«الاستقلال التام أو الموت الزؤام».

في هذا الجو نشأنا.. جحافل الاستعمار والصهيونية تجتاح فلسطين، وعقائد عالمية تغزو أفكارنا اللدنة، ونحن على استعداد لسماع كل شيء، ولقبول كل عرض بوسعه أن يرفع عنا كابوس الاحتلال الجديد الذي خلف الحكم التركي.

تعرفت في «مقهى البوسطة» إلى جماعة من الشباب المهاجرين الذين وفدوا من روسيا، وكانوا ينتمون إلى «الفراكتسيا»، وحزب العمال لفلسطين، وأخذوا يبثون فينا دعاية تستهدف النقاط التالية:

أولاً: إن الاستعمار الإنكليزي هو عدو للعرب ولليهود على السواء، وأن سياسته تقوم على مبدأ «فرّق تسد».

ثانياً: إن المهاجرين اليهود يتألفون من بورجوازيين أغنياء وعمال بائسين.. وأن الصهيونية هي حركة بورجوازية تفيد أغنياء اليهود فقط.. أمّا العمال اليهود فمصلحتهم في الاشتراكية الدولية وسيعملون على التخلص من سادتهم عاجلاً أو آجلاً.

ثالثاً: إن «الأفندية» العرب انتهازيون يتعاونون مع الاستعمار ولا يرجى منهم خير.

رابعاً: إن حزب العمال لجميع سكان فلسطين هو القادر على التوفيق بين مصالح الجماهير العاملة من الشعبين، وحل المشكلة الفلسطينية على أكمل وجه.

آراء جديدة ومغرية، وحلول تدعو إلى التفكير العميق.. واستدرجنا الدعاة من المهاجرين إلى ناد لهم يقع خلف المستشفى الألماني في القدس، وهناك حدثونا عن اعتقال زملاء لهم في مصر، وموت أحدهم، وهو عربي لبناني، في السجن بعد أن أضرب عن الطعام، وقدموا لنا صحيفة عربية تحمل اسم «الإنسانية» يصدرها في بيروت يوسف يزبك، وقد توّجها بصورة له وهو يستنجد بالسماء.. كما قدموا لنا كتيّباً صغيراً بالعربية يتحدث عن الفوضوية بقلم البرنس كروبوتكين.(١٥)

وتوالت الاجتماعات تارة في النادي، وتارة أُخرى في غابة شنللر، أو بين صخور محلة الراتزبون.. إلى أن قالوا لي ذات يوم، وكان ذلك في أواخر سنة ١٩٢٤، وكنت في التاسعة عشرة من عمري: ألا ترغب في السفر إلى موسكو لتدرس في جامعتها دون أن تتكلف بنفقات السفر والتعليم والإقامة؟

لم أتردد في قبول عرضهم هذا لحظة واحدة، فطلبوا مني أن أعدّ نفسي للسفر خلال ستة أشهر. فعكفت على دراسة مبادئ اللغة الروسية بمساعدة شاب روسي مستعرب، تعلمت منه الحروف الهجائية الروسية، وحفظت عنه بعض الكلمات الضرورية. وفي هذه الأثناء عقد القوم مؤتمراً لشبيبتهم في حيفا دعوني إليه وانتخبوني عضواً في اللجنة المركزية للشبيبة.. وكان ذلك إيذاناً بانضمامي إلى الحركة الموالية للبلشفية رسمياً. وصرت منذ ذلك الحين أحضر كل الاجتماعات السرية، وأسهم في نشر الدعوة وتوزيع النشرات.

٢ ـ في الطريق إلى موسكو

حل موعد السفر إلى بلاد الشمال.. إنها مغامرة خطرة يقوم بها شاب عربي، يترك وطنه وأهله وعمله ليطلب العلم في بلاد غريبة لا يعرف عنها شيئاً ولا يفقه من لغتها سوى كلمات.. لكنه التعطش إلى العلم والمعرفة، والرغبة الملحة في سد الثغرة العلمية التي أحدثتها الحرب العالمية الأولى في صفوف الشبيبة العربية الطالعة.

عملت على إعداد جواز السفر خفية، واستأذنت والدي في السماح لي بأسبوع أقضيه بين الأهل في يافا إبان الاحتفال بعيد النبي روبين.(١٦) وتوجهت إلى يافا حيث كانت الباخرة «تشتشيرين» راسية في الميناء.. وهناك استقبلني أحد أعضاء الحزب واستخرج لي سمة دخول إلى تركيا، ثم قادني إلى الباخرة وقال: تصعد إليها وكأنك مسافر إلى إستنبول.. وحين تضع قدمك على متنها تسأل عن الرفيق «أورلوف»، رئيس فرقة الحزب في الباخرة.. إنه في انتظارك وعلى علم بأمر سفرك. رافقتك السلامة.

وقبل أن أودعه أودعته رسالتي إلى والدي، وسألته أن يلقيها في صندوق البريد بعد انقضاء ثلاثة أيام على سفري، فوعدني خيراً.. وهذا هو مضمونها:

يافا في ١٦ أيلول [سبتمبر] سنة ١٩٢٥

والدي العزيز.

حين تستلم رسالتي هذه أكون في عرض البحر الأبيض المتوسط، في

طريقي إلى موسكو لأطلب العلم في جامعتها.

لا تقلق ولا تحزن.. السفر مريح جداً، والمعاملة ممتازة.. وسأقيم في عاصمة الروس ثلاث سنوات، ثم أعود إليك وقد حصلت على قدر عظيم من العلوم والفنون.

لا تظنني مسافراً إلى القطب الشمالي.. فالمسافة التي تفصلني عنك هي عشرة أيام فقط.. أمّا البرد هناك فمحتمل وقد أخذت معي على سبيل الاحتياط المعطف العسكري السميك.

أسألك الصفح.. وسأكتب لك من موسكو دائماً.

واسلم لابنك المطيع.

نجاتي

أعلمني والدي فيما بعد أنه حين تلقى رسالتي هذه أرغى وأزبد، وتوجه إلى دار الحكومة صارخاً: «لقد اختطف البلاشفة ابني».. وطلب من الإنكليز أن يرسلوا في إثري سفينة حربية لتعيدني من عرض البحر مهما كلف الأمر.. إلاّ إنهم أفهموه بتعذر تحقيق طلبه هذا، وسألوه أن يحتمل الصدمة بصدر رحب، واكتفوا بتسجيل الشكوى.

أقلعت الباخرة «تشتشيرين» التجارية الصغيرة الحجم من ميناء يافا قبيل الغروب.. ووقفت في مؤخرتها أرقب اختفاء بناية الجمرك، ومخازن التجار، والمراكب الشراعية، وجامع حسن بك، والبيارات، أو بساتين البرتقال، المنتشرة على امتداد الساحل.. وأودع الأهل في القدس الذين يظنون أنني أقضي وقتاً ممتعاً في مخيمات «النبي روبين» إلى الغرب من يافا.. وما كاد المساء يرخي سدوله على الميناء الفلسطيني القديم حتى داخلني الاطمئنان بالابتعاد عن «موطن الخطر»، ورحت أفتش عن الشخص الذي أريده.. فرأيت ملاحاً روسياً يجمع الحبال فاقتربت منه وقلت له متسائلاً: توفاريش أورلوف؟..

فأدرك أنني أبحث عن الرفيق أورلوف، فابتسم وربت على كتفي وأشار إليّ بأن أتبعه.. وقادني إلى طابق سفلي من الباخرة، وطرق باب غرفة فأجاب صوت من الداخل «دا»، أي نعم..

ودفع الملاح الباب على رجل روسي عملاق، حليق الرأس، فما أن وقع نظره عليّ حتى قال: آ.. موسكو أونفرستي؟..

فأومأت له برأسي بالإيجاب.. وأمسك بيدي وتوجه بي إلى منامة الملاحين، وقال لي بإنكليزية ركيكة، وهو يشير بيده إلى أحد الأسرّة: «هير يو سليب.. أوديسا!»..

ففهمت منه أنني سأنام على أرجوحة في غرفة ملاحي الباخرة حتى أوديسا..

كانت الليلة الأولى مروعة حقاً، فالباخرة صغيرة.. والبحر الهائج يتلاعب بها كما يحلو له.. والأرجوحة تميل بي يميناً ويساراً.. ومقدم الباخرة يرتفع إلى العلاء ويغوص في الأعماق بصورة رتيبة متواصلة.. والملاحون يحدثون أصواتاً مثيرة من الشهيق والزفير.. وقرقعة أباريق الشاي.. والقدور.. والقباقيب.. والنداءات.. والأغاني.. والنقر على آلة «البلالايكا»..

وبانقضاء اليوم الأول والثاني والثالث تعرفت إلى البحارة والمسافرين، ومعظمهم من اليهود العائدين إلى أوكرانيا.. وحضرت حفلات ساهرة تخللها غناء الروس ورقصهم الشعبي.. كما حضرت اجتماعات حزبية مع أنني لم أفقه ما دار فيها من مواضيع، لكنني أدركت أنها تتناول مناسبة انقضاء ثمانية أعوام على ثورة أكتوبر الاشتراكية.

وفي اليومين الرابع والخامس اجتزنا جزيرة رودس، ثم مررنا بأرخبيل اليونان، ودخلنا في بحر إيجه، واجتزنا الدردنيل، فتكشفت لنا من على ضفتيه القريبتين طبيعة خلابة، ثم ولجنا في الليل بحر مرمرة. ولمّا طلع فجر اليوم السادس بدت لنا القسطنطينية بفخامتها وروعتها.. ويخال للمرء حين يشاهد هذه المدينة الخالدة من بعيد أنها تغص بمداخن المصانع، والواقع أنها مآذن بديعة الهندسة لمساجد أثرية نفيسة ورائعة.

قال لي الرفيق أورلوف حين أقبلنا على الميناء: «سيسألك موظفو الأمن التركي: 'ألا تود النزول إلى الأراضي التركية؟' فقل لهم: 'كلا إنني مسافر إلى أوديسا' من دون أن تعطيهم أي شرح أو تفسير.» وهكذا كان.. رست الباخرة مقابل كوبري غَلَطه، واستُدعيت إلى غرفة الربان، فقال لي أحد موظفي الأمن الأتراك وعلى ثغره ابتسامة عريضة: في جواز سفرك سمة دخول إلى تركيا ألا تود الاستفادة منها؟

قلت: لقد عدلت عن النزول إلى البر التركي..

- لماذا؟..

- لأنني أرغب في زيارة ميناء أوديسا..

- فتى مثلك يزور أوديسا؟

- هذا أمر يخصني وحدي..

- وأين سمة الدخول إلى البلاد الروسية؟

وهنا اعترض الربان وقال: هذا من شأننا.. وأنا بوصفي ربان الباخرة أسمح لهذا الفتى بالسفر إلى أوديسا، وهناك تتولى السلطات الروسية منحه سمة الدخول

إلى الأراضي السوفياتية بعد أن يدفع الغرامة التي ينص عليها القانون.

فهز موظفو الأمن الأتراك أكتافهم وغادروا الباخرة.. وتابعنا رحلتنا في البوسفور في اتجاه البحر الأسود. وما أن قطعنا مسافة قليلة منه، وكانت الساعة تشير إلى التاسعة مساء، حتى اقترب مني الرفيق أورلوف، وأنا أستند إلى حاجز الباخرة، وأخذ يروي لي بلغته الإنكليزية قصة. قال ما معناه:

«كان في روسيا سنة ١٩١٧ عدد من الجنود الأتراك الذين وقعوا في الأسر الروسي إبان الحرب العالمية، وقد تحمس هؤلاء الجنود للثورة الروسية واشتركوا فيها مع الروس، وأقاموا في الربوع الروسية حتى السنة الماضية، أي سنة ١٩٢٤، والحرب التركية اليونانية في أوجها، ومصطفى كمال[١٧] ينتزع الانتصار تلو الانتصار في الأناضول، واسمه يملأ الدنيا، والحكومة السوفياتية تمده بالعون الاقتصادي والسلاح.

«وكان من البديهي أن يرغب هؤلاء الجنود الأتراك، الذين تشبعوا بمبادئ الثورة البلشفية، بالعودة إلى وطنهم تركيا والاشتراك في الحرب الوطنية إلى جانب مصطفى كمال باشا.. فحلوا في الأناضول، وعددهم يقارب الثلاثين شخصاً، وقدموا أنفسهم للغازي.. فرحب بهم وأمر بالاستعانة بخبرتهم العسكرية.

«وخيل لهؤلاء الجنود الأتراك أن الثورة الكمالية هي ثورة ديمقراطية تشبه ثورة كيرنسكي[١٨] في روسيا (ثورة شباط/فبراير ١٩١٧)، ولا بد من تحويلها إلى ثورة اشتراكية مثل (ثورة تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٧)، وعملوا في هذا الاتجاه باثين الدعوة بين العمال والفلاحين والجنود الأتراك، حاثينهم على التشبه بالثورة الاشتراكية الروسية وإعلان الحكم السوفياتي في الربوع التركية.

«وما إن بلغت أنباء هؤلاء الجنود سمع مصطفى كمال حتى أمر باعتقالهم، وإجراء تحقيق شديد معهم.. ثم اختفت آثارهم تماماً.. وقيل إنهم قُيِّدوا بالسلاسل وقذف بهم إلى أعماق البوسفور.»

ثم تنهد أورلوف وقال وهو ينظر إلى مياه البحر: «من يدري.. ربما نمرّ من فوقهم في هذه اللحظة!..»

ودخلنا في البحر الأسود، وهو بالفعل بحر يميل إلى السواد، لانحصاره بين الأراضي، ولعمقه الذي يبلغ ٧٢٠٠ قدم، بحر متلاطم الأمواج صاخب، اجتزناه وكأننا ريشة في مهب الرياح.

وحدث لي حادث ونحن نقترب من أوديسا، ليس له من تفسير سوى الجهل بأنظمة جديدة، والتمسك بعادات بالية.. فقد تعرفت في الباخرة إلى شاب يوناني، هو متعهد المواد الغذائية في الباخرة، وكان هذا الشاب طوال الرحلة يكثر من

التحكك بي ويقدم لي كل عون ممكن.. فتوطدت بيننا أواصر الصداقة، وفهمت منه أنه لا يشتغل بالسياسة ولو أنه يعطف على السوفيات.. وحين اقتربنا من ميناء أوديسا قال لي: هل لي أن أطلب منك خدمة بسيطة؟..

قلت: تفضل..

قال: اشتريت من إستنبول قطعة جلد لحذاء وعقداً من الكهرب، هما هدية لصديقة لي في أوديسا.. وإدارة الجمارك في الميناء تتقاضى تعرفة عالية عنهما أعجز عن دفعها، فرجائي إليك أن تحملهما معك في حقيبتك.. وأن تدّعي أنهما لك..

قلت: طيب أقول أنا الجلد لي.. وما أقول في العقد..

قال: قل إنك تحمله هدية إلى فتاة تعرفها من فلسطين..

وقعت في حيرة.. فلقد أحسن هذا الشاب اليوناني معاملتي في الباخرة، وهو يرجوني الآن أن أقدم له خدمة بسيطة.. فواجب الصداقة، والخبز والملح، يحتمان عليّ تلبية رغبته.. فوضعت العقد في جيب معطفي، وتركت جلد الحذاء مكشوفاً بين اَلْبِسَتي..

وحين فُتحت الحقيبة في الجمرك أطبق الموظفون على جلد الحذاء، غير أنهم لم يفتشوا المعطف، وبالتالي لم يعثروا على العقد. وسألوني لماذا أحمل معي جلد الحذاء هذا وأنا آت في طلب العلم؟

قلت: جلبته معي لأفصّله حذاء لي..

فتشاوروا معاً، ويبدو أنهم لم يقتنعوا بكلامي هذا، واشتبهوا بأن أحداً من بحارة الباخرة يستغلني، فتركوني وشأني.

وحللت في أوديسا في «بيت البلغار»، وهو نزل للثوار الفارين من بلغاريا إثر فشل ثورة العمال في صوفيا سنة ١٩٢٤. وبعد يومين جاءني البحار اليوناني واستلم الجلد والعقد شاكراً، ولم أكن لأعلم أن عيوناً كانت تراقب.. وفي اليوم الثالث قال لي أحد البلغاريين: لقد اعتُقل البحار اليوناني الذي استغل جهلك.. إن نقل قطعة جلد وعقد في بلدي أو في بلدك لا يثير أية شبهة، ولا يعيره أحد أي اهتمام، غير أنه هنا يُعتبر وسيلة من وسائل المضاربة التجارية البورجوازية، فانتبه!..

بقيت في أوديسا أربعة أيام بانتظار التعليمات من موسكو. وحدث وأنا في أوديسا أن حضرت حفلة ترفيهية شعبية، وكان الطقس بارداً، فارتديت المعطف العسكري الذي جلبته معي من القدس، ولهذا المعطف شريطان على كتفيه لتعليق الشارات والنجوم، فرمقني القوم في المسرح بنظرات مستغربة. ولمّا سألت عن

السبب قيل لي إنك فتى وترتدي معطف ضابط..! فالثورة الروسية نزعت شرائط الأكتاف عن ستر ومعاطف الجنود والضباط لأن القوات القيصرية كانت تتزين بها، وهي التي تميز «البيض» عن «الحمر».. ثم ظهرت أنت بهذا المعطف ذي الشريطين فأثرتَ فضول الناس واستغرابهم..

وبعد انقضاء السهرة عدت إلى «بيت البلغار»، واستعرت مقصاً ونزعت الشريطين إلى الأبد.. وجاء الإذن بانتقالي إلى موسكو، فمنحت وثيقة مرور، وسافرت في القطار المتوجه إلى العاصمة السوفياتية. وقد استغرقت هذه الرحلة مدة ست وثلاثين ساعة، فمررنا بخاركوف، وكورسك، وأوريل، وتولا، فموسكو.. فكان المسافرون في القطار فلاحين وجنوداً وعمالاً وفتيات من الأسر المتوسطة.. وقد استرعى انتباهي وقتئذ أن الفلاح الروسي يطيل شعر رأسه ويفرقه من منتصفه، ويرتدي قميصاً يسمى «تولستوفكا»، نسبة إلى القميص الذي كان يرتديه الكاتب الروسي الكبير ليف تولستوي.. والقميص هذا مطرز بخيوط ملونة في صدره، ورقبته، وكمّيه، وحاشيته، ويرسله لابسه من فوق السروال، ويحزمه برباط من القطن المجدول، ويجعل طرفي هذا الرباط إلى الجانب الأيمن.. أمّا فتحة القميص فتكون في الجانب الأيسر من الكتف. ثم إن الفلاح يرتدي سروالاً مبطناً بالقطن، وينتعل في الصيف حذاء من القش، ويلف ساقه بأربطة قطنية، أمّا في الشتاء فينتعل جزمة من اللبّاد السميك تسمى «فالنكي».

والفلاحات الروسيات يَمِلْنَ إلى ارتداء الأثواب الملونة، ويعصبن رؤوسهن بالمناديل التي تختلف في لونها بالنسبة للأعمار وللأحوال الخاصة.. وحذاء الفلاحة هو حذاء الرجل على السواء.

أمّا الجنود الروس، أو على الأصح الجنود الحمر، فكانوا يرتدون في ذلك الحين لباساً مميزاً وهو كناية عن معطف طويل يبلغ الكعب تقريباً، له خصر ضامر، وعند كل زر في الصدر شريط أحمر طوله عشرة سنتيمترات.. ويضع الجندي على رأسه قبعة مستمدة من قبعات الروس المحاربين القدامى، وهي مخروطة الشكل، ولها حاشيتان تسدلان على الأذنين في حالة البرد الشديد.. وتحليها في منتصفها تماماً نجمة حمراء.

والعمال الروس كما رأيتهم يرتدون معطفاً من الجلد الأسود، وينتعلون جزمة من الجلد السميك، ويضعون على رؤوسهم قبعات (كاسكيت) من الجلد الأسود أيضاً.

وموظفو الدولة يرتدون بزات تميل إلى الخضرة في لونها، لها أزرار مذهبة، ويضعون على رؤوسهم قبعات لها رف أسود لامع، ولها حاشية خضراء.

أمّا فتيات الطبقة المتوسطة، وكلهن على مستوى عال من التعليم والتهذيب،

فهن يطلن شعورهن ويجدلنها حول رؤوسهن ويرتدين الأثواب المخرمة الطويلة المحتشمة، وينتعلن أحذية ترتفع عن الكاحل وتثبت برباط.. ومنهن من يتحدثن بالفرنسية أو الألمانية، غير أنهن يجهلن الإنكليزية إطلاقاً. والمسافرون في القطار يحتسون الشاي كثيراً، وفي كل محطة للسكة الحديدية صهريج كبير من الماء المغلي يسمى «كيبانوك»، يأخذ المسافرون منه حاجتهم من الماء المغلي، ويضعون فيه القليل من الشاي. أمّا السكر فيقضمونه قضماً مع كل جرعة من الشراب الساخن المحبب إلى نفوسهم.

ويدخن الجميع تقريباً تبغ «الماخوركا» القوي الرائحة، وهو داكن اللون، يزرعه الفلاحون ويجففونه، ثم يجعلونه قطعاً صغيرة ويلفونه بورق رقيق أو سميك، أو يضعونه في غليون صغير يصنعونه من غصون الأشجار.

ها هم رفاق الطريق من أوديسا إلى موسكو.. ضجيج في القطار، وطرطقة رتيبة، وصفير القاطرة تتجاوب أصداؤه في الغابات الواسعة الأطراف.. وعند كل محطة تهدر القاطرة وتزمجر وترسل رذاذاً على الجانبين.. ثم تسمع أصوات الباعة وهي تصرخ «يابلوشكي»، أي التفاح، و«كفاس» وهو شراب مستخرج من حبوب نشويّة محلية، و«بيروجنايا»، أي الكعك.. وهناك باعة الصحف ينادون «برافدا»، «إزفستيا»، «ترود»، و«فتشيرنايا موسكفا»، ثم يقرع الناقوس معلناً متابعة الرحيل، ويتبعه صفير القاطرة، وحركات من الفوانيس إذا كان الوقت ليلاً.

أمّا مناظر الطريق فمعظمها غابات كثيفة أو سهول خصبة، وتلال خضراء.. وتنتشر على الجانبين قرى روسية بنيت بيوتها من جذوع الأشجار، وهي مؤلفة من طابق واحد أو طابقين، وتدل هندستها على طابع قومي خاص، ومنها ما قد شُيّد بذوق فني رفيع فأصبحت تشبه بيوت القصص الخرافية الخاصة بالأطفال.

وشاهدت أثناء مرورنا بالمدن الرئيسية أبنية جميلة يغلب عليها طراز القرن التاسع عشر، فهي مزخرفة من الخارج، ولكثير منها شرفات لها أعمدة بيضاء تشبه الشرفات الإغريقية والرومانية.

وأخيراً أقبلنا على موسكو.. العاصمة التي استرعت إليها انتباه الدنيا بأسرها بعد الحرب العالمية في تلك الفترة من التاريخ. واستقر القطار في «كورسكي فوكزال»، أي محطة كورسك.

ثم ركبت عربة صغيرة يجرها حصان واحد، ويقودها «إزفوتشيك»، أي السائق، وهو على الأغلب رجل له لحية كثة، ويرتدي معطفاً مزمّم الخصر، ويضع على رأسه قبعة من الفرو.. ودرجت العربة في شوارع مرصوفة بالحجارة السوداء، مارة بأبنية وأسوار روسية قديمة إلى أن اجتازت ساحة التياترو الكبير «بولشوي

تياتر»، ثم انعطفت إلى اليمين مخترقة شارع «تفرسكايا» (ويسمى اليوم شارع غوركي)، وتوقفت عند باب نزل للأجانب يسمى «لوكس».

إنه فندق كبير قديم، عرفته موسكو قبل الثورة، مؤلف من ثلاثة طوابق، وفي كل طابق غرف كثيرة، تضم كل واحدة منها سريراً واحداً أو سريرين، وجهاز تلفون.. وفي كل جناح حمام للرجال وآخر للنساء، وللبناية كلها حلاق، وكواء، ومركز للهاتف.. وله هيئة إدارة يشرف عليها شخص يسمى «زافيديوشي». وهذه الهيئة هي التي توزع الغرف على الذين يحلّون في النزل للإقامة الدائمة أو المؤقتة، وهي التي تعنى براحتهم وغسيلهم وحماماتهم.

ويقيم في نزل «لوكس» معظم موظفي الكومنترن، أي مقر «الدولية الشيوعية»، إن كانوا من العزّاب أو من المتزوجين، كما يقيم فيه مؤقتاً كل أجنبي موفد لتلقي العلم أو للزيارة الرسمية.

حللت في هذا النزل مدة ثلاثة أيام ريثما تمت معاملة التحاقي بجامعة «كوتف» الشرقية والانتقال إلى قسم المنامة فيها ويسمى «أويشه جيتي»، والواقع في «تفرسكوي بولفار»، ويعرف اليوم باسم «بولفار بوشكين».

وتتم عادة معاملات الالتحاق بهذه الجامعة الشرقية في القسم الشرقي التابع للكومنترن.. فهناك استقبلني رجل قصير يدعى كيتاي غورودسكي، يعمل في القسم الخاص بفلسطين، وعرفت منه أن له شقيقاً في القدس يدير حانوتاً في شارع يافا. فتذكرت ذلك الاسم، وذلك الحانوت الذي يبيع فيه الأدوات المنزلية أمام حديقة البلدية من ناحيتها الشمالية.

ولـمّا أجرى لي كيتاي غورودسكي الفحص اللازم بواسطة المترجم سألني عن «وضعي الاجتماعي»، أي إلى أية فئة من الناس أنتمي، فقلت له إنني مستخدم بسيط في دائرة البريد والبرق في القدس، وأسرتي متوسطة الحال، وكان والدي ضابطاً في جيش الثورة العربية.(١٩) فنقل المترجم كلامي هذا وإذا به يقهقه عالياً.. ولـمّا استفسرت عن السبب قال لي المترجم، الذي أساء الترجمة عن جهالة باللغة العربية: يستغرب الرفيق قولك إنك كنت ضابطاً وأنت لا تزال فتى يافعاً.. ويقول مداعباً لعلك كنت ضابطاً في بطن أمك!..

فأفهمت المترجم خطأه وقلت له ولكيتاي غورودسكي عليكما أن تدركا بالبداهة أن المقصود هو والدي وليس أنا.. ثم أنهى المسؤول النقاش في هذا الموضوع ونصحني بألاّ أذكر بعد الآن أن والدي كان ضابطاً.. لأن البلاد الروسية لا تزال تعيش حالة الحرب الأهلية، والشعب ناقم على فئة الضباط، فشطب كلمة «ضابط» في خانة الأب، واستبدلها بكلمة «موظف».

٣ ـ جامعة «كوتف» الستالينية

كان يطلق على جامعة الشعوب الشرقية في موسكو في تلك الأيام اسم «كوتف»، اختصاراً لأربع كلمات بالروسية هي Komunisticheski Universitet Trudiachekhsia Vostoka، أي «الجامعة الشيوعية لِفَعَلَة الشرق». وقد استعملوا كلمة «فَعَلَة» للتدليل على أنها تقبل في صفوفها كل من يعمل بالأجرة، أو يتحدر من أُسرة فاعلة، أو أي طالب يعتبر نفسه فرداً من أبناء الشعب العامل.. وهذا التعريف يشمل العامل، والموظف، والأجير، والفلاح، والمعلم، وكل من يعمل في حقل المهن الحرة.

تأسست هذه الجامعة في موسكو سنة ١٩٢١، لتستقبل الطلاب الشرقيين السوفياتيين من أهالي أوزبكستان، وتركمنستان، والقوقاس، وأرمينيا، وتاجيكستان، وجورجيا، ومنغوليا.. ولتستقبل أيضاً الطلاب الشرقيين من الشعوب المتعاملة مع العالم الرأسمالي من أهالي الصين، واليابان، وإندونيسيا، والهند، والهند الصينية، وتركيا، وإيران، وأفغانستان، وسائر البلاد العربية.

لجامعة الشعوب الشرقية هذه رسالة خاصة بالطلاب الشرقيين السوفياتيين، ورسالة أُخرى خاصة بالطلاب الشرقيين التابعين للأقطار الواقعة في قبضة الحكم الأجنبي أو المتعاملة معه.

فالقسم الأول يعنى بتاريخ روسيا منذ أن كان الروس قبائل رحلاً يعيشون على ضفاف نهر الدنيبر، إلى أن صاروا دولة قيصرية واسعة الأطراف، ثم دولة سوفياتية تدين مع جميع شعوبها بالمبادئ الاشتراكية.. فالجامعة تعدّ طلاب هذا القسم لتولي مهام الإدارة والسلطات الحزبية والعامة في بلادهم.. وقد تخرج منها معظم الرجال الذين يديرون الجمهوريات السوفياتية الشرقية في أيامنا هذه..

والقسم الثاني من الجامعة يعنى بتاريخ الاستعمار والفتح الأوروبي، منذ أن كان زحفاً صليبياً للتجار والمغامرين، إلى أن صار احتلالاً إمبريالياً للصناعيين والماليين.. فالجامعة تعد طلاب هذا القسم لتولي مهام القيادة والسلطات الحزبية والعامة في بلادهم، وقد تخرج منها الكثير من السياسيين اليساريين في الشرق. وممن درس فيها، أو زارها لفترة قصيرة، رشدي آراس وزير خارجية تركيا الأسبق، والسيدة فيجايا لاكشمي بانديت شقيقة جواهر لال نهرو،[٢٠] وناظم حكمت الشاعر التركي المعروف، وابن شان كاي شك،[٢١] وغيرهم.

وأذكر بهذه المناسبة أن السيدة نهرو كانت صبية حسناء، طويلة القامة، سوداء الشعر، لها أنف حاد وعينان سوداوان براقتان، قوية الملاحظة، سريعة الخاطر، وقد

طلبت مني فور وصولها أن آتيها بزجاجة من النبيذ القوقاسي الفاخر.. لم تطل مدة إقامتها بيننا، فسرعان ما غادرت موسكو لأنها لم تجد كل أسباب الرفاهية في الجامعة، وهي سيدة تربت في بيت ثري، محاطة بالعز والدلال.

كانت مباني الجامعة موزعة في منتصف المدينة. فالمنامة تقع في تفرسكوي بولفار، وصفوف التدريس في عمارة تقع إلى الجانب الشرقي من ساحة تفرسكوي، والمطعم يقع خلف كنيسة كانت تقوم في الجانب الشرقي من الساحة، والنادي يقع في المكان الذي تقوم عليه اليوم عمارة جريدة «الإزفستيا».. وكان تمثال بوشكين يقوم في المدخل الغربي من بولفار تفرسكوي، ثم نُقل فيما بعد إلى المدخل الشرقي منه، وأطلق عليه اسم بولفار بوشكين.

فجامعة الشعوب الشرقية هذه تقوم على أساس أنها كلية واحدة، ولا تدرس أي موضوع آخر غير المواضيع التي لها علاقة بالسياسة والاقتصاد والاجتماع، أي أنها جامعة علوم سياسية فقط، والمتخرج منها يكون في مستوى زعيم حزبي أو نقابي أو إداري، وإذا ما أظهر مقدرة يصبح رئيس دولة، أو نائباً، أو وزيراً، إن في الجمهوريات الشرقية السوفياتية، أو في بلده المتحرر من السيطرة الأجنبية.

ويتناول منهج الجامعة في سنواتها الثلاث المواضيع التالية:

أولاً: الاقتصاد السياسي

وهو يعالج موضوع العمل ورأس المال والقيمة الزائدة.. فالنظريات البورجوازية (سميث وريكاردو وغيرهما) تقول بأن رأس المال لا يتضخم على حساب العمال، وإنما من المستهلكين وفقاً لناموس العرض والطلب.. والنظرية الماركسية تقول بأن «القيمة الزائدة» هي الأموال التي تتراكم لدى الرأسمالي من أتعاب العمال مباشرة.. أمّا ناموس العرض والطلب فيؤثر في زيادة الأرباح أو نقصانها، ولا علاقة له بجوهر القيمة الزائدة المضخمة لرأس المال.. وقد شرح كارل ماركس نظريته هذه وتحليله للجهاز الرأسمالي في كتابه الشهير «رأس المال».

ثانياً: الفلسفة الماركسية واللينينية

تتناول الماركسية ناموس التطور الاجتماعي على أساس احتراب الطبقات كنظام تاريخي طبيعي.. السادة والعبيد.. الإقطاعيون والأرقاء من الفلاحين.. المرابون والتجار.. النبلاء والبورجوازية.. الرأسماليون والعمال.. فالطبقة الثائرة تحطم الطبقة الحاكمة وتنشئ مجتمعاً جديداً يخلق بدوره أوضاعاً اجتماعية جديدة.

ولماركس نظرية تقول بأن آلة الإنتاج تتطور دائماً وتصطدم في تطورها بآلة الإنتاج القديمة وتحطمها، طالبة إفساح المجال لها، وهو ما يعرف بثورات أدوات الإنتاج ومنها الثورة الصناعية.. ثم ينعكس هذا الصدام بين آلات الإنتاج في العلاقات الاجتماعية، فيقع الصدام بين مالكي الآلة القديمة والآلة الجديدة، وهو ما يعرف بالثورة الاجتماعية.. ويمهد للثوريين كتّاب وشعراء وفنانون فيقبّحون المجتمع القديم ويرحبون بالمجتمع الجديد، وهو ما يعرف بالثورة الفكرية..

أمّا الفلسفة اللينينية فتقول إن الرأسمالية الغربية لا تستطيع البقاء دون السيطرة على أسواق البلاد المتخلفة اقتصادياً، فتبيعها سلعها، وتحول سكانها إلى جماعات مستهلكة فقط.. ثم تضع يدها بشتى الطرق على ثرواتها الطبيعية، لتزود بها مصانعها في الغرب، وتحول الأيدي العاملة في الشرق إلى فعلة مسخرين لا همّ لها إلاّ استخراج المواد الخام للصناعات الغربية.

ويقول لينين إن «الإمبريالية» على نقيض «الكولونيالية» لا تشترط الاحتلال العسكري المباشر، وإنما تكتفي بالسيادة عن طريق سيطرة رؤوس الأموال المعروفة بـ «الرأسمال المالي»، وبواسطة مؤسساته الاحتكارية المعروفة بـ «الكارتيل» و«المنوبول».

وينتبه لينين إلى نتيجة مفادها أن الحركة الوطنية في المستعمرات هي جزء من الثورة الاشتراكية في الغرب. فحرمان الرأسمال الغربي من السيادة الصناعية والمالية في الشرق، عن طريق مناصرة الحركات الوطنية الانقلابية، يؤدي إلى كسر شوكة الرأسمالية الغربية وقيام نظام اشتراكي في ربوعها.

هذه هي نظرية لينين المتعلقة بالشرق والتي لم يشر إليها كارل ماركس لا من قريب ولا من بعيد.. وهي نقطة أساسية من نقاط الخلاف بين الاشتراكية الديمقراطية (الدولية الثانية) برئاسة كارل كاوتسكي[٢٢] الألماني، وبين الحركة الشيوعية المنشقة (الدولية الثالثة) برئاسة نيقولاي* لينين الروسي. الأولى تحصر الحركة الاشتراكية بالطبقة العاملة في البلدان الصناعية خاصة، وفي العالم الغربي بوجه أخص، وتعتمد في تحقيقها على المجالس النيابية.. والثانية تشمل الطبقة العاملة الغربية أيضاً، وتربطها بالحركات الوطنية التحررية في الشرق، وتخلع على حركتها طابعاً عالمياً، يتناول كل المحرومين والفقراء أينما كانوا، وبقطع النظر عن مراحل تطور بلادهم الفكري والاجتماعي والاقتصادي، وتدعوهم إلى «القفز من

* كذا في الأصل، والمعروف أن اسم لينين هو: فلاديمير إيلتش. (المحرر)

فوق المرحلة الرأسمالية إلى الاشتراكية.» وتعتمد هذه الحركة في تحقيق أهدافها على التفاعل الثوري في جميع أساليبه وأشكاله.

ثالثاً: الاستعمار والمسألة الوطنية

وهو موضوع يتناول كيفية تغلغل «الرأسمال التجاري» المعروف باسم «كولونيزاسيون ـ الاستيطان» في الشرق ابتداء من الغزو الهولندي والإسباني، ثم البريطاني والفرنسي، منذ القرن الخامس عشر، ثم تحوله إلى «رأسمال صناعي ومالي» في القرن العشرين، المعروف باسم «إمبريالية». . كما يتناول أحوال شعوب الشرق، وتاريخها، وملوكها، وزعمائها، وأحزابها، وطوائفها، وتقاليدها، وعقائدها، وخلافاتها، ودياناتها، وعلاقة الأمم الحاكمة بالأمم المحكومة، وكيفية تطبيق مبدأ «حق تقرير المصير». . وحق الشعب المتخلف في تطوره في أن «يرتبط بالأمة الحاكمة أو أن ينفصل عنها.» وكان ستالين[٢٣] يُعتبر في الأوساط الحزبية والجامعية مرجعاً أساسياً في هذا الموضوع، وقد كتب فيه أبحاثاً مستفيضة، منها كتابه «المسألة الوطنية»، وكلها تتضمن تحديدات علمية جافة، وتتخذ في كثير من الأحايين أشكالاً لفظية أرادها ستالين أن تكون دستوراً علمياً.

وستالين لم يضع فلسفة حتى ولا نظرية. واستعمال كلمة «الستالينية» يقصد به السياسة التي يتبعها ستالين، وهي لا تتعدى الخطب والمحاضرات والتوجيهات التي كان يطلقها الدكتاتور الراحل في المؤتمرات الحزبية وفي شتى المناسبات. . وجلها يدور في تنقيحه المتواصل لتاريخ الحزب الشيوعي السوفياتي، وجدله الدائم مع المعارضة التروتسكية والبوخارينية،[٢٤] ومخططاته في مشاريع السنوات الخمس المتلاحقة، في المزارع «الكولخوزية» و«السوفخوزية»،[٢٥] وآرائه في المسألة الوطنية في المستعمرات، وحملاته على بقايا المجتمع البورجوازي الروسي، وما رافقها من إعدامات لمعظم زعماء الحزب البلشفي، وحمام الدم لعدد كبير من قواد الجيش السوفياتي، ولعدد أكبر لشيوعيين روس وأجانب، وقد بلغ الذروة في إرهابه سنة ١٩٣٧.

وكان لستالين آراء سلبية بالنسبة للحركة الوطنية في الشرق. فهو لم ير الجانب الإيجابي التاريخي في البورجوازية الوطنية، ولم يلحظ أنها كانت مضطهدة من الاستعمار بما كان يفرضه عليها من ضرائب فادحة، وما يسنه ضدها من قوانين جائرة تحد من نموها الاقتصادي. وكان ينعتها دائماً بـ «الانتهازية» المتواطئة مع الاستعمار. وقد ألحق بآرائه هذه ضرراً بالغاً بالشيوعيين العرب، وجعلهم في موضع شبهة وعداء.

رابعاً: المادية الديالكتيكية

هي قاعدة للاستقراء الفكري، يعتبرها ماركس ولينين وأتباعهما محكاً أساسياً للابتعاد عن الشطط، وللحصول على نتائج صحيحة وأكيدة في الحقلين النظري والعملي.. هي نظرية تقول: إذا كان المنطق يعني «نعم = نعم»، و«لا = لا»، فالديالكتيكية تعني «نعم = لا»، و«لا = نعم».. أي أن لا شيء سلبي إطلاقاً ولا شيء إيجابي إطلاقاً.. وأن لكل شيء نقيضه.. وأن في كل حالة ما يعارضها من ذاتها.. وأن في كل وضع يظنه المرء كاملاً ما يخالفه ويعمل للقضاء عليه.. وأن لكل وضع «مبحثاً» و«ضد المبحث»، و«نتيجة المبحث».. فالمولود يخرج إلى الحياة وهو يحمل في طياته بذور الموت.. والشجرة تنمو وتترعرع وفيها العناصر التي تنخرها من داخلها بعد أن تفرع نبتاً جديداً.. وأن المجتمع في الأمة يعدّ الطبقة التي تستولي على مقاليد الحكم، ونظام الحكم يعدّ الناس الذين سيقضون عليه ويدكون أسسه.

وعلم الديالكتيك أو «منطق التناقض» هو في الأساس من أعمال الفيلسوف الألماني إرنست هيغل (١٧٧٠ ـ ١٨٣١)، وقد التزم به كارل ماركس، واتخذه دعامة لفلسفته المادية ـ الاجتماعية، وطبّقه على سير التطور البشري، وأطلق عليه اسم «المادية الديالكتيكية» أو «المادية التاريخية».

غير أن ماركس يتعارض مع هيغل في تعريف جوهري. فبينما هيغل يعتبر الفكر البشري هو المكوّن لعالم الواقع، يرى ماركس أن الفكر البشري هو نتاج دنيا المادة وانعكاس ملازم لها.

ويقول هيغل إن الدولة فكرة مثالية، ووليدة التصور وواقع العقل، في حين يقول ماركس إن الدولة هي قوة مفروضة على المجتمع البشري، وقوة قاهرة.

ومن هذا الاختلاف في الفلسفتين قيل إن ماركس أوقف هيغل على قدميه بعد ما كان يقف على رأسه..

فالجامعة الشرقية تعير هذا الموضوع أهمية خاصة، لأنه ـ كما أسلفت ـ المقياس الجوهري في إدراك الحقائق، والأسلوب الأمين لتجنب الخطأ ولتحاشي الوقوع في الضلال.

وأذكر بهذه المناسبة أنني زرت ذات يوم سجناً بالقرب من موسكو، فقادني مدير السجن إلى غرفة كانت تغص بالمشبوهين والمهربين واللصوص و«الخوليغانس»، أي الأوباش.. ثم عرّج بي إلى نادي السجن وقال: هنا يرفه المساجين عن أنفسهم بما يقدمونه من حفلات تمثيل وغناء وموسيقى.. ثم إننا

نعمد إلى تثقيفهم بالعلوم والفنون التي تجعل منهم مواطنين صالحين.

قلت له: هل تدرسونهم المادية الديالكتيكية؟!..

فارتبك وقال: لا لا.. إلاّ هذه المادة!..

خامساً: تاريخ الحركات الثورية في العالم

يتناول هذا الموضوع: الثورة الفرنسية الكبرى (١٧٩١) في شتى مراحلها ورجالاتها، بوصفها النموذج الأمثل للثورة البورجوازية (المالية والتجارية والصناعية) على الملكية والإقطاع.

والثورة الإنكليزية التي تزعمها كروموبل، وقضى فيها على الملك شارل الأول بقطع رأسه (١٦٤٩)، ثم وحّد إنكلترا، واحتل إيرلندا وفتك فيها بأصحاب الأراضي الإيرلنديين، واستولى على أراضيهم وحولها إلى مراعٍ للخراف، لتستفيد الصناعة الإنكليزية من محصول الصوف كمادة خام.

والثورة الأميركية (١٧٧٦) بقيادة واشنطن، التي أطلقت العنان للرأسمال الأميركي بعد أن كان الاستعمار الإنكليزي يضطهده وينكّل به. والحرب الأهلية الأميركية (١٨٦١) بقيادة لنكولن، التي حررت العبيد ليعملوا مأجورين مختارين في المؤسسات الصناعية والزراعية الأميركية الناشئة.

والثورة الروسية (١٩٠٥) كرد فعل تجاه الخسائر الفادحة التي مني بها الروس في الحرب ضد اليابان، وفشل هذه الثورة وما أسفرت عنه من انعكاسات رجعية وإرهاب مروع.

والثورة الصينية (١٩١١) التي قادها صن يات صن[٢٦] ضد الملكية الإقطاعية والاستعمار، وهي بمثابة مثل أولي للحركات الوطنية في الشرقين الأقصى والأدنى.

والثورة العربية (١٩١٥) للتخلص من الاحتلال التركي الإقطاعي (السلطنة العثمانية) والقومية التركية الطورانية (الاتحاد والترقي)، وما أسفرت عنه من قيام إمارات ودويلات ومشيخات وحكومات وطنية خاضعة للانتداب الإنكليزي والفرنسي.

والثورة المصرية (١٩١٩) للتخلص من نير الاحتلال البريطاني وتحرير المصريين من عبودية «مزارع القطن».

والثورة التركية (١٩٢٤) بقيادة مصطفى كمال، والتي قضي فيها على سلطنة آل عثمان والخلافة معاً، ودفع الأتراك في طريق المدنية الغربية.

وتجري دراسة كل هذه الثورات والانقلابات وفق النظرية الماركسية ـ اللينينية، وهي نظرية تستند إلى الوقائع والتحريات المادية الدقيقة.

سادساً: تاريخ الحركات النقابية

يتناول هذا الموضوع كيفية تأسيس نقابات العمال في إنكلترا وفرنسا والولايات المتحدة.. وماهية أنظمتها وقوانينها، ومدى مساهمتها في الحياة العامة.. ثم تاريخ انتشار الفكرة النقابية في الشرق، وما هي أوجه الضعف والقوة في الحركات النقابية العربية (والمصرية منها بوجه خاص).. وما هو «البروفنترن»، أي اتحاد النقابات الدولية الثورية، وما هو موقفه من «اتحاد النقابات الصفراء» الموالية للمؤسسات الاستثمارية، مثل «التْرِدْ أونْيون» في إنكلترا، و«السِه جِه تِه» في فرنسا، واتحاد النقابات الأميركية في الولايات المتحدة.

هذه هي الخطوط الرئيسية في مناهج جامعة موسكو الشرقية، تضاف إليها مواضيع في اللغة والآداب الروسية، والتكتيك والاستراتيجي في النضال السياسي، ونظم العمل السري، والعلوم العسكرية ـ نظرياً في موسكو في الشتاء، وعملياً في مخيم «أودلنايا» بالقرب من العاصمة صيفاً.

* * *

طلاب من مصر: تعرفت في الجامعة الشرقية سنة ١٩٢٥ بالطلاب المصريين الذين جاؤوا إلى العاصمة السوفياتية سنة ١٩٢٤ إثر الحركة الرجعية التي حلت بمصر، وإعدام عدد من الشباب المصري، بعد مقتل السردار السير «لي ستاك باشا».. وعرفت أولئك الطلاب بهذه الأسماء: «عزيز»؛ «حمدي»؛ «فهمي»؛ «حسونه»؛ «عمر»؛ «زانبرغ».

فعزيز.. نحيل البنية، برّاق العينين، عصبي المزاج. عمل في القاهرة في السكك الحديدية، وجاء إلى موسكو ليطلب العلم الماركسي. وكان يقسم دائماً بألاّ يعود إلى مصر إلاّ ليرفع العلم الأحمر على قمة الهرم الأكبر!..

وحمدي.. طالب طب مبتدئ، قصير القامة، مكتنز الجسم، يعرج قليلاً، ويدعي دائماً أنه «دماغ الحركة الثورية المصرية المفكر.»

وفهمي.. درس مبادئ الهندسة في جامعة الإسكندرية. وهو نحيل، هادئ الطبع، يحب الرسم.. ويتهرب من الجدل في المسائل العقائدية المعقدة.

وحسونه.. مساعد طبيب أسنان في الإسكندرية، طويل القامة، منحني الظهر

قليلاً، له عينان صغيرتان متألقتان، يراوغ كثيراً، ويحلم بمنصب وزاري كبير..

وعمر.. قصير القامة، مستدير الجسم مكتنزه. رحل إلى روسيا قبل الثورة الاشتراكية برفقة سيرك أجنبي، كان يقوم فيه بدور «آكل النيران» و«قاضم الزجاج».. فيعرض على الجمهور شعلة متقدة ويطفئها في داخل فمه الكبير.. أو يأخذ كوباً من الزجاج ويحطمه بين أسنانه شر تحطيم.

وأخيراً زانبرغ.. فهو شاب يهودي بولوني، قصير القامة، أبيض البشرة، أزرق العينين.. هاجر والداه إلى مصر إبان الحرب العالمية الأولى، وتمصّر ابنهما فيها، ثم انضم إلى حركة حسني العربي الاشتراكية في مصر سنة ١٩٢٣، واعتقل ونفي إلى روسيا.

هؤلاء هم أول طلاب عرب دخلوا الاتحاد السوفياتي، في السنة التي توفي فيها لينين، وكلهم مصريون. وكنت أول عربي يأتي إلى موسكو من الأقطار العربية الآسيوية.. ولمّا كان المتبع يقتضي استبدال الأسماء الحقيقية بأسماء مستعارة، فقد اجتمع الطلاب المصريون وقرروا منحي اسم «مصطفى كامل»، غير أن الروس، أو الطلاب من شرق الاتحاد السوفياتي، قد التبس عليهم الاسم، فظنوا أن اسمي «مصطفى كمال» فباتوا ينظرون إليّ شزراً، إلى أن تدخل في التسمية ناظم حكمت.

ناظم حكمت: كانت منامة الطلاب تضم معظم الوافدين من خارج الاتحاد السوفياتي.. ولكل جماعة قومية منهم نشاطات، ولعل أنشط هذه الجماعات «الفرقة التركية»، وكان يرئسها الشاعر التركي ناظم حكمت.. عرفته وقتئذ شاباً في الخامسة والعشرين من عمره، مديد القامة، أشقر الشعر، أحمر اللون، أزرق العينين، كثير الحركة، جم النشاط، يرتدي بنطلون «الغولف» وسترة شبه مغلقة.

كان يقف وسط الطلاب الأتراك، ويهزج معهم أهازيج ثورية لعلها من نظمه، ثم ينتقلون إلى فصل ضاحك، يقصدون به السخرية من السلاطين الأتراك، فيمتطي أحدهم عصا مكنسة ويجرها بين ساقيه مهرولاً، محيياً بيده يميناً ويساراً، وزملاؤه ـ وفي طليعتهم ناظم حكمت ـ يرددون لحن المارش السلطاني بطريقة ساخرة مضحكة.

كنت وقتئذ حديث العهد بالجامعة ونشاطاتها، أقف في أعلى درج بيت المنامة أراقب ما يجري أمامي وأضحك، فاقترب مني ناظم حكمت وطرح عليّ أسئلة بقصد التعارف، وحين سألني عن اسمي قلت له: إن اسمي الجامعي هو «مصطفى كامل». فارتعش وقال: ماذا؟.. مصطفى كمال؟.. من حمّلك هذا الاسم من؟!..

قلت له: إنه مصطفى كامل الزعيم الوطني المصري[٢٧] وليس مصطفى كمال.. ومع ذلك لم يرض عن هذا الاسم الذي يحدث التباساً حسب رأيه بين «الحرية» و«الاستبداد». فاقترح عليّ اسم «مصطفى سعدي»، لإعجابه بالشاعر الفارسي، بدلاً من مصطفى كامل. وهكذا توطدت عرى الصداقة بيني وبين ناظم حكمت، وطلب مني أن أتردد إلى الفرقة التركية دائماً، بل ألح عليّ في الانتماء إلى هذه الفرقة وحضور جميع اجتماعاتها على اعتبار أن شعبينا كانا في الماضي القريب يرزحان تحت نير واحد.

وتمضي الأيام وأنا أطلب العلم في الجامعة. وكثيراً ما كنت أقابل ناظم حكمت في نادي الجامعة، أو في قاعة المحاضرات، أو في بيت الاصطياف في قرية «أودلنايا» في ضواحي العاصمة.

ثم اختفى الشاعر التركي فجأة وعلمت في وقت متأخر أنه نزيل السجون التركية، لرفضه الاعتراف بزعامة مصطفى كمال، بل بمكاشفته العداء له، والتصريح العلني بأنه يريد إسقاطه وإسقاط حكمه، وإقامة دولة اشتراكية في الديار التركية.

كانت تركيا في تلك الفترة من الزمن غير مستعدة اجتماعياً وتاريخياً لقبول مثل هذه القفزة في التفكير، بل إن عملية استبدال الطربوش بالقبعة قد كلفت مصطفى كمال متاعب ومؤامرات لا حصر لها، فكيف بقبول فكرة «البلشفية» كعقيدة تحل محل العقيدة الإسلامية!.. إضافة إلى أن تركيا كانت وقتئذ خارجة منتصرة من الحرب التركية ـ اليونانية، وهي تكنّ لزعيمها إعجاباً لا حد له، وتعتبره منقذها الأعظم..

لذا ظل ناظم حكمت الشاعر يعيش مع أحلامه وآلامه إلى أن قدر له أن يفر من سجنه بمساعدة حراسه، بعد أن قضى فيه حوالي خمسة عشر عاماً، ثم تنقل بين موسكو وهافانا وبراغ، إلى أن وافته المنية في برلين سنة ١٩٦٠.

جريدة الحائط: من العادات المتبعة في الجامعة، مثل باقي المعاهد والمؤسسات السوفياتية، أن تكون لها «جرائد حائط»، يتولى كل قسم من القوميات تحريرها بلغته، ويخلع عليها اسماً يختاره لها، وتتفنن كل هيئة تحرير بتزيينها وترتيبها، ويكون حجمها حوالي المترين عرضاً والمتر ارتفاعاً، ويكتب اسمها بخط عريض جميل، وتحلى بالرسوم والصور الكاريكاتورية. أمّا المقالات فتنشر فيها مقتضبة مختصرة، وتوضع لها عناوين ملونة، وتتخللها طرائف ومُلَح، ونقدات لاذعة، وصندوق بريد، والغاية منها على الجملة التوجيه والإرشاد، وتصحيح الاعوجاج المسلكي والسياسي، وفيها يناقش أحدهم زميلاً له أو ينتقده في أمر ما. فيطالع

المقال أفراد القسم أو الفرقة، ويشتركون في الجدل على صفحات الجريدة، أو في ردهات الجامعة، ولا يجرؤ أحدهم أن يتطاول على زميله لأن هناك المحاكم الرفاقية والحزبية التي تحاسب وتعاقب.

أمّا الفرقة العربية فلم يكن لها جريدة حائط في بادئ الأمر بسبب قلة أفرادها، لكن ما إن أطلت سنة ١٩٢٦ حتى توافد عدد من الطلاب من مراكش وتونس والجزائر، وتبعهم عدد من سورية وفلسطين، وكانت الحاجة ماسة إلى جريدة حائط عربية، أطلق عليها اسم «الحرية». وكان حمدي رئيس تحريرها، وفهمي رسامها، وحسونه وأنا (وهذه بداية حياتي الصحفية) عضوي تحرير فيها.

صدر العدد الأول منها وقد تَوَّجَه فهمي برسم ملون كبير عجيب.. حقل واسع الأطراف، وشمس شديدة الاحمرار تبزغ من المشرق، ورجال يعتمرون القبعات والطرابيش والعمائم، وهم في حالة هلع وفزع.. وماشية تفر، وخيول تصهل وترفس، وطيور داجنة ترف بأجنحتها مذعورة مولولة.

وقلنا لفهمي: فسرها أطال الله في عمرك!..

قال: الحقل هو بلاد العرب.. والشمس هي شعلة الحرية.. والقبعات والطرابيش والعمائم تمثل الاستعمار والرجعية العربية، فما إن رأى أصحابها الشمس تسطع حتى ارتعدت فرائصهم ولاذوا بأذيال الفرار، حتى إن الماشية والطيور قد جن جنونها وراحت تعدو في إثرهم!..

وحدث مرة أن أرسل عزيز مقالاً إلى جريدة الحائط، فلم يقره قلم التحرير، فجاءني مستفسراً عن مقاله وعن سبب عدم نشره فقلت له، وفي كلامي بعض الطيش: «دا كلام جليطة»!.. فاستشاط غضباً، وملأ الدنيا صراخاً، فطلب الرفاق مني أن أعتذر له مبدياً عدم إدراكي المعنى الحقيقي لكلمة «جليطة» المصرية، وهكذا كان.

ذيول الحرب الأهلية: كانت البلاد الروسية تعاني في ذلك الوقت أزمة اقتصادية حادة. فهي في الواقع لا تزال تئن من وطأة الثورة والحرب الأهلية، فآثار الجوع والفقر بادية للعيان في كل مكان.. وأذكر أننا كنا إذا أردنا تناول طعام الفطور وقفنا في صف طويل يحمل كل منا كوباً وقطعة من الخبز الأسود، وتتولى فتاة روسية وضع ملعقتين من السكر في الكوب، ومسح الخبز بالقليل من الزبدة.. ومع ذلك كانت إدارة الجامعة توفر لنا أفضل المآكل بالنسبة للمعاهد الروسية الأخرى.

يتألف الفطور عادة من الخبز والزبدة والشاي والخبارى (الكافيار) ـ كانت هذه المادة غذاء شعبياً لكثرة ما ينتج منها ـ أمّا الغداء فيتألف من الحساء المعروف

باسم «البورش»، وهو مزيج من ورق الملفوف والشمندر وشرائح اللحم الصغيرة والكريما. . ثم «الكاشا» البيضاء والسوداء، وهي نوع من الحبوب شبيه بالبرغل، يطبخ على نار هادئة حتى يتفتح ويقدم مع الصلصة، وشريحة لحم قاسية نوعاً ما، وكوب من «الكيسيل»، أي هريسة الفاكهة. . أمّا العشاء فيتألف من كأس من اللبن الخاثر مع ملعقة من السكر، وسلطة روسية تصنع من البطاطا المسلوقة المقطعة مع البيض المسلوق المقطع أيضاً، والقليل من البصل والبقدونس المفرومين، وكوب من الشاي ـ أو على الأصح أكواب من الشاي ـ على أن يتولى الطالب الاقتصاد بحصته من السكر.

أمّا اللباس فكان أقرب إلى لباس الجنود. . سترة مقفلة حتى الرقبة، لها أربعة جيوب، وحزام يشد حول الخصر، وبنطلون خشن، وحذاء سميك، ومعطف مبطن بالقطن، وقبعة من فراء الهررة، أو من جلد الأرانب، تتهدل على الأذنين، ولها شريطان في طرفيها يعقدان تحت الذقن إذا ما اشتد البرد. ويستبدل اللباس الشتوي في الصيف ببذلة عسكرية مصنوعة من قماش «الكاكي»، أو ببنطلون وقميص روسي كالذي أتيت على وصفه في رحلة القطار.

وعلى ذكر الطقس في روسيا، يبدأ الشتاء في شهر أيلول/سبتمبر، حيث تأخذ الغيوم في الانعقاد في السماء، ثم تمطر ابتداء من أواسطه على وجه التقريب، ويتجهم الطقس بالتدرج، ويتساقط بعض الثلوج الخفيفة في شهر تشرين الأول/أكتوبر وتشرين الثاني/نوفمبر، وتأخذ درجة البرودة بالهبوط من الصفر إلى أن تبلغ أحياناً الثلاثين تحت الصفر أو أكثر. وأذكر بهذه المناسبة أنه حين توفي لينين في ٢١ كانون الثاني/يناير سنة ١٩٢٤، بلغت درجة البرودة ٣٥ تحت الصفر، فكان الناس يذرفون الدمع على فقيدهم الكبير فيتحول هذا الدمع إلى ثلج يتراكم على الخدود والشوارب واللحى! . .

ويعالج القوم البرد الشديد بالألبسة السميكة الدافئة، وبخبط القدمين على الأرض باستمرار في حالة الوقوف الاضطراري. . ويحدث أحياناً أن ترى شخصاً يقبل عليك وفي يده حفنة من الثلج فيفرك بها أنفك بشدة. . ويقول لك: لقد ابيض أنفك دون أن تشعر. . أي أنه تجمد من شدة البرد ولا علاج له إلاّ بالثلج وفقاً للمثل القائل «وداوها بالتي كانت هي الداء.»

ومن المناظر البديعة في الشتاء تحول ذرات المياه في الجو، وفي درجة قصوى من الصقيع، إلى نماذج بلورية هندسية الشكل. . فتلقي نظرة على كمك مثلاً لترى قطرات المياه المتحولة إلى أشكال صغيرة مستديرة، ومكعبة، ورباعية، ومستطيلة، ومتوازية، ومسدسة، وكلها مخرمة بشكل فني مذهل. . فتأخذها بين

أصابعك وأنت تتمنى أن تبقى على حالها هذا دائماً، لكنها سرعان ما تتأثر بالحرارة وتعود إلى جوهرها الأصلي، نقطة من الماء.

ويستمر هطل الثلوج حتى شهر آذار/مارس، ثم يبدأ الربيع وكله أمطار ووحول، ويدخل فصل الصيف بحرّه الشديد الذي يبلغ درجة الثلاثين فوق الصفر أحياناً، فيرتدي الناس الألبسة البيضاء، ويحلق الكثير من الرجال رؤوسهم بالموسى.. وغالباً ما يحدث في أيام الصيف أن تنعقد الغيوم في السماء فجأة وتهطل الأمطار غزيرة وكأنها تتساقط من أفواه القرب!..

* * *

مخازن العاصمة خاوية، وواجهاتها لا تعرض إلاّ الصناديق والعلب الفارغة إلى جانب دمى عارية.. والناس يقفون أمام الحوانيت والمخازن الحكومية على شكل «أذناب» طويلة تعرف باسم «خفوست». والويل، كل الويل، لمن يحاول التقدم على مواطنه، فإذا ما فعل هبت عليه عاصفة من السخط بعبارة «أوتشرد»، أي قف في الصف فيرتد إلى مكانه صاغر الأنف مذعوراً. لكن يحق لكل فرد يقف في «الذنب» أن يترك مكانه لقضاء حاجة على أن يُشْهِدَ الشخصَ الذي يقف أمامه، والشخصَ الذي يقف خلفه بأنه كان بينهما.

عرفت البلاد إبان الحرب الأهلية وفي السنة الأولى من قيام الحكم السوفياتي نظاماً اقتصادياً طارئاً، يعرف باسم «الشيوعية الحربية». ويقضي هذا النظام باستيلاء السلطات على جميع المواد الغذائية، وتوزيعها على الناس مقابل بطاقات شرائية معينة.

ولـمّا كان «الروبل» الروسي قد تضخم كثيراً، وأصبح لا قيمة شرائية له، بسبب فقدانه كل ضمانة ذهبية أو إنتاجية، ارتأت السلطات السوفياتية الحديثة العهد أن تلغي التعامل بالنقد القيصري تماماً، وتستبدله موقتاً ببطاقات ملونة تعطى للجنود والموظفين والعمال وغيرهم فيشترون بقسائمها كل ما يستطيعون شراءه.. أو يلجون المطاعم الشعبية ويتناولون الوجبات لقاء قسائم معينة تختلف قيمتها باختلاف ألوانها.

لم يدم نظام «الشيوعية الحربية» هذا طويلاً إذ سرعان ما ثبّت النظام السوفياتي دعائمه، وأصدر نقداً جديداً، وعاد إلى التعامل به ملغياً نظام القسائم، فصار «الروبل»، ويعادل مئة «كوبيك»، هو الوحدة الأساسية في التعامل، يضمنه مصرف الدولة بالسبائك الذهبية. واستنّ لينين وقتئذ خطة «النيب» (NEP)، أي السياسة الاقتصادية الجديدة (Novaya Ekonomicheskaya Politica)، وهي تسمح

لرؤوس الأموال الروسية الصغيرة بالانتعاش والعمل إلى جانب نظام العمل والإنتاج الاشتراكيين. كما تسمح للصناعيين الأجانب بتأسيس مصانع في روسيا لقاء أرباح محدودة ومعينة، تساهم فيها الدولة بالمال والمراقبة، ويؤذن للعمال فيها بالإضراب إذا ما أخل الصناعيون الأجانب بشروطهم وتعهداتهم.

ويرجع السبب في سياسة «النيب» إلى أن الاقتصاد الاشتراكي الجديد لم يستطع تلبية حاجات سكان بلغ تعدادهم وقتئذ ١٧٠ مليون نسمة (وقد بلغوا في هذه الأيام ضعفي هذا العدد على وجه التقريب)، واضطروا إلى التعايش السلمي مع أصحاب رؤوس الأموال المحدودة ليتجوا وينالوا أرباحاً محدودة.

ونتيجة للحرب الأهلية، وما رافقها من مجاعة هزت ضمير العالم بأسره، انتشرت في البلاد مجموعات هائلة من الأطفال المشردين، يعرفون باسم «بيزبريزورنيكي» (Bezprizorniki) أقضّوا مضاجع السلطات السوفياتية أكثر من أعداء الثورة.

الأطفال المشردون: غادرتُ بيت المنامة التابع للجامعة ذات صباح برفقة حمدي. فلمّا اقتربت من صهريج ضخم يستعمل لإذابة الزفت، رأيت عشرة أطفال ينطلقون منه، وقد اسودت أيديهم ووجوههم فارتعبت وسألت زميلي: ما هذا الذي أراه؟..

فضحك وقال: هؤلاء أطفال مشردون، لا مأوى لهم يلجأون إليه، وقد لاذوا بهذا الصهريج في الليل لينعموا بدفء حتى الصباح.

والواقع أن السلطات السوفياتية أعارت في ذلك الحين قضية هؤلاء المشردين اهتماماً بالغاً، فأنشأت لهم ملاجئ لتؤويهم وتعلمهم الصناعات. غير أنهم غالباً ما كانوا يثورون على احتجاز حرياتهم، ويحطمون الملاجئ ويقتلون المسؤولين فيها، ويفرون إلى الغابات والقرى وضواحي المدن.

وأذكر أنني شاهدت في تلك السنة فيلماً عن الأطفال المشردين بطله حدث اسمه «مصطفى».. هذا الحدث التركستاني يقيم في بلدة روسية، تشرده الحرب الأهلية، فيرتكب مع زملائه جرائم السطو والسرقة ويُقبض عليه ويزج في المأوى، ثم تتغير طباعه ويتحسن سلوكه، ويصبح نجاراً ماهراً. ويثور المشردون في المأوى ويعتدون على مديره، ويصعدون على رؤوس الأشجار وكأنهم مئات الطير، فيتدخل مصطفى، الخبير بأمور الأطفال المشردين، ويسيطر عليهم ويعيدهم إلى المأوى ليتابعوا حياتهم التعليمية، وليكونوا عناصر مفيدة للوطن.

كانت مشكلة الأطفال المشردين شغل الدولة الشاغل. وقد تعذر عليها في بادئ الأمر حصرهم وضبطهم، فهم يعدون بمئات الآلاف، انتشروا في كل صقع

من البلاد الروسية الشاسعة الأطراف، منهم من فقد والده أو أشقاءه أو أقرباءه في الحرب ضد ألمانيا القيصرية، ومنهم من فقد أهله وشرد في الحرب الأهلية التي كانت تدور بين «البيض» و«الحمر» في كل جهة واتجاه. وكانت أعمار هؤلاء الأطفال تتراوح بين خمسة وعشرة أعوام، وقد حرموا من نعمة التعليم بسبب المعارك المتواصلة، والانتقال الدائم من ولاية إلى ولاية، يؤلفون جماعات رهيبة من الكتل الصغيرة، يرتدون أخشن لباس، ويعتمرون قبعات من جلود كل الحيوانات، ويلفون أرجلهم الصغيرة بكل ما يصل إلى أيديهم من خرق جلدية وصوفية وغيرها. وكان لهؤلاء الأطفال أغنية مشهورة تقول في مطلعها:

«أموت أنا أموت
وفي الثرى يكون حشري..
وعبثاً يحاول الناس
الاهتداء إلى قبري!..»

مأساة شاعر: أثيرت في تلك الأيام قضية شاعر شاب اسمه «سرجي إيسنين».. هو شاعر القرية الروسية.. لم يبد كثير اهتمام بالناحية الاجتماعية في رسالته الشعرية، فهمّه محصور في تصوير القرية، والأنهر، والغدران، والحب، والحانات، والأقمار والكواكب، ومسقط رأسه، وأمه.

تعرّف هذا الشاعر الروسي القحّ سنة ١٩٢٢ إلى راقصة أميركية اسمها «إيزادورا دونكان»، جاءت إلى روسيا في أيام الثورة، وراحت تعرض رقصاتها الفنية على العمال، والجنود، وأشهرها رقصة «العلم الأحمر».. فكانت تقوم بحركات من رقص «الباليه»، وتحمل بيد منديلاً كبيراً من الحرير الأحمر، وباليد الأُخرى مجموعة من أعلام الدول الرأسمالية، وتقيم معركة بين المنديل الأحمر والأعلام الأُخرى، التي تتساقط على الأرض علماً بعد علم. ثم تنهي الراقصة رقصتها بأن تلف نفسها بالمنديل الأحمر الكبير بين تصفيق المعجبين وتهليلهم.

رآها إيسنين وهي تؤدي هذه الرقصة الفنية فأعجب بها، وتعرّف إليها، وأحبها، واقترن بها، وكان ذلك سنة ١٩٢٢، وهو في السابعة والعشرين من عمره، وهي في الرابعة والأربعين من عمرها.. كانت الراقصة ترى في هذا الشاعر الروسي الشاب مثال الرجولة، وشبه المدنية، وفطرية الغابات.

وافترق الشاعر والراقصة، فسافرت هي إلى فرنسا، ثم لحق بها إيسنين، لكنه عاد إلى بلاده ملتاعاً. وكانت نهايته في الثامن والعشرين من شهر كانون الأول/ ديسمبر سنة ١٩٢٥، إذ انتحر في مستنقع روسي أصيل بالقرب من لينينغراد، مع

أنه قال في بيت من شعره:

«في أزقة موسكو الملتوية
حكم عليّ الإله أن أموت!..»

أمّا إيزادورا فقد حزنت كثيراً على الشاعر، بعد أن غرق طفلاها من زواج سابق، وكانت نهايتها في نيس سنة ١٩٢٧، إذ علق منديلها الطويل الذي تلفه على رقبتها بعجلة سيارة وخنقها.

فانتحار إيسنين كان موضوع الساعة، وقد أُوعز إلى المعاهد والأندية أن تثير نقاشاً عن الشاعر وشعره ـ نظم حوالي ألف قصيدة بين كبيرة وصغيرة خلال عشرة أعوام ـ وعُقد اجتماع في نادي الجامعة عجّ بالطلاب والضيوف من فتيان موسكو وفتياتها، وراح الخطباء يتحدثون عن الشاعر المنتحر، فمنهم من ذمّه وحمل عليه، ومنهم من مدحه وأثنى على شعره وذكائه.. وانقسم الحضور بين مؤيد ومفند، وعلا الصراخ، وتحمست الفتيات.. وانتهت الحملة على الشاعر بمنع تداول ديوانه. وظل هذا المنع قائماً مدة طويلة من الزمن.

والتهمة التي وجهت إلى الشاعر المنتحر أنه لم يتجاوب مع الانقلاب، وظل يعيش في دائرة ضيقة من التغزل بالتربة والحب والحانة، الأمر الذي أدخل اليأس إلى نفسه، وقاده إلى الانتحار في جو روسي مطلق، وبطريقة لم يسبقه إليها أحد، وهي كما أسلفت الغوص في مستنقع حيث يتحلل الجسم ويصبح لَجيناً وحماً..

كنت في عداد من حضر هذا الاجتماع، أتابع ما يجري فيه عن طريق الترجمة، فاقتربت مني طالبة روسية أعرفها وقالت مبتسمة: ما رأيك في إيسنين؟.. أهو شاعر مجيد.. هل توافق على نشر شعره بين الناشئة؟..

قلت للفتاة إنني حديث العهد في الوسط الروسي، ومعرفتي باللغة الروسية وآدابها لا تزال يسيرة، وعلى ذلك لا أستطيع إبداء رأي في أمر هذا الشاعر أو غيره.. غير أن الضجة التي أثيرت حوله، وكان ذلك مطلع سنة ١٩٢٦، قد حفزتني فيما بعد للتعرف إلى شعره فأعجبت بنزعته الجمالية، وأحببت قصائده القصيرة في الشرق الروسي، الذي زاره في أواخر حياته، ومنها: «وداعاً يا باكو لن أراك ثانية»؛ «اعتبارات فارسية»؛ «أنت قلت إن سعدي»، «وطن الفردوسيّ الأزرق»، «شاغانه عزيزتي شاغانه»، وغيرها.

قال مكسيم غوركي[٢٨] عندما بلغه خبر انتحار إيسنين: «سرجي إيسنين هو عضو أكثر منه إنسان!.. لقد أوجدته الطبيعة لقول الشعر فقط.. لوصف الحقول الحزينة، والإعراب عن الحب، والحنان على كل ما هو حي في العالم.»

فمشكلة إيسنين، إذاً، هي أنه «عضو» أكثر منه إنسان، أي أنه قليل التحسس

بالمآسي الاجتماعية.. ولكن ماذا نقول عن شاعر الثورة الاشتراكية الروسية «فلاديمير ماياكوفسكي»[٢٩] (١٨٩٣ ـ ١٩٣٠)، الذي انتحر أيضاً للسبب ذاته، وهو «إنسان أكثر منه عضو»؟!..

الفرقة العربية: تزايد عدد الطلاب العرب في جامعة الشعوب الشرقية بإطلالة سنة ١٩٢٦، وتحول بعض الطلاب القدامى منهم إلى أساتذة ومترجمين. وكان حمدي المصري شديد الرغبة في ترجمة العلوم الماركسية من اللغة الإنكليزية إلى العربية، ويتقاضى على ذلك أجراً طيباً يقدر بالنسبة إلى عدد الكلمات الإنكليزية المترجمة. وكان يحلو له أن يتخذني مساعداً له، فيسألني الجلوس إلى المكتب، ويمسك هو كتاب «القيمة الزائدة» لكارل ماركس، أو كتاب «تطور الأسرة في المجتمع البشري» لفردريك إنغلس،[٣٠] ويسير في الغرفة جيئة وذهاباً، وهو يهتز بعرجته الخفيفة، ويملي عليّ بالعربية ما يدرك معناه، وإذا ما اصطدم بفكرة عويصة، أو بكلمة مركبة المعاني اضطرب وتبلبل واستنجد بعزيز، وفهمي، وحسونه، وزانبرغ. فتتشابك الأفكار، ويحتدم الخلاف، فيتدخل عمر أيضاً ويبدي رأيه مستعيناً ببعض ما علق في ذهنه من شروحات ماركسية.. وما إن يتم الاتفاق فيما بينهم على رأي يلتفت حمدي إليّ فلا يجدني!..

كانت الفرق المختلفة في الجامعة تتسابق إلى ترجمة «النشيد الدولي» إلى لغاتها القومية، فأخذتنا الحماسة أيضاً لنقله إلى العربية. فجاءنا أستاذ اللغة الروسية، فلاديمير أندروفتش، وقال لا تزعجوا أنفسكم بترجمته.. فقد تولى هذا العمل المرحوم الأستاذ ميخائيل عطايا*..

قلنا: ومن هو الأستاذ عطايا؟..

قال: هو زميل الدكتور بندلي الجوزي،[٣١] والسيدة كلثوم عودة،[٣٢] وصديق البروفسور إغناطيوس كراتشكوفسكي.[٣٣] كانت الجمعية الروسية القيصرية (في الناصرة ـ فلسطين) قد أوفدته مع من أوفدتهم إلى روسيا قبل الثورة ليدرّس اللغة العربية في معهد اللغات الشرقية، ثم توفي في العاصمة الروسية سنة ١٩٢٤، تاركاً كتباً مدرسية قيّمة باللغتين العربية والروسية، وترجمة لنشيد الإنترناسيونال.. وقدّم لنا نسخة عنه، لم أحتفظ بها لأسباب أمنية، غير أنني أذكر الشطر الأول من النشيد فهو يقول:

«قوموا يا موسومين باللعنه

---

* واضع القاموس الروسي ـ العربي سنة ١٩١٣، ولد سنة ١٨٥٢ وتوفي سنة ١٩٢٤.

شعوب الفقر والغُبْنَه
يدعوكم اللب والبصيرة
لمعركة خطيرة..
كلٌّ هذا العالم ندمّرْ
حتى الأساس ومن ثَمّ
عالماً جديداً لنا نعمّرْ
من كان عدمْ يغدو علمْ (تُسكن القافية لضبط اللحن)
هبوا إلى النضال.. هبو إلى النزال.. وبالإنترناسيونال..
يعلو جنس البشر!..»

اختلفنا في قبول هذا النشيد على علاته لأننا وجدناه «لغوياً» أكثر من اللازم، في حين أنه مطابق للنص الروسي.. وألّفنا لجنة لتنقحه وتضفي عليه لوناً شعبياً مبسطاً، فلم تصل اللجنة إلى نتيجة وأُهمل المشروع نهائياً، وآثر كل منا أن يردده باللغات الأجنبية التي يجيدها.

ثم طرأت لعزيز فكرة إيجاد نشيد للطلاب العرب، يعملون على صياغته مشتركين متعاونين.. وبعد جلسات طوال كثر فيها الأخذ والرد، والشطب والتعديل، خرجنا بنشيد مصري اللهجة أذكر منه هذا المقطع الاستهلالي:

«الدنيا هيّه هيّه.. والعيشه هيّه هيّه
يا عمي حمزة!.. إحنا التلامذة
ما يهمناش في القلعة نبات أو المحافظة..
ما فيناش واحد خواف..
من القوة نقوم نخاف..
واخدين ع العيش الحاف..
ننام من غير لحاف..
إحنا التلامذة.. يحيا الجهاد

لازمة: بونجور يا خلايق!..
نصّاب وسارق..
والبرجوازي يستخدم عمال بدراهم..
ويستفاد منهم..
العامل دا حيوان..
إحنا الشبان..
أهل العرفان..

إحنا التلامذة..

يحيا الجهاد!..»

لم يعش هذا النشيد طويلاً، إذ سرعان ما تحول إلى تهريج وكففنا عن ترديده، وبتنا نحفظ الأناشيد الروسية الثورية ونرددها في كل المناسبات.

ازداد عدد أعضاء الفرقة العربية في مطلع سنة ١٩٢٧ وصاروا يتألفون كما يلي: المصريون (١٠)؛ الفلسطينيون العرب (١٥)؛ الفلسطينيون اليهود (٥)؛ السوريون (٧)؛ اللبنانيون (١٠)؛ الجزائريون (٣)؛ المغاربة (٢). وكان معظمهم يحمل أسماء مستعارة مثل: سوبوتين؛ ساؤول؛ نميروف؛ أحميدوف؛ مايخن؛ محمدوف، خلطورين، إبراهيموف، إلخ.

منهم من لا يزال على قيد الحياة، ومنهم من توفي مثل «مايخن»، أي عبد الغني الكرمي، و«إبراهيموف»، أي علي عبد الخالق الذي قتل في الحرب الإسبانية الأهلية، وعزيز المصري الذي مات في سجن القلعة في القاهرة.. وهناك طلاب قد انقطعت أخبارهم بعد الحرب العالمية الثانية، ربما يكونون قد توفوا، وربما يكونون على قيد الحياة، يقضون شيخوختهم في تذكّر أيام الشباب الثائر، والحظ العاثر.. وعلى كل سأتحدث عن بعضهم في الأماكن المناسبة من هذه المذكرات.

كان للفرقة العربية لجنة سياسية تشرف على شؤونهم العامة والخاصة، فهي تراقبهم عقائدياً وسياسياً ومسلكياً.. ولجنة فنية لعرض الفنون العربية من غناء ورقص في حفلات الأندية والمناسبات الجامعية والعامة.

كانت اللجنة السياسية تعد يوماً في نهاية السنة الجامعية تطلق عليه اسم «يوم الحساب» ـ وهو يوم متبع في المعاهد والمؤسسات السوفياتية ـ يعمد فيه الطلاب إلى كشف عيوب بعضهم بعضاً والتنويه بما يتحلون به من فضائل. فيقف أحدهم ويقول مثلاً: «عزيز شاب طيب يحب رفاقه مع أنه أناني.. لكنه ينحو في مسلكه العام منحى أبناء البورجوازية الصغيرة.. تصوروا أنه يقف أمام المرآة نصف ساعة وهو يرتب شعره.. ويرش نفسه بالعطور.. ويهدر الكثير من وقته في مداعبة الفتيات.. فسلوك عزيز هذا لا بد وأن يؤثر في معتقداته، فتلهيه النزوات المكتسبة من المجتمع البورجوازي عن تأدية واجباته السياسية.»

هكذا يكون نص الاتهام.. ثم يتوالى الطلاب على الكلام تعليقاً، وتفنيداً، وإدانة، وتبرئة، فتتوتر الأعصاب، وتضطرب النفوس، وتهيج الخواطر.. وينتهي «يوم الحساب» بوضع «كاراكتيريستيكا» ـ أي التصنيف الخلقي والأخلاقي ـ لكل طالب، تتضمن ما يتصف به من محاسن ومساوئ، فيُمتدح إذا استحق المديح، أو

يوبخ إذا استحق التوبيخ، وما يتبعه من إنذار وتقريع.

وهناك «الانتقاد الذاتي» الذي يلازم الطالب طوال السنة. ففي كل اجتماع تعقده الفرقة، أو يعقده الصف في الجامعة، يقف الطالب وينتقد نفسه، أو يرد عنه النقد، على أن يبدي ميلاً جلياً إلى الاستجابة للنقد الموجه إليه، واستعداداً واضحاً للاعتراف بأخطائه ونزواته، وقبولاً كلياً للتمسك بأهداب المبادئ الأدبية والمعنوية التي يبشر بها المجتمع الجديد.

ومثالاً على ذلك أن أحد الطلاب الفلسطينيين لم ينس أن يحضر معه من يافا سجادة الصلاة.. فقُبض عليه «متلبساً بالجريمة»، وأحيل إلى محكمة «النقد الذاتي»، فجادل كثيراً ودافع عن نفسه مبرهناً أن الإسلام هو دين الاشتراكية، وأن الصلاة بوصفها رياضة روحية لا تتعارض مع فكرة تحطيم القيود، والتخلص من الاستثمار والاستعمار.. فتساهل القوم معه لأنه طالب مبتدئ وكُلِّف أحد الأساتذة أن يشرح له تاريخ نشأة الأديان، ابتداء من رهبة الإنسان الفطري لعناصر الطبيعة، إلى الوثنية وعبادة الأصنام، وبلوغ فكرة التوحيد بالله، خالق الأرض والسماء والبشر وجميع الأحياء.

فحركة «النقد الذاتي»، و«يوم الحساب» السنوي هما المحك المعنوي للطلاب، وبواسطتهما يتم توجيههم وفق النهج السليم، والأخلاق الفاضلة، والمثل العليا.

وأروي في معرض الحديث عن «النقد الذاتي» حادثة وقعت لي بالذات وكادت تسبب لي الكثير من المتاعب.. كانت موسكو خلال ١٩٢٦ ـ ١٩٢٧ تنام وتستيقظ على ذكر تروتسكي والتروتسكية.. بل إن البلاد انقسمت في الواقع إلى اتجاهين سياسيين أحدهما «ستاليني»، والآخر «تروتسكي».

فستالين يقول إن بالمستطاع إقامة نظام اشتراكي كامل في نطاق الجمهوريات السوفياتية وحدها، أي دون ربط مصيرها بمصير فوز الاشتراكية في العالم القديم.. وأن بمقدور البلاد أن تتغلب على المتاعب الاقتصادية عن طريق تعميم الكهرباء وتقوية الصناعة الثقيلة وسحق طبقة «الكولاك»، أي صغار الملاكين المزارعين الذين سمحت الثورة ببقائهم خلال فترة «النيب».

وتروتسكي، وزينوفييف[٣٤] معه، يقول باستحالة إقامة مجتمع اشتراكي في الاتحاد السوفياتي بمفرده، ولا يجوز لموسكو أن تنصرف إلى التفكير في نفسها فقط، وعليها أن تتجه نحو «الثورة الدائمة»، أي أن تضع كل إمكاناتها المادية والعلمية في تصرف الثورة العالمية حتى تتحقق الفكرة الاشتراكية في نطاق عالمي واسع، وليس في حدود بلد واحد.

ويرى تروتسكي عدم الانجراف في التصنيع الاشتراكي والاستعاضة عنه بمنح الامتيازات للشركات الرأسمالية الأجنبية، وعدم الاعتماد على التعاونيات الزراعية الاشتراكية والاستعاضة عنها بأعمال زراعية يتولاها «مستأجرون مثقفون».

وكانت النتيجة أن طُرد تروتسكي من الحزب سنة ١٩٢٧ وأُخرج من الاتحاد السوفياتي، فأقام في تركيا ثم في فرنسا ثم في المكسيك، حيث قتله أحد أتباعه، ويقال إنه أحد عملاء ستالين.. أمّا زملاؤه وأعوانه فكان نصيبهم الطرد من الحزب، أو النفي والإعدام.

وأعود الآن إلى ذكر الحادث.. كانت الفرقة العربية في تلك الأيام تعقد اجتماعات متتالية، يتولى فيها «زانبرغ» شرح الأفكار التروتسكية وتفنيد مواقفها، ونحن نوافقه في كل ما يقوله، مع بعض ملاحظات إيجابية نبديها لنثبت أننا على صلة بسير الحوادث. وأحببت ذات يوم أن أتبحر في الموضوع ورحت أحاور، فتصدت لي فتاة يهودية فلسطينية اسمها «خايه»، وأخذت تستفزني، فقلت فيما قلته: «المعروف أن البلاد تشكو من نقص في الإنتاج الزراعي.. وأنها بحاجة إلى كسب ثقة الفلاحين وتأييدهم بقصد الإكثار من الحاصلات الزراعية، وتمتين التعاون بين عمال المدينة وفلاحي القرية.. أفلا تعتقدون أن التحول ضد صغار ملاكي المزارع في هذه الآونة يوقع البلاد في متاعب لا حصر لها، وربما أسفرت عن مجاعة؟..»

كنت أريد جواباً.. لكنني تلقيت ثورة من الغضب.. فنهض «زانبرغ» وقال: «علينا أن نشكر خايه لأنها سحبتك من لسانك!..»

ونهض حمدي وقال: «الله.. هو إيه دا. هو أنت كنت مستخبي فين؟!..»

ثم نهض «عمر» وقال وهو يرجف: «لا.. لا.. دي مسألة خطيرة.. دي مسألة تطير العقل.. ما نقدرش نسكت أبداً!..»

وهكذا أُحرجت، ولم أدرِ كيف أتفادى اتهامي بالتروتسكية، فدافعت عن نفسي دون جدوى. واقترح عزيز عقد جلسة فوق العادة للنظر في قضيتي.. فخرجنا إلى الشارع وكان الرفاق يرسلون زفرات مروعة، فاقترب مني «حسونه» وقال: «بأه يا سي مصطفى عاوز تثير حولك ضجة ضروري يعني تبدي رأيك.. مش أحسن لك لو استنيت حتى تسافر.. ترجع لبلادك وبعدين قول اللي انت عايزه.. إسمع مني اعتذر في الجلسة القادمة وقول إنك لخبطت وخلاص!..»

ولمّا عقدت الجلسة فوق العادة نهضت وقلت: «أيها الرفاق.. لقد أبديت رأياً في الجلسة السابقة هو أقرب إلى التروتسكية منه إلى الستالينية.. وأرجو أن تكونوا على ثقة بأنني لا أشارك التروتسكيين وجهات نظرهم، إنها زلة لسان، أو

على الأصح إنها بلبلة في فهم المعنى من المزارع التعاونية والحكومية، وعدم تقدير للاتجاه القائل بضرورة سحق 'الكولاك' بوصفهم طبقة اجتماعية.. إنني أقر بخطئي وأعتذر.»

وما إن أنهيت كلمتي هذه حتى انفرجت الأسارير، وتقدم الطلاب مني مهنئين لعودتي إلى الحظيرة الستالينية الحقة.. وأسدل الستار على هذه «المعارضة» التي لم تدم أكثر من أربع وعشرين ساعة.

* * *

تلقت اللجنة الفنية في الفرقة العربية دعوة لحضور حفلة يحييها عمال مصنع في بلدة «أوريخوفو زويفو»، لمناسبة يوم الجيش الأحمر، فتوجهت أنا وعزيز وعمر إلى تلك البلدة، فاستقبلنا القوم استقبالاً طيباً.. وفي النادي تبارى الخطباء، وعرض الفنانون ألواناً من الغناء والرقص الشعبي، والعزف على الآلات الموسيقية، ثم طلبوا منا أن نقول كلمة في الحفل، وأن نعرض فناً عربياً.. وكان على عزيز أن يتكلم بوصفه أكبر سناً وأقدم في الجامعة، فالتفت إليّ وقال: أعمل إيه يا سي مصطفى؟..

قلت: ارتجل كلمة بالعربية..

قال: بس أقول إيه؟..

قلت: قول أي حاجة تناسب المقام وأنا أُترجم.

فصعدنا على خشبة المسرح بين التصفيق والهتاف، وإذ بعزيز يستهل كلامه بقوله:

إن لم أصن بمهندي ويميني
ملكي فلست إذاً صلاح الدين
تحمي الممالك ربّها أمّا أنا
فأريد أحمي الملك لا يحميني.. إلخ

ثم ألقى كلمة فيها مديح وتحيات مرتجلة. وجاء دور الترجمة وكان عليّ أن أنقذ الموقف، فقلت للحضور إن زميلي استهل كلامه بقصيدة يذكر فيها أن الجيش هو الذي يحمي البلاد.. إن انتصار الجيش الأحمر على الجنرال «كولتشاك» في الأورال وسيبيريا، وعلى الجنرال «دينيكين» في الجبهة الوسطى، وعلى الجنرال «فرانجل» في الجنوب، هو انتصار للحرية في كل مكان، ولا ريب بأن العرب سيجنون ثمار هذا الانتصار أيضاً إن عاجلاً أو آجلاً.

وترك عزيز المسرح وهو يلهث من الإجهاد، وتبعته إلى المكان المخصص

لنا.. فقلت له: إيه الخطاب دا؟..

قال: المهم أنك أنت قلت في الترجمة الشيء اللي غاب عني.. مرسي قوي.

ثم صعد عمر على خشبة المسرح، وألقى كلمة بالروسية عن الكوكايين الذي يستخدمه الاستعمار في تخدير النفوس والعقول، وأخذ يمثل دور «شم الكوكايين» للشيخ سيد درويش، مبدياً بيديه وعينيه حركات تمثيلية معبرة ويقول: «شم الكوكايين.. خلاني مسكين مناخيري بتزن وقلبي حزين.. وعينيّ في راسي رايحين جايين»، إلخ..

فصفقوا له تصفيقاً حاداً.. وعدنا إلى موسكو.

حسونه وشورا: وقع لحسونه حادث أثار ضجة كبيرة في الجامعة. فقد أعجب بفتاة روسية اسمها شورا، كانت تعمل صيدلانية في الجامعة، وتعرف بها وباح لها بحبه وبرغبته في الزواج منها. فبادلته الحب والرغبة، ثم عقد عليها وأنجبت له صبياً، سماه «مارون»!..

ويلوح أن حسونه لم يكن جاداً بزواجه هذا، فأهمل زوجته الروسية، وصار يتهرب منها، وهي تلاحقه في كل مكان يغشاه، وتراقبه، إلى أن علمت أنه بدأ يميل إلى فتاة أخرى، فلم تقو على احتمال هذه الصدمة، بعد أن هامت بذلك الشاب المصري صاحب الشعر المجعد الأسود، فدلفت إلى صيدليتها وصنعت دواء بيديها وشربته، وأسندت رأسها إلى الطاولة ولم تفق أبداً..

لم تترك شورا رسالة تشرح فيها السبب الذي حملها على إنهاء حياتها وهي في شرخ الصبا.. غير أن الطلاب الذين يعرفون علاقتها بحسونه قد أدركوا السر في انتحارها.. وكان عتابهم لحسونه شديداً. أمّا هو فقد تألم لفقدانها، لكنه لم يسلم بأنها أنهت حياتها في سبيله.. وكان يقول: «ليه هو أنا عمر بن أبي ربيعة.. والاّ رودولف فالنتينو؟!».. وبالرغم من هذه المكابرة كان يحس في قرارة نفسه بأنه اقترف إثماً..

وظلت قصة شورا وحسونه مدار نقاش وتعليق في أوساط الفرقة العربية إلى أن ظهرت قصة الطالب المصري الجديد فتحي.. وخلاصتها أنه اقترن بفتاة روسية وأنجبت منه بنتاً. وذات يوم اختلفا فأقسم عليها بـ «الطلاق ثلاثاً».. ثم تدخلنا في الأمر وأفتينا ببطلان القسم مستندين إلى أن عقد النكاح كان مدنياً معلقاً إلى أن يعود إلى مصر ويسجله في المحكمة الشرعية.. وعليه فإن قَسَم الطلاق غير شرعي ما دام الزواج لم يكتسب الصفة الشرعية!..

وعلى ذكر الحب والزواج أقول إن الطلاب العرب جاؤوا إلى موسكو في مستهل الحكم السوفياتي، وقد سيطرت عليهم فكرة «الحب الحر».. ومنشأ هذا الاعتقاد أن الثورة الروسية في سنيها الأولى أطلقت الناس من قيود كثيرة، وجعلتهم يخرجون على أوضاع جمّة. فكانت الثورة على الكهنوت عنيفة، والثورة على التقاليد الاجتماعية الموروثة أعنف.. فقامت حركة بين النساء تدعو إلى «العري»، وقامت بين الفتيان والفتيات دعوة إلى «حرية الحب»، ومارسوها في غفلة من الزمن إلى أن وقفت السلطات السوفياتية لهاتين الحركتين بالمرصاد، وطاردت أنصارهما بشدة، مبرهنة على أن النظام الجديد لا يقول بإلغاء الأُسرة وإنما يدعو إلى قيام أُسرة جديدة وفقاً لظروف جديدة.. ومع ذلك كانت الطبقة المتوسطة من السكان لا تزال تخضع للتوجيهات الكنسية في كثير من الأحوال الخاصة، ولو في أشكال خفية، بينما الجيل الثائر يسير في الحياة وفقاً لأهوائه، ويفسر الأمور كما يروق له ويعجبه.

وانتشرت أنباء هذه الناحية الجنسية في الخارج، وأطلق الناس عليها اسم «الإباحية الروسية»، وبالغوا فيها، وصوروا البلاد الروسية وكأنها تسير نحو الانحلال الأخلاقي. فعقود الزواج تجري في تلك الديار في مكتب يعرف باسم «زاكس»، أي «مكتب الأحوال الشخصية لعقود الزواج»، ويعرف بالروسية الحرفية بـ (ـــــــ)*. وكانت هذه العقود تجرى في الأعوام الأولى للثورة بطريقة جد بسيطة.. يأتي العروسان إلى المكتب المذكور، وغالباً ما يزين بالزهور، وبالرسوم الجميلة، ويجلسان أمام الموظفة المسؤولة، وبحضور عدد من الناس الذين يلذ لهم رؤية حفلات الزواج، فتسجّل اسميهما وعمليهما ومكان سكناهما وتبارك لهما بهذا الزواج وترجو لهما حياة سعيدة.

ومع مضي الزمن، وتثبيت حياة الأُسرة السوفياتية، أخذ مكتب «زاكس» يتشدد في شروط عقود الزواج، منها التأكد مما إذا كان طالب الزواج غير مرتبط بعقد زواج آخر، والتثبت من حالته الصحية والمالية، والتعهد المشترك بتحمل مسؤولية الأسرة، وتقديم أسباب قوية عند طلب الافتراق.. فشروط كهذه لم يكن قد تم العمل بها في مستهل الثورة، ولذا قيل إن البلاد الروسية تؤمن بـ «حرية الحب»، بمعنى حرية العلاقات الجنسية. ووصلتنا هذه الفكرة مشوهة، وخيّل للعرب أن الفوضى الجنسية سائدة في تلك الديار.. فمكتب «زاكس» اليوم لا يختلف في شيء عن مكاتب عقود الزواج المدني في كل قطر من أقطار الدنيا، وعقوده تتضمن

* فراغ في الأصل.

شروطاً واردة في عقود الزواج الشرعية والكنسية، والفارق فقط في الطابع الديني والمسؤولية المذهبية، وفي الطابع المدني والمسؤولية المواطنية.. يضاف إلى ذلك أن على العروسين أن يتوجها إلى ضريح الجندي المجهول ويضعا عليه باقة من الزهور، ثم يزوران ضريح لينين وهما في ثياب الزفاف. وقد أدرج هذا التقليد لتذكير الناس الدائم بضحايا الحرب، وبمؤسس الدولة الاشتراكية.

السُّبوتنيك: قيل لنا ذات يوم إن طلاب الجامعة الشرقية قد أدرجوا في قائمة «السُّبوتنيكي»، وأن علينا الخروج إلى العمل.. ولا بد هنا من التمييز بين كلمة subotnik وكلمة sputnik. فالأولى تعني «السَّبْتي»، أو العمل في أيام السبت، والثانية تعني «المرافق»، أي القمر الاصطناعي المرافق للكرة الأرضية.

كانت الحرب الأهلية والثورة قد أنقصتا اليد العاملة إلى درجة هائلة، فأصبح معظم المرافق العامة يشكو نقصاً في العمال، وغدت البلديات ودوائر الشؤون الاجتماعية تفتقر إلى من يقوم بخدماتها الحيوية. بعد كل هذا فكر لينين في طريقة يسعف بها البلاد، وابتكر طريقة «السُّبوتنيك»، أي تجنيد الشباب، والطلاب منهم بصورة خاصة، لتقديم يوم عمل كامل في أيام السبت بالمجان، لخدمة المرافق العامة، حسبما تقرره إدارة المعهد، أو المدرسة، أو المؤسسة التي ينتمون إليها.

ويتناول السُّبوتنيك العمل في الحقول التالية: التحطيب في الغابات؛ جمع البقول والفاكهة؛ نقل البضائع؛ نقل الأثاث والأمتعة؛ تنظيف الحدائق العامة؛ تنظيف المقابر العامة؛ المساعدة في تقديم مواد البناء للمنشآت العامة؛ إيصال المواد الغذائية للمعاهد ودور الحضانة وبيوت الأطفال والملاجئ والسجون.. وعلى الجملة القيام بالعمل الجماعي الذي لا يتطلب التخصص.

وبهذه الطريقة الفذة كانت البلاد تجند مئات الآلاف من الشباب للقيام بالأعمال والخدمات العامة في أيام السبت، وبلا مقابل باستثناء طعام الغداء. وبهذه الطريقة استطاع لينين أن يوفر على الدولة الملايين من الروبلات، وأن يؤمن للمدن نظافة وترتيباً، وللناس زاداً ووقوداً.

خرجت الفرقة العربية في الجامعة مع باقي الفرق للعمل في يوم السبت. وكان نصيبنا تنظيف مقبرة تقع في الناحية الشمالية من العاصمة. وكانت المقبرة قديمة العهد، لعلها مقبرة «غولوفينسكوي» (Golovinskoy)، فيها الكثير من الألواح والشخوص والتماثيل. ويرجع تاريخ بعض قبورها إلى القرن السادس عشر.. ويكتب الروس على شواهد قبورهم عبارات مثل: «عبدة ربها فلانة»، أو «عبد ربه فلان»، ولا تخلو أيضاً من جمل نثرية وأبيات شعرية، تشيد بمناقب الراحل أو

الراحلة.

ولمّا كنت منهمكاً مع بعض الطلاب العرب في تنظيف قبر، أقبلت علينا عجوز روسية وقالت وهي تهز العصا: «نظفوه جيداً.. ما هذا اللعب»!..

قلت لها: وما شأنك أنت؟..

قالت: هذا قبر جدتي فيرا ألكسيفنا غونشاروفا!..

قلت: لا شأن لنا بنزيل القبر، ونحن نقوم بعملنا على أكمل وجه..

قالت وهي تهز العصا: أنتم كسالى، أنتم لا تستحقون الأجرا..

وتركتنا وهي ترغي وتزبد.. ونحن نضحك، وما إن انقضى النهار حتى كانت المقبرة أشبه بحديقة في فصل الشتاء..

وعلى ذكر المقابر الروسية أقول إن الكثير من الموتى في هذه الأيام يحرقون في «الكريماتوريا»، ويعطى الأهل القليل من رماد الفقيد في قارورة وما تبقى يلقى في حفرة كبيرة.

والمحرقة هذه كناية عن بيت أنيق، جميل التصميم، له قاعة فسيحة مليئة بالزهور والرياحين.. وفي صدر القاعة منصة عالية، وفي باحتها مقاعد، وفي منتصفها قاعدة مستطيلة يوضع عليها النعش.. وفي نهاية الحديث عن الراحل وذكر مآثره وخصاله الحميدة يضغط أحد على زر كهربائي فتتحرك القاعدة إلى أسفل حاملة معها النعش، وفي الطابق الأرضي يستقبل «أصحاب الموقد» الجثة ويضعونها في نعش فولاذي لا يذوب، ويدفعونه إلى فرن كهربائي هائل الحرارة. بعد فترة يستحيل الجسم الميت بكل ما فيه من ميكروبات إلى رماد مطهر.. وتعود القاعدة إلى الطابق العلوي وهي تحمل قارورة للذكرى.. أو لتدفن في جدار الموتى حيث تغطى ببلاطة صغيرة يكتب عليها اسم الفقيد، وتاريخ ميلاده ووفاته وحرقه.

الاختلاط بالروس: كانت مدرسة الممرضات الروسيات تقع قريباً من نادي جامعة الشعوب الشرقية في ساحة تفرسكوي.. وكان يحلو لكثير من طالبات هذه المدرسة أن يأتين إلى النادي للتعرف إلى شباب آتين من الشرقين الأدنى والأقصى، فيتحككن بهم، ويستفسرن عن بلادهم وأنظمة حياتهم وتقاليدهم.

وممن تعرفت إليهن في النادي الفتاة «شورا»، شقراء الشعر زرقاء العينين، تقيم مع شقيقتها الكبرى، التي فقدت زوجها في الحرب الأهلية. وبفضل شورا هذه بدأت أنطق الكلمات الروسية نطقاً سليماً.

ثم «زينا».. وهي من مدينة «ريازان»، خرنوبية الشعر سوداء العينين، كلها نشاط وحيوية.. كانت ترغمني على الثرثرة بالروسية، وإذا تلكأت تخزني

بدبوس.. ومرة ضغطت بسيجارتها المشتعلة على ظهر يدي، فانطلقت أعاتبها بكلام روسي متواصل.

و«كابا».. من مدينة «كالوغا»، فتاة حنطية اللون، هادئة الطبع، دعتني ذات يوم إلى بيت الطالبات حيث تقيم، وعرفتني بفتاة هناك. وكانت هذه الفتاة كئيبة حزينة، سألتني عن الحياة في بلاد «ما وراء الحدود»، وعن الناس الذين ينعمون بالحياة، ويرتدون ما يروق لهم من لباس، ويطالعون ما يحبون مطالعته من كتب ومجلات. وبعد أيام علمت من كابا أن هذه الفتاة شنقت نفسها!.. كان هذا الحادث صدمة عنيفة لي، واستغربت ـ كما استغربت الفتيات ـ كيف أقدمت هذه الفتاة على الانتحار، مع أن مثيلاتها في تلك الأيام كثيرات..

و«كسينيا».. من مدينة «تولا» الشهيرة بصناعة الأسلحة البيضاء وسماورات الشاي.. فتاة تتحدر من أسرة متوسطة الحال، مثقفة، رقيقة الجانب، بيضاء البشرة، زرقاء العينين، تضع في أذنيها قرطاً ذهبياً ناعماً، مزيناً بحجارة كريمة.. هذه الفتاة لا تشكو من متاعب، وجل همها أن تتزوج.. لقد أفدت منها في التعرف إلى أشعار «بوشكين» و«ليرمنتوف».(٣٥)

و«فيرا».. طالبة ثانوية، في الخامسة عشرة من عمرها، فتاة حلوة، لعوب، مكتنزة، طويلة الشعر، تقيم في الناحية الشمالية الغربية من موسكو، تعرفت إليها في نادي الجامعة، ودعتني إلى بيتها وعرفتني إلى والديها. كانت هذه الفتاة مخطوبة من فتى روسي، غير أنه كان يضايقها ويثير غيرتها. ورأت فيّ الشاب الذي بوسعه أن يثير غيرة خطيبها.. فاقتادتني ذات يوم إلى حديقة عامة يعرض فيها ما يسمى بالروسية «إسترادني كونسرت»، أي حفلة موسيقية في الهواء الطلق، وأجلستني في مكان غير بعيد عن المكان الذي يجلس فيه خطيبها.. وكانت تتلفت إليه بين حين وحين لتسترعي انتباهه، فأدركت للتو أن عليّ أن أبتعد عنها وعنه، وهكذا كان.

و«لوبا».. فتاة قروية بدينة من منطقة «رجيف»، تعرفت إليها في سهرة لعيد رأس السنة. كانت في تلك الليلة مخمورة، وجد مرحة، ووعدتني بمرافقتي إلى قريتها للاطلاع على نمط الحياة القروية الروسية، غير أنني لم أثق بها وتهربت منها. وفي اليوم التالي قالت لي صديقة لها: لقد أحسنت عملاً بتهربك من لوبا، لأنها حامل من شخص قد نبذها، وأحبت أن تلصق بك المسؤولية!..

و«فاليا».. فتاة أنهت تعليمها الثانوي، وتتكلم الإنكليزية قليلاً، تقيم في شارع «سادوفايا» في موسكو، وفي الناحية الشرقية من القناة.. تعرفت إليها في النادي وكانت تلازمني دائماً بوجهها الضحوك، وقلبها الطيب.. وبواسطة فاليا هذه

احتككت بالأُسرة الروسية من الطبقة المتوسطة، وتُعرف بالروسية بـ «الميشانستفا» (Mishanstva)؛ فيها سيدة كانت ثرية.. وشيخ كان موظفاً كبيراً في الدولة القيصرية.. وأخ كان مرشحاً للمدرسة الحربية.. وثلاث شقيقات جميلات مثقفات يعشن على الذكريات.. وخال قسيس يتستر باللباس المدني.. وعمة كانت مديرة ملجأ للأيتام.

لا أستطيع القول إن هذه الأُسرة كانت تتعاطف مع النظام السوفياتي الجديد. فالطبقة التي تعرف بالبورجوازية الصغيرة ظلت حذرة من النظام الجديد، لأنها فقدت الأساس الاقتصادي الذي كانت تقوم عليه في ظل الحكم القيصري.. من هذه الطبقة: التجار؛ السماسرة؛ أصحاب العقارات؛ أرباب الشركات والمصارف الصغيرة؛ أصحاب الحوانيت للبقالة واللحوم والألبسة وأدوات الزينة.. وجماعة المستخدمين والموظفين وعددهم ضخم، وعناصر أُخرى كانت تعيش في كنف البلاط الإمبراطوري، وتبني مستقبلها على وعود من الحاشية والأعيان.

فأُسرة «فاليا» من هذه الطبقة.. فهي دائمة التذمر من الوضع الجديد، وتعرب عن استيائها بأساليب شبه خفية.. ومنها سلاح النكتة.. قالت فاليا في إحدى السهرات: «روسي واحد لا وزن له.. روسيان اثنان لا وزن لهما.. ثلاثة روس معاً ثورة على الكرجي ستالين!..»

وقالت شقيقتها: سأروي لكم هذه الطرفة: اجتمع تشمبرلين وهوفر وستالين، وأخذ كل منهم يتباهى بأنه أقوى شكيمة من زميليه، وأشد صبراً على احتمال المكاره.. واتفقوا على أن يدخل كل واحد منهم إلى زريبة ماعز ويقيم فيها، والبطل الصبور هو الذي يقيم في الزريبة أطول وقت ممكن.. فدخلها تشمبرلين وما هي إلاّ لحظات حتى خرج من الزريبة صاخباً شاتماً.. ثم ولجها هوفر فلم يكد يخطو فيها ثلاث خطوات حتى ارتد على عقبيه وهو يضع منديله على أنفه.. ثم ولجها ستالين، وفرش معطفه على أرض الزريبة واسترسل في نوم عميق!..

وقالت العمة: كان ستالين يجتاز طريقاً ريفية ضيقة حين اعترضت سبيله بقرة، وحاول رجاله إبعاد البقرة بشتى الحيل فلم يفلحوا.. ثم اقترب ستالين من البقرة وهمس في أذنها كلاماً، فهزّت البقرة رأسها وأفسحت له الطريق.. فسأله رجاله ما الذي قلته للبقرة حتى أفسحت لك الطريق؟.. قال مبتسماً: قلت لها إنني أعدها بإدخالها في إحدى المزارع التعاونية!..

وكان القوم يستغرقون في الضحك إثر كل نكتة يروونها، ويحيطونني علماً بأنهم لا يقصدون الدعاية ضد النظام، وإنما نقد الحاكم في جو من الممازحة والترويح عن النفس!..

وجاء في إحدى السهرات خال الأُسرة القس.. كان يبدو في مظهره الخارجي كأحد الناس العاديين.. قبعة من الفرو، ومعطف سميك، وحذاء يرتفع حتى الركبة.. لا شيء يثير الشبهة بتاتاً.. ولمّا ولج البيت ونزع المعطف بدا في لباس القس وقد حلّى صدره بصليب كبير.

قلت للقس مستفسراً: ما الداعي إلى هذا التستر كله؟..

قال: تهرباً من الإهانة والاعتداء.

قلت: وما الداعي إلى الإهانة والاعتداء وأنت رجل دين؟..

قال: هذه ذيول الثورة.. ليس بخافٍ عليك أن الكنيسة الروسية كانت أقوى دعامة لحكم القياصرة في البلاد.. ولمّا هبت الثورة انضم عدد من القسوس إلى القوى المعادية للثورة.. وكانوا يحرضون الناس على مقاتلة الحمر، بل إن بعضهم استباح حرمات الكنائس، وسمح بوضع مدافع رشاشة من طراز «مكسيم» في صوامع الأجراس، لتضرب الثوار بالرصاص من عل.. ومن هنا نشأت الكراهية لرجال الدين، وطوردوا، ونظمت فيهم الأناشيد الساخرة، وأصبح تجوالهم في الشوارع لا يخلو من مخاطرة..

سألته مبتسماً: هل سمحت أنت أيضاً بوضع رشاش في داخل كنيستك؟..

قال: معاذ الله.. إنني رجل دين لا أكثر، لا أتدخل بالسياسة قطعاً، وجل ما أبتغيه هو خدمة الكنيسة والناس.

وأخذ القس يرتل الصلوات بصوته الرخيم، وفاليا ترافقه بالعزف على البيانو.. ثم قدموا النبيذ المعتق، وأعقبوه بالحلويات والشاي.. ولمّا أخذت الحضور النشوة راحوا يرددون الأغاني الشعبية الروسية الجميلة، أذكر منها أغنية «استعار» محمد عبد الوهاب لحنها في أغنية «يا دنيا يا غرامي»، وهي تمثل في النص الروسي فتاة تداعب فتاها بقولها:

عبثاً يا «كوليا» تروح وتجيء
عبثاً تتعب قدميك..
لن تفوز بشيء أبداً
وإلى بيتك تعود غبياً!..

وكانت هذه السهرات الروسية تتكرر في بيت فاليا، أو في بيوت صديقاتها، أو في الأكواخ الريفية، حيث كنا نستقبل أعياد الميلاد ورأس السنة الجديدة.. نستقبلها في أجواء الغابات، والثلوج، والبرد القارس، والمواقد، والشاي والحلوى، والرقص، والعزف على القيثارة والبلالايكا، وتبادل القبل.

دعتني «فاليا» في ليلة عيد الميلاد لسنة ١٩٢٧ لزيارة كنيسة «إيسايفسكي»

(Isaeyvski)، الواقعة عند نهر موسكو من الناحية الجنوبية لقصر الكرملين. وقد اصطحبت معي الطالب الزنجي الأميركي «جونس»، وهو رجل قصير القامة بدين الجسم، مفلطح الأنف، غليظ الشفتين، واسع العينين الدامعتين.

كانت الكنيسة تعبق برائحة البخور، والقس يقوم بالخدمة، والناس يطوفون في أرجاء الكنيسة، وهم يتنقلون من أيقونة إلى أيقونة.. وقد لاحظت لأول وهلة أن معظم رواد الكنيسة من الطاعنين في السن، من الفلاحين والفلاحات الذين يأتون إلى موسكو لبيع الخضار والفاكهة. وكان بين المصلين عدد من الفتيان والفتيات.

وحدث ونحن نتجول في أرجاء الكنيسة أن مرت بالزنجي جونس عجوز روسية تحمل شمعة في يدها. فما إن وقع نور الشمعة على وجهه حتى ارتدت إلى الوراء وهي ترسم شارة الصليب على وجهها، وتصرخ «تشورت.. تشورت»، أي شيطان.. شيطان!.. فضحكنا كثيراً لهذه النادرة، وعلمنا من بعض المصلين أنهم لم يروا زنجياً في حياتهم أبداً.. وقد فوجئت الروسية العجوز برؤية زنجي.. وأين؟.. في كنيسة، وفي ليلة عيد الميلاد بالذات.

وحين خرجنا إلى باحة الكنيسة التقيت بامرأة روسية في الثلاثين من عمرها. تحدثنا عن الدين والنظام الجديد، فقالت بالحرف الواحد: «إنني من أنصار الحكم السوفياتي، لكنني مؤمنة.. فالدين في نظري لا يتعارض مع الحكم الجديد.»

فقالت لها فاليا: ولكن الثورة الروسية وضعت لوحة ضخمة عند مدخل الساحة الحمراء الجنوبي تقول: «الدين هو أفيون الشعب»!..

فأجابت وهي تهز رأسها: «أنا لا أقرّ هذا الرأي، وكل جانب حر في معتقده.»

وعدنا إلى الجامعة وجونس يتحسس وجهه بيده ويضحك ويقول: تشورت تشورت.. آه لو يسمعونها في «هارلم»![٣٦]

جولة في الكريملين: قمنا في يوم رأس السنة الجديدة بجولة شاملة في قصر الكريملين الشهير. وهو في الواقع مدينة صغيرة محاطة بالأسوار، ذات أبواب وأبراج، تكاملت معمارياً عبر تسعة قرون على التوالي.

والكريملين هو القاعدة الأساسية لمدينة موسكو، وقد أنشأه الأمير «يوري دولغوروكي» سنة ١١٥٦، ثم توالى أمراء روسيا على توسيع هذه القلعة وإحاطتها بسور من جذوع الأشجار القوية، ثم بسور من الحجر الأبيض، وأقاموا فيها عشرين برجاً، أبرزها البرج «الخفي» المتصل عبر طريق أرضية خفية بنهر موسكو، أنشأه

المعماري الإيطالي «أنطون فريازين». . ثم برج «بوروفيتسكي» الذي أنشأه المعماري الإيطالي «بترو أنطونيو سولاري» سنة ١٤٩١. وفي السنة نفسها، شيد الروس برج «سباسكي»، وهو أجمل الأبراج قاطبة.

والمدخل الرئيسي للكريملين من الساحة الحمراء، تعلوه ساعة كبيرة (هي بيغ ـ بن موسكو)، كانت تعزف النشيد القيصري، ثم غدت تعزف النشيد الدولي، واليوم تعزف النشيد السوفياتي.

وهناك مجموعة من الكاتدرائيات النفيسة، مثل كاتدرائية «أوسبينسكي» التي شيدها المعماري الإيطالي «أرسطوطل فيورافانته» في سني ١٤٧٥ ـ ١٤٧٩.

ثم كاتدرائية «بلاغوفيشينسكي»، وقد شيدت في سني ١٤٨٤ ـ ١٤٨٩. وهي تحتوي على أيقونات رائعة الصنع، وتعتبر من أبرز أعمال فنانين روس أمثال «غريكا» و«روبليفا» و«غورودتسا» و«فيودوسيا» وغيرهم.

ثم كاتدرائية «أرخانجلسكي»، شيدها معماريون روس بإشراف المعماري الإيطالي «ألفيزانوفو» في سني ١٥٠٥ ـ ١٥٠٩، وغدت فيما بعد مدفناً للقياصرة والأمراء الروس.

ويرتفع في ساحة الكريملين برج للأجراس أنشأه القيصر إيفان الكبير في سني ١٥٠٥ ـ ١٥٠٨. وقد تم إنجازه في عهد القيصر «بوريس غودونوف»، ويبلغ ارتفاعه ٨١ متراً، ويزن أكبر ناقوس فيه ٧٠ طناً. وفي سنة ١٧٣٥، صب الفنان الروسي «إيفان موتورين» ناقوساً ضخماً، يزن مئتي طن، أطلق عليه اسم «الناقوس ـ القيصر»، ووضعه عند قاعدة برج الأجراس، غير أن حريق سنة ١٧٣٧ قد أعطب جزءاً منه، وانفصلت عنه قطعة تزن ١١ طناً.

وفي سنة ١٥٨٦، صب الروسي «أندره تشوخوف» مدفعاً ضخماً أطلق عليه اسم «المدفع ـ القيصر»، وهو يزن ٤٠ طناً، وطوله ٥ أمتار و٣٤ سنتيمتراً، وقطر فوهته ٨٩٠ ملليمتراً، وعليه نقوش روسية بديعة. وهناك ترسانة شيدت سنة ١٧٠٢ بإشراف المهندس المعماري «كريستوفر كونراد». وقد عرضت في باحتها مجموعة من المدافع التي غنمها الروس من نابليون أثناء تقهقره سنة ١٨١٢.

وأمام الترسانة هذه عمارة بديعة أشرف على إنشائها المهندس المعماري الروسي «كازاكوف» في سني ١٧٧٦ ـ ١٧٨٨، وكانت في العهد القيصري مقر مجلس الشيوخ، وهي اليوم مقر مجلس الوزراء. وكان لينين اتخذها مقراً له ومقاماً في سني ١٩١٨ ـ ١٩٢٢.

وعلى الهضبة الجنوبية من الكريملين شيد القصر الكبير في سني ١٨٣٨ ـ ١٨٤٩، وهو يضم قصوراً قديمة أخرى لا تزال قائمة، وهي: «قصر الصفائح للقرن

الخامس عشر»، و«قاعة القيصرة المذهبة للقرن السادس عشر»، و«قاعة الراحة القيصرية للقرن السابع عشر».

ويُتخذ القصر الكبير في العهد السوفياتي مكاناً لعقد المؤتمرات الحزبية، وجلسات المجلس الأعلى للاتحاد السوفياتي، ولجمهورية روسيا السوفياتية. كما تعقد فيه اجتماعات المسؤولين عن المرافق الصناعية والزراعية والعلمية والثقافية، وفيه تتم جميع اللقاءات السياسية والدبلوماسية.

وتقع بالقرب من هذا القصر قاعة الأسلحة، أنشأها بطرس الأكبر سنة ١٧٢٠، وأُنجزت في شكلها الحالي سنة ١٨٥١. ويحتفظ فيها اليوم بالنفائس الفنية والتاريخية، وتضم فيما تضمه الأشياء الخاصة بالأمراء البارزين، والثروات القيصرية، وأثمن الأسلحة، والدروع، والصفائح الذهبية والفضية، والألبسة النفيسة، وغيرها من التحف ذات القيم التاريخية والثقافية.

الساحة الحمراء: يعتقد معظم الأجانب أن الثورة أطلقت اسم الحمراء على الساحة المؤدية إلى قصر الكريملين. والواقع أنها تسمية قديمة تعود إلى قرون عديدة؛ ففي هذه الساحة كان القياصرة يقيمون حفلاتهم العامة من تتويج، واستقبال، وأعياد.. والتمتع بمشاهدة عرض الضرب بالقبضات، المعروف باسم «كولاتسكي بوي»، فينبري المتخاصمان أمام القيصر والحاشية، ويشتبكان بالصراع وكل منهما يضع يده اليمنى في قفاز مبطن من الداخل وحديدي من الخارج، فيتجاولان ويتصاولان إلى أن يتمكن أحدهما من تسديد الضربة إلى قلب خصمه، فيجندله قتيلاً أمام القيصر والحاشية والمدعوين من وجهاء القوم.

وكان قياصرة الروس يقطعون بالفأس رؤوس خصومهم أو المجرمين من الناس في الساحة الحمراء، ولا تزال منصة القطع قائمة حتى الآن. وعلى هذه المنصة قطع رأس الثائر الفلاح الشهير «ستينكا رازين» سنة ١٦٧١.

وما دمنا في الساحة الحمراء يجدر بنا أن نتوقف قليلاً عند أجمل معبد في روسيا، وهو معبد «واسيلي بلاجيني»، أو كاتدرائية بوكروفسكي. وقد بنيت إبان حكم القيصر إيفان الرهيب الرابع، ابن إيفان الكبير الثالث. فقد أمر هذا القيصر معماريَّيْن من أمهر معماريي روسيا بأن يشيّدا في السّاحة الحمراء كنيسة أو معهداً أو كاتدرائية تكون في غاية العظمة والروعة.. بل تكون قطعة فنية خالدة في زخرفها وهندستها.

انصرف المعماريان إلى إحياء الأساطير الروسية في فن المعمار، وأقاما كاتدرائية بوكروفسكي التي تذهل كل من يتطلع إليها وتخلب لبه.. وكان إيفان الرهيب أكثر

الناس إعجاباً بها، فأنعم على المعماريين وجعلهما من المقربين إلى بلاطه.

وذات يوم زار هذه الكاتدرائية سفير الملكة إليزابيت لدى البلاط الروسي، فسحر بهندستها وجمالها. ولمّا عاد إلى لندن روى للملكة قصة الكاتدرائية، فأحبت أن تشيّد في لندن مثلها، وكتبت لإيفان الرهيب تسأله أن يعيرها المهندسَيْن ليخلدا فن المعمار الروسي في العاصمة الإنكليزية.

وما إن تلقى إيفان الرسالة حتى استدعى المعماريَّين الروسيين وسألهما: أتستطيعان إقامة معبد أجمل مما صنعتما؟..

فأجاباه بصوت واحد: أجل يا مولانا.. إننا لعلى استعداد تام لتشييد معبد أجمل وأروع..

وفي ذلك المساء أمر إيفان الرهيب بسمل أعين المعماريين الروسيين.. وانتظرت إليزابيت طويلاً رد القيصر دون جدوى، إلى أن جاءها سفيرها في روسيا وروى لها مأساة ذينك الرجلين اللذين أقاما في الساحة الحمراء في موسكو كاتدرائية لا مثيل لها إلاّ في الحكايات الخرافية.

وفي الساحة الحمراء اليوم، وعند الجدار الملاصق بالكريملين، يقوم ضريح لينين المصنوع من المرمر الأسود، وفاقاً للنمط المعماري البابلي ـ الفارسي. وقد سُجي فيه مؤسس الدولة السوفياتية في نعش زجاجي محكم الإغلاق، وهو يرتدي بدلة شبه عسكرية، يجمع قبضة يده اليمنى ويضعها على جسمه، ويفرد اليد اليسرى ويمدها إلى جانبه. ويعتبر ضريحه اليوم مزاراً عالمياً، يحرسه جنود باستمرار، وقوفاً وخشوعاً، يلتزمون الصمت التام، ويمنعون الزائرين من التوقف أو الحديث، ويحثونهم على مواصلة السير والخروج من الباب الآخر للضريح.

وتقوم على امتداد الضريح من الجانبين الملتصقين بجدار الكريملين، قبور لزعماء الحزب والدولة، وزعماء من الشيوعية العالمية، ومنهم الكاتب الأميركي «جون ريد»، صاحب كتاب «الأيام العشرة التي هزّت العالم».

وأذكر بهذه المناسبة أن ستالين بعد وفاته سُجي في نعش زجاجي أيضاً، ووضع إلى جانب لينين في ضريحه، إلاّ إن الحركة التصحيحية الخروتشيفية أبت عليه هذا الشرف ونقلت جثمانه من الضريح ودفنته في الأرض خارجاً. واكتفت بوضع شاهد عليه نصت فيه ما يلي: «ستالين ١٨٧٩ ـ ١٩٥٣».

وفي الساحة الحمراء تجرى الاستعراضات الرسمية والشعبية في المناسبات الكبرى، تخترقها القوات المسلحة، والآليات الحربية العصرية، والصواريخ عابرات القارات، ثم الفرق العمالية والطلابية والرياضية، وهي تقدم استعراضات فنية جماهيرية، ملوحة بالأعلام من كل شكل ولون، بينما زعماء الحزب والدولة يقفون

على ضريح لينين وهم يحيون الجماهير بأيديهم باستمرار، ويتبادلون الإشارة والملاحظات فيما يشاهدون.

وكانت هذه المهرجانات تستهل، في أيام الدراسة هناك، بأن يخترق الساحة الحمراء المارشال «سيميون بوديوني»، صاحب الشأن الكبير وقائد الفرسان الحمر إبان الحرب الأهلية، ممتطياً جواده الضامر، وهو يسند سيفه إلى كتفه، ويصيح بأعلى صوته مفتتحاً العرض الكبير. ثم تتدفق الجماهير بانتظام تام، أربعة فأربعة، وهي تهتف بشتى الشعارات.

وقد مارس هذه العادة أيضاً المارشال «كليمنتي فوروشيلوف»، صاحب الجواد الأبيض، والأناقة العسكرية.

إلى المصح في القرم: أصبت بوعكة صحية في صيف سنة ١٩٢٨، فحولت إلى عيادة الجامعة. وبعد أن أجرى الطبيب الفحوصات اللازمة، أفادني أنني تعرضت لبرد شديد، وأصبت بالتهاب في مجاري التنفس، المعروف بـ «البرونشيت»، ولا بد من إرسالي إلى مصح في شبه جزيرة القرم، بقصد الاستشفاء والراحة.. ووضع تقريره الطبي، وأرفقه بطلب إعداد «بوتيوفكا»، أي معاملة سفر، إلى الجنوب السوفياتي.

وطبيب الجامعة هذا رجل مسن ومرح، لم يشأ أن يترك الفرصة تمر دون ممازحة، فقال لي بعد أن تعرف إلى جنسيتي العربية: «وهكذا تقفزون من الصحراء إلى الاشتراكية دفعة واحدة؟!..»

قلت: «لقد أتيت من بلاد لها فضل كبير في حقل الطب الذي تخدمه أنت.. ألم تسمع بجابر بن حيّان، وأبي بكر محمد الرازي، وأبي نصر محمد الفارابي، والرئيس أبي علي ابن سينا، وغيرهم من علماء الكيمياء والطب عند العرب؟»..

قال: هذا موضوع آخر.. المهم أن الصحراء والاشتراكية لا تجتمعان، لأن الاشتراكية هي ثمرة التطور الصناعي وليست ثمرة تطور الفقر!..

قلت: وكيف سارت في ركابكم شعوب الأوزبيك، والقوقاس، والمغول، والقرغيز، والتر؟!..

فربت على كتفي مبتسماً وقال: في سؤالك هذا جواب على سؤالي.. وحملني التقرير الطبي، والتوصية بـ «البوتيوفكا» إلى شبه جزيرة القرم، وعيّن لي مصحاً في بلدة «سيميز» لملاءمة مناخها لحالتي الصحية.

وفي العشرين من شهر حزيران/يونيو سنة ١٩٢٨، أخذت مكاني في القطار من موسكو إلى شبه جزيرة القرم (مساحتها من الشمال إلى الجنوب ٢٠٠ كلم،

ومن الغرب إلى الشرق ٣٢٥ كلم)*، إلى أن بلغنا مضيق «بريكوب» الذي يصل الجزيرة بالقارة. ثم انتقلنا إلى سيارة سياحية كبيرة لتتوجه بنا إلى الزاوية الجنوبية من شبه الجزيرة، فتكشفت لنا للتو من علٍ مناظر خلاّبة تطل على البحر الأسود. ثم اتخذت طريقاً ينتصف الجزيرة إلى أن بلغت مدينة «سمفروبول»، ومنها إلى «يالطا»، وهي المركز الذي يتوزع منه طلاب المصحات المنتشرة بكثرة على شواطئ الزاوية الجنوبية من القرم.

حللت في مصح «سيماشكو» في سيمييز.. مناخها ممتاز، غنية في خضارها وفاكهتها، شواطئها رائعة تجذب إليها آلاف المرضى والمصطافين.. ويطل على هذه البلدة جبل «القطة»، فهو يشبه قطة جاثمة، وإلى اليمين منه سلسلة جبال يبلغ ارتفاعها ١٢٠٠ متر، تغطيها أشجار الصنوبر، كما تمتد الكروم على سفوحها، وتتخللها متنزهات في غاية الجمال والترتيب.

وقد أثارت طبيعة هذه البلدة أحاسيس الكاتب الروسي الكبير ليف تولستوي، الذي زارها سنة ١٨٨٥، وكتب إلى زوجته يقول:

«إنني جد مرتاح هنا.. عزلة، وجمال، وعظمة»!..

ويقضي نزلاء المصحات في «سيمييز» أوقاتهم طبقاً للأنظمة المعمول بها، ولتوجيهات الأطباء، إذا كان النزيل جاء يطلب العلاج والاستشفاء.. وتتخلل فترات الصباح والعصر رحلات إلى المناطق والمصحات المجاورة، منها الصعود إلى جبل «آي بيتري»، وارتفاعه ١٢٣٣ متراً.

وهناك بلدة «الوبكا»، وفيها قصر الحاكم العام للجزيرة في العهد القيصري، الجنرال «فورونتسوف». ويعتبر القصر من أجمل قصور العالم قاطبة، استغرق بناؤه ١٨ سنة، أي من سنة ١٨٢٨ حتى سنة ١٨٤٦. حلّ في هذا القصر الرسام الروسي الشهير «إيفازوفسكي»، ومكسيم غوركي، وقد ذكره في كتابه «روائع القرم»، وشاعر الثورة فلاديمير ماياكوفسكي، وقد ذكره في قصيدته «القرم».

وفي حديقة «الوبكا» ثلاث شجرات ضخمات، واحدة أرزة لبنانية، وثانية صنوبرة مكسيكية، وثالثة صنوبرة إيطالية.

أمّا «يالطا» فهي بلدة غارقة في أشجار السرو، والأقاصيا، والغار، والمانوليا.. يقوم فيها ١٣٠ مصحاً، وتجتذب كل سنة حوالي ٣٠٠ ألف نسمة، استقر فيها القاص الروسي الكبير أنطون تشيخوف[٣٧] سنة ١٨٩٨، وشيّد فيها بيتاً يطل على البحر الأسود، وقد ألّف فيه الكثير من أعماله الأدبية، وحُوّل فيما

* كذا في الأصل، والمعروف أن مساحة شبه جزيرة القرم هي ٢٥,٩٠٠ كلم^2. (المحرر)

بعد إلى متحف يضم كل شيء من آثاره في القرم. وبات محط أنظار كل من يؤم القرم من زوار ومصطافين.

ونصبت الحكومة السوفياتية في ساحة «يالطا» مسلّة كتب عليها بماء الذهب: «إن بيوت الاصطياف الرائعة هذه، والفنادق التي كانت في يوم من الأيام ملكاً للقياصرة والأمراء العظام، يجب أن يفاد منها كمراكز للاستشفاء والراحة للعمال والفلاحين.»

وذاع اسم «يالطا» في نهاية الحرب العالمية الثانية، حيث اجتمع فيها كل من روزفلت وتشرشل وستالين، من ٤ حتى ١٢ شباط/فبراير سنة ١٩٤٥، ورسموا فيها خطط مواصلة الحرب والسلم، ووضعوا «صيغة يالطا» الخاصة بصلاحية «مجلس الأمن الدولي».

وبلدة «غورزوف» هي مصح جميل أيضاً. زارها الشاعر الروسي الكبير ألكسندر بوشكين في ربيع سنة ١٨٢١، وحلّ فيها ضيفاً على أسرة الجنرال رايفسكي، بطل الحرب الوطنية ضد نابليون سنة ١٨١٢، ووضع فيها روايتيه الشعريتين «الأسير القوقازي» و«نافورة باغشي سراي».

وبلدة «فيودوسيا» الشهيرة بشواطئها الذهبية التي تمتد ١٥ كلم، والتي وصفها تولستوي بقوله: «بحرها رائع أزرق ورقيق بوسع المرء أن يعيش عند شواطئها ألف سنة دون ملل.»

عرفها التجار الإغريق في القرن السادس قبل الميلاد، وأسسوا فيها مستعمرة حملت اسمها، ثم حلّ فيها التتر وأطلقوا عليها اسم «كفّا»، وابتاعها منهم فيما بعد تجار «جنوة»، واتخذوها قاعدة للتجارة بالبضائع والرقيق، ثم حلّ فيها الأتراك في القرن الخامس عشر وجعلوها قاعدة لهم في الجزيرة، يعملون مع السكان التتر يداً بيد.. وفي القرن الثامن عشر احتلها الروس، وأعادوا إليها اسمها القديم، أي «فيودوسيا»، التي تعني باليونانية «عطاء الله».

وفي هذه البلدة متحف إيفازوفسكي، ويضم ٢٢٩٠ لوحة لرسامين روس وعالميين، منها ٣٨٩ لوحة للرسام الروسي إيفازوفسكي.. وفيها مكتبة تضم أربعة آلاف مجلد.

وفي الناحية الغربية من ساحل القرم بلدة «يوباتوريا»، وتعتبر أفضل مصح للأطفال، أو لمن يشكو من مرض السل العظمي، وأمراض المفاصل والشرايين، والجهاز العصبي.

من ميزات هذه البلدة أن شمسها دائمة، وهواءها نقي، وذرات مياه بحرها تلطف مناخها باستمرار، ومياه شواطئها ضحلة، سريعة الدفء، يسبح فيها الأطفال

دون أن يتعرضوا للأخطار. وهي خالية من التيارات البحرية، ولا أنهر عذبة تصب فيها فتحافظ بذلك على ملوحتها المفيدة للأجسام، ثم لا فبارك فيها ولا مصانع فيظل جوها بعيداً عن التلوث نقياً.

وقد اشتهر هذا المصح منذ سنة ١٨٨٦، وغدا منذ مطلع القرن العشرين المكان المفضل لاجتماع نبلاء الروس وأثريائهم.

وفي شبه جزيرة القرم أماكن عديدة زرناها على عجل، منها العاصمة «سمفروبول»، واسمها التتري «إكميتشيك» (Ekmetchik)، و«سيفاستوبول»، واسمها التتري «آخيار» (Achyar)، وهي ميناء القرم الكبير، والقاعدة البحرية السوفياتية المهمة على البحر الأسود.

وقد ضُمت سيفاستوبول إلى روسيا سنة ١٧٨٣. ولعبت دوراً كبيراً في حرب القرم (التحالف التركي ـ الإنكليزي ـ الفرنسي ضد روسيا في سني ١٨٥٤ ـ ١٨٥٦).. وفي الحرب العالمية الثانية عندما احتل النازيون شبه جزيرة القرم في ربيع سنة ١٩٤٢، ومقاومة الروس لهذا الاحتلال والتخلص منه.

كانت القرم جمهورية تترية ذات حكم ذاتي. غير أن السكان التتر وقعوا تحت تأثير الدعاية النازية في الحرب العالمية الثانية، بصدد استقلال القرم عن الاتحاد السوفياتي، الأمر الذي أرغم ستالين والحزب والدولة في سنة ١٩٤٦ على إلغاء تلك الجمهورية وإلحاقها بجمهورية روسيا السوفياتية.

عدتُ من القرم إلى موسكو، وقد شفيت من التهاب «البرونشيت»، ومتعت النفس والنظر من طبيعة تلك الديار الخلابة، كما تزودت ببعض المعلومات التاريخية والفنية عنها.. وتابعت الدراسة في الجامعة في جو رتيب.

نهرو وبوخارين: قيل لنا في يوم من مطلع سنة ١٩٢٩ إن خليفة غاندي وزعيم المؤتمر الوطني الهندي، شري نهرو*، سيزور موسكو. وطلب منا أن نخرج لاستقباله في محطة السكة الحديدية، فارتدينا ألبستنا الزاهية وكنا خليطاً من مختلف الشعوب الشرقية.

وحين توقف القطار عزفت الفرقة الموسيقية النشيد الدولي وتقدّم بوخارين، وهو في لباسه الجلدي الأسود، نيابة عن الحكومة السوفياتية والحزب (كان لا يزال عضواً في المكتب السياسي للجنة المركزية للحزب)، ومد يده ليصافح نهرو، إلاّ إن الزعيم الهندي قابله بابتسامة صفراء، وأبى مصافحته، فاضطرب بوخارين

* كذا في الأصل، والمقصود جواهر لال نهرو. (المحرر)

لهذه الإهانة، وأرجع يده ببطء وأدخلها في جيبه.

لم يفقه أحد وقتئذ السبب الذي حمل نهرو على إهانة بوخارين على هذا النحو، وظل مسلكه سراً مغلقاً.. غير أنني أعتقد أن نهرو فعل ما فعل للأسباب التالية: أولاً، لأن استقباله طبع بالطابع «الرفاقي»، وهو لا يريد أن يظهر بمظهر «التابع السياسي»؛ ثانياً، لعدم اتباع البروتوكول الرسمي في استقباله، الذي يستلزم حضور مدنيين من وزارة الخارجية؛ ثالثاً، لعدم حضور ستالين بذاته ليستقبل نهرو بوصفه الزعيم الثاني للأمة الهندية.

واستقل نهرو السيارة مع بعض الطلاب الهنود إلى فندق «متروبول». أمّا بوخارين فقد دعانا لالتقاط صورة تذكارية معه. ولمّا وزعت علينا عمدنا إلى تمزيقها بعد أن تواترت الأحاديث عن معارضته لسياسة ستالين، وسنأتي على ذكرها في فصل آخر.

الخطيب البرونزي: في سنة ١٩٢٩ طوقت قطع من الأسطول البريطاني مدينة الإسكندرية بأمر من حكومة رمزي ماكدونالد[٣٨] العمالية الثانية، وفي عهد حكومة مصطفى النحاس باشا.[٣٩] فهاجت الأوساط السوفياتية لهذا العمل الاستعماري، وراح الناس، بإيعاز من سلطات الدولة والحزب، يعقدون الاجتماعات ويقيمون التظاهرات احتجاجاً على «بربرية الاشتراكيين»، بوصفهم عملاء للاستعمار والرأسمالية. وكان من البديهي أن يقوم طلاب جامعة الشعوب الشرقية بتظاهرات صاخبة في «ساحة تفرسكوي»، ورأى الطلاب أن يرفعوا عربياً ليخطب فيهم، وإذا بهم يختارونني خطيباً، فرفعوني على الأكتاف، واندفعت أهتف بحماسة بسقوط الاستعمار وبتحية الشعب المصري و«الوفد المصري».

وفي اليوم التالي نشرت صحيفة «الإزفستيا» خبراً وصفت فيه التظاهرة وقالت: «وفجأة ارتفع على الأكتاف شاب عربي، برونزي البشرة، أسود الشعر والعينين، وأثار حماسة المتظاهرين بعبارات عربية قوية النبرات والمقاطع، ويحتج فيها على حكومة ماكدونالد* العمالية لقصفها الإسكندرية بالقنابل»!

---

* لقد سبق لرمزي ماكدونالد هذا أن أسدى في شبابه معروفاً كبيراً إلى لينين.. إذ إن الاشتراكيين بعد فشل ثورة ١٩٠٥ وملاحقة قوات الأمن الروسي لهم، قرروا عقد المؤتمر الخامس لحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي في بلد أوروبي. فاجتمعوا في لندن سنة ١٩٠٧، ولمّا كانوا بحاجة ماسة إلى العون المادي، فقد انبرى رمزي ماكدونالد، زعيم الحزب الاشتراكي البريطاني، إلى نجدة الضيوف الروس، فأقنع جماعة تدين بالاشتراكية المسيحية من أتباع «الكنيسة الأخوية» القائمة في «وايت شابل» في شرق لندن، بأن يفسحوا المجال للروس لعقد مؤتمرهم في هذه الكنيسة لمدة ثلاثة أيام فقط. غير أن =

الغراف زبلين: حدث في تلك الأيام (سنة ١٩٢٩) أن مر المنطاد الألماني «غراف زبلين»، أثناء رحلته العالمية، من فوق موسكو. فاحتشد الناس في الساحات والشوارع وهم يحدقون النظر في هذا العملاق الطائر، يلوحون بالأيدي والقبعات والمناديل. وفي اليوم التالي ظهرت في صحيفة «البرافدا» صورة لروسي يتطلع إلى المنطاد بحسرة ويقول بالروسية: «خوروشا ماشا دا نه ناشا» (Chorosha Masha Da Na Nasha)، أي أن «ماشا فتاة حلوة لكنها ليست من نصيبنا»!..

وتتولى الصحيفة الرد على ذلك بعبارة ملائمة ومطمئنة تقول بالروسية: «ماشا دا بوديت ناشا» (Masha Da Budet Nasha)، أي أن «ماشا ستكون من نصيبنا»..

والقصد من هذا الحوار أن بوسع الروس أيضاً أن يصنعوا منطاداً من هذا الطراز.

الطائرة العملاقة: لم يصنع الروس منطاداً، غير أنهم شرعوا في سنة ١٩٢٩ في صنع طائرة عملاقة بثمانية محركات، مؤلفة من طابقين، فيها قاعة استقبال فخمة، ومقاعد وثيرة.. وفي سنة ١٩٣١، تم إنجاز هذه الطائرة المسماة «مكسيم غوركي»، لمناسبة مرور أربعين سنة على حياته الأدبية، وارتفعت في سماء موسكو، وهي تحمل نخبة من الشخصيات المسؤولة، كما حملت فرقة موسيقية تعزف «المارشات» الحماسية والألحان الراقصة.

وبينما كان هذا الاستعراض الجوي مستمراً، والناس من أسفل يسددون إليه الأنظار مبتهجين، حلق طيار شاب بطائرته الصغيرة في الجو، وأخذ يقوم بألعاب بهلوانية فوق الطائرة العملاقة، فاختل توازنه وصدمها، ونسفها ونسف نفسه معها!..

وكانت مأساة وطنية كبرى، وصبّت الصحف نقمتها على الطيار الشاب، ونعته بأشنع العبارات، مثل: «الطيار الولد»، و«البهلوان الجوي السفاح»، و«الوحش الطائر».

ولم يعاود الروس صنع مثل هذه الطائرة قطعاً.

= المندوبين الروس والبولونيين وغيرهم، وقد بلغ عددهم ٣٣٦ مندوباً، ظلوا في الكنيسة مدة ثلاثة أسابيع، والإنكليز يتوسلون إليهم بأن يخلوا الكنيسة، بعد أن حرموا من ممارسة العبادة طوال هذه المدة. ولم ينقذ الموقف إلاّ مكسيم غوركي، الذي حضر المؤتمر أيضاً، فجمع لزملائه بعض المال من الأصدقاء الإنكليز، كما توفق في اقتراض مبلغ ثلاثة آلاف جنيه استرليني من رجل إنكليزي صاحب مصنع للصابون في لندن، فتمكنوا بها من تدبير شؤونهم. والمعروف أن لينين قد أعاد هذا المبلغ إلى صاحبه بعد الثورة مع التحيات.

المتروبوليت والمتروبوليتان: أثير الحديث في ذلك الوقت عن تسيير قطار تحت الأرض في موسكو. فتحمس القوم للمشروع وهلّلوا له. واستهلت صحيفة «الإزفستيا» هذه الحماسة بنشرها صورتين في صدر صفحتها الأولى، تمثل إحداهما رئيس مطارنة ويلقب بالروسية «متروبوليتان». وعلقت على الصورتين بقولها: «انتقال البلاد من عهد إلى عهد»!..

ثم طور المشروع وتم افتتاح أول خط للمتروبوليتان على أنقاض المتروبوليت في ١٥ أيار/مايو سنة ١٩٣٥.. وتعتبر محطات المترو في موسكو اليوم من المناطق السياحية العصرية، إذ إن كل محطة منها شيدت من حجر المرمر والغرانيت المتعدد الألوان، وزينت بالرسوم الزيتية، والموزاييك، وفق تصاميم فنية يعبّر كل منها عن مراحل لها علاقة بالتاريخ الروسي والسوفياتي.

علب الكبريت: حدث في هذه السنة أن قلّت السيولة في أيدي الناس، ونشأت صعوبات جمة في وسائل النقل مثل الترام والباص. فإذا نَقَدْتَ قاطع التذاكر روبلاً ليحسم منه ثمن التذكرة، أعاد لك المتبقي علباً من الكبريت.. ويحق لك بالتالي أن تستقل الترام وتناول قاطع التذاكر ثلاث علب من الكبريت غير ناقصة وغير مستعملة!..

ولم تدم هذه المهزلة طويلاً..

حمّام النهر: ومن طرائف تلك الفترة أن نشرت مجلة «سميخاتش»، أي «المضحك»، الفكاهية، رسماً ينتقد الحالة في الحمّامات العامة. والرسم هذا يمثل رجلاً في فصل الشتاء، يحطم جليد النهر بمطرقة، ليفتح فيه فجوة توصله إلى مياه النهر، بقصد النزول منها والاغتسال. ويمر به صديق، فيسأله طالب الاغتسال: إلى أين أنت ذاهب يا غريشا؟

فيجيبه غريشا: إنني ذاهب إلى الحمّام العمومي لأغتسل..

فيقول له: وما لزوم الاغتسال في الحمّام، تعال واغطس في النهر من هذه الفجوة فمياهه أدفأ من مياه الحمّام!

ستالين والشعر الأوزبكي: لم يحظ زعيم في التاريخ بدرجة من التعظيم حتى «العبادة» مثلما حظي ستالين. ولم تُكَلْ عبارات المديح والثناء لإنسان مثلما كيلت ليوسف دجوغاشفيلي ستالين.

لقد تعرفتُ في الجامعة إلى طالب أوزبكي أطلعني على قصيدة نظمها شاعر

أوزبكي من «فرغانة»، يمجد فيها ستالين، وعنوانها «السعادة»، فاحتفظت بها وترجمتها، وهي تقول:

عندما الشمس على السهول تسطع
عندما الشمس تشتعل، تضحك وتلمع
عيناي تضحكان بسرور
والشمس تمنحني الحبور

بلادي سعيدة في شهر أيار
بلادي «فرغانة» في شهر أيار
جنائنها ملأى بالورود والأزهار
والعطر يفوح منها قوياً في شهر أيار

غصون الرمان تنحني بارتياح
بملء رئتي أستنشق عطرها الفواح
أهنئ البلاد بربيع رائق
بتحية تنحني غصون الحدائق

بين مزارع القطن أسير
بيدي ألمس نتاجها الوفير
أصرخ، وبصوت عال أقول
«إنني أعطي البلاد كل قطني»!..

المجد لك يا بلادي السعيدة
المرح والضياء لك يا بلادي العتيدة
المجد لاتحاد الشعوب

والمجد لك أيها الزعيم المحبوب..
أنت بلسم عزاء الفقراء يا ستالين!..
الكلمات تعجز عن مديحك يا ستالين
أنت حليف الشعب يا ستالين

أنت عدو الأعداء يا ستالين..

بالمياه أنت أخصبت القفار
بالسعادة الجديدة أحييت القفار
ربيعاً حراً قدمت للقفار
قيود الظلم حطمت بحديد ونارا..

أنت شمسنا يا فارس السعادة!..
بالطول والعرض بعثت السعادة
ستالين، أنت باعث النور والسعادة
أنت لبلاد السوفيات دنيا سعادة..

حبينا أنت أيها الأب ستالين
يا صانع الدستور يا ستالين
لك منا ألف تحية يا ستالين
من قلوب مفعمة بالفرح والامتنان يا ستالين!..

وداعاً يا موسكو: أقامت الفرقة العربية حفلة وداع لمناسبة نهاية سنة تخرج الدفعة الأولى من الطلاب العرب. وقد تحدث في هذه الحفلة الطالب التونسي علي الحمامي (وهو من الجناح اليساري للحزب الدستوري التونسي)، والطالب الجزائري محمد بوصفير من بلدة سيدي بلعباس، والطالب المصري عزيز، وقد أتيت على ذكره، والطالب اليهودي المصري «زانبرغ»، وقد غدا أستاذاً في الجامعة لتضلّعه في العلوم الماركسية. تحدثوا كلهم عن السنين الخمس التي قضوها في الجامعة، بكل ما تضمنته من طرائف ومزعجات، وزودوا البعثات الطلابية الجديدة الوافدة من سورية وفلسطين ومصر بما تحتاج إليه من نصائح وتوجيهات.

وفي يوم من شهر شباط/فبراير سنة ١٩٢٩، قدمت أطروحتي الجامعية وموضوعها «الحركة الوطنية العربية من الانقلاب الاتحادي حتى عهد الكتلة الوطنية»، فحازت القبول، وقد أثبتُّها في آخر هذا الكتاب.

الفصل الثاني

٤ ـ العودة إلى الوطن

أقلتني الباخرة من ميناء أوديسا إلى إستنبول، وفي حوزتي جواز سفري الحقيقي الذي لا يحمل أختاماً تشير إلى دخولي إلى الاتحاد السوفياتي أو الخروج منه. وكان عليّ أن أتدبر أمري في إستنبول لأثبت أنني كنت فيها خلال السنوات التي قضيتها في موسكو (١٩٢٥ ـ ١٩٢٩). وكانت هذه المهمة عسيرة فعلاً، وأنا لا أعرف أحداً في العاصمة التركية. وذات يوم، وبينما كنت أسير بالقرب من «كوبري غلطه»، التقيت بشاب يوناني كان يطلب العلم في موسكو، فابتسم لي وأشار عليّ باللحاق به، فقادني إلى مقهى في حي «تقسيم»، وهناك عرف مني بأنني عائد إلى الوطن، وأن عليّ أن أثبت أنني أقمت في إستنبول طوال مدة الغياب، وأن أحصل على سمة خروج تركية رسمية.. فقال لي إن هذه العملية تتطلب وقتاً، واقترح عليّ أن أترك فندق «جيروزاليم» الذي أنزل فيه، وأن أنتقل إلى بيت أحد الرفاق اليونانيين الذي كان يطلب العلم في موسكو أيضاً.

حللت في بيت الرفيق اليوناني، أنفق فيه أقل مما يمكن أن أنفقه في الفندق أو المطعم، وأنا محاط برعاية أهله الطيبين.. وبعد أسبوعين على وجه التقريب، قال لي مضيفي أنه رتب الأمر مع أحد السماسرة وعليّ أن أرافقه إلى دوائر الأمن التركية، للحصول على تأشيرة الإقامة الطويلة في إستنبول، وتأشيرة الخروج منها..

سرت برفقة السمسار لإنجاز هذه المهمة، وكان طوال الطريق يسمعني عبارة بالروسية لا يعرف غيرها وهي «في رابوتشي نارود»؟.. أي أنت من الشعب العامل؟.. فأقول له «دا دا رابوتشي نارود».. أي نعم أنا من الشعب العامل.. ولمّا اقتربنا من دوائر الأمن التركية أوصاني بأن أجيب الموظف التركي على كل سؤال يطرح عليّ بـ «أوت أفندم»، أي أجل يا سيدي.

وهكذا كان. دلفت مع السمسار إلى غرفة موظف تركي كبير، وهو رجل متجسم، أبيض البشرة، طويل القامة، فنظر إليّ وإلى الصورة المثبتة على جواز سفري، وطرح عليّ أسئلة شكلية، وأنا أجيبه بعبارة «أوت أفندم».. فابتسم وصدّق على الجواز بالإقامة والسفر، وخرجت من عنده وأنا أكاد أطير من الفرح. والواقع

أنه لولا الرفيق اليوناني لصادفت متاعب لا حصر لها.

في اليوم التالي ابتعت تذكرة سفر بالدرجة الثالثة في باخرة فرنسية متوجهة إلى يافا.. فوصلناها بعد أسبوع، وتوقفت الباخرة في عرض البحر، إذ لم يكن للمدينة ميناء تقف عنده البواخر. وأقبل البحارة بسراويلهم الفضفاضة، وبقواربهم الواسعة، لينقلوا الركاب إلى الرصيف، وانتقلت معهم. وما إن وضعت قدمي على رصيف الجمرك حتى وقع نظري على مدير البوليس الإنكليزي المستر «ركس»، وكنت أعرفه وهو لا يعرفني. ولمّا كان جواز سفري لا غبار عليه من حيث الإقامة في الخارج، والعودة إلى الوطن، فقد صدّقت إدارة الجوازات في الميناء على جواز سفري بالدخول الرسمي، وانطلقت إلى يافا أبحث عن بيت أحد أقربائي، والاتصال باللجنة المحلية للحزب.. وبعد أيام كنت في طريقي إلى القدس لحضور اجتماع اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني.

القيادة اليهودية للحزب: كانت زعامة الحزب الشيوعي الفلسطيني بيد عدد من الشيوعيين اليهود، وقد جاء معظمهم من روسيا وبولونيا ودول أوروبا، وهم:

١) **السكرتير العام للحزب..** وله أسماء عديدة، أربكت كل من كتب عن الحزب الشيوعي الفلسطيني، وجعلته يتصور أنها أسماء لعدد من الزعماء الشيوعيين اليهود، فأسماؤه هي: «إلياهو تيبر»؛ «دِزْ ألتر ـ الاختيار»؛ «أبو زيام»؛ «حيدر»؛ «شامي»..

ولد في فيلنا سنة ١٨٦٩. تأثر في شبابه بالأفكار الاشتراكية ثم انضم إلى حزب «بوعالي تسيون» (عمال صهيون)، الذي تأسس في تلك الديار في مطلع القرن العشرين، وغدا أحد زعمائه.. ولمّا كان هذا الحزب يمزج بين الماركسية والصهيونية، فقد انتقل إلياهو تيبر إلى فلسطين حوالي سنة ١٩٢٢، وسرعان ما تخلى عن حزب بوعالي تسيون بتأثير من الواقع العربي في فلسطين، والتحق بالحركة الشيوعية العالمية.

عمل على تأسيس «الحزب الشيوعي لفلسطين» ـ أي أنه غير محلي ـ وطلب الانضمام إلى مجموعة الأحزاب الشيوعية العالمية المعروفة باسم «الكومنترن»، فقبل طلبه شريطة أن يفسح المجال للعنصر العربي للاندماج في الحركة. وسمح له بأن يطلق على الحزب اسم «الحزب الشيوعي الفلسطيني» ـ أي أنه أصبح محلياً.

وفي أيامه شُرع بتطبيق شعار «تعريب» الحزب، أي إسناد بعض المراكز الحساسة فيه إلى الشيوعيين العرب.

ومن نشاطاته أنه جاء إلى لبنان سنة ١٩٢٤ واجتمع بيوسف يزبك وفؤاد الشمالي وغيرهما، وعمل على تطعيم الحركة الاشتراكية اللبنانية الرومانسية، ومنطلقها زحلة وجريدة «الصحافي التائه»، بالأفكار الشيوعية الثورية، ومنطلقها حيفا، إلى أن اعتقلته سلطات الانتداب الفرنسي، وأبعدته عن لبنان.

وفي سنة ١٩٣٦، استدعي إلياهو تيبر إلى موسكو للتحقيق معه في «انحرافات صهيونية»، وزُجّ في سجن «لوبيانكا»، الخاص بالسياسيين، بعض الوقت، ثم أفرج عنه، واختفى من الحلبة السياسية وهو على أبواب السبعين من عمره.

٢) «جوزف برغر برزلاي».. صحافي نمساوي الأصل، كان الساعد الأيمن لتيبر، ويقوم مقامه أثناء غيابه، تولى في الحزب العلاقات الخارجية، والمراسلات الرسمية، ونشر الأبحاث والمقالات عن القضايا العربية واليهودية في صحيفة «المراسلات الدولية» التي تصدر في برلين، وتقديم التقارير الحزبية والسياسية والمالية إلى مؤسسة «الكومنترن» في موسكو.

ومن نشاطاته أنه سبق إلياهو تيبر، أو أبو زيام، في زيارة لبنان سنة ١٩٢٤، ومهّد لزعيمه في تنظيم الخلايا الأولى للحركة الشيوعية في لبنان وسورية، كما لقّن أعضاء هذه الخلايا نشيد الإنترناسيونال بالفرنسية، وشجع يوسف يزبك على ترجمته.

وفي سنة ١٩٣٦، استدعي جوزف برزلاي إلى موسكو للتحقيق معه في وضع الحزب الشيوعي الفلسطيني. وما إن حل في العاصمة السوفياتية حتى اعتقل بتهمة مفادها أنه أثناء مروره ببرلين اجتمع بعناصر نازية ألمانية، وأشيع وقتئذ أنه حوكم وأعدم رمياً بالرصاص، غير أنه عاد فظهر في إسرائيل وقد بلغ الثمانين من عمره، وهو منكب على دراسة كتاب «المشنا» الخاص بالتشريع الإسرائيلي، والتلمود الأورشليمي.

٣) «نخمان ليتفينسكي».. من مواليد روسيا، جاء إلى فلسطين مع المهاجرين الأُول، تزوج من ابنة صاحب حمّام في حيفا واسمها «أنيوتا»، وهي روسية المولد أيضاً، ذكية وقديرة.

انتسب نخمان وزوجته إلى الحزب، وشغل مركزاً في اللجنة المركزية. وهو يتحدث العربية بطلاقة، ويتقن اللغات الروسية والفرنسية واليديشية (أي اليهودية الألمانية) والعبرية. أوفده الحزب إلى لبنان في مطلع الثلاثينات، إلى أن اعتقل

وأبعد مع زوجته إلى الإسكندرون، ثم عاد مع زوجته إلى بيروت سنة ١٩٣٣، وأقاما في حي الصنائع ثم سافرا نهائياً إلى فرنسا وأقاما في باريس، حيث كان نخمان يتعاون مع عصبة مقاومة الاستعمار، وحيث أصدر كتاباً بالفرنسية في «المسألة الشرقية» حلل فيه تاريخ الاستعمار في الشرق، ثم اختفت آثاره وآثار زوجته إبان الحرب العالمية الثانية.

٤) «دافيد ليختينسكي».. جاء إلى فلسطين في أوائل العشرينات، ثم أوفده الحزب إلى مصر في ٣١ آب/أغسطس سنة ١٩٣٠، ليسهم في تجديد النشاط الشيوعي، بعد تحطيم الخلية الأولى سنة ١٩٢٤ التي كان يتزعمها «روزنتال ـ أنطون مارون»؛ الأول نفي مع غيره من الأجانب إلى الخارج، والثاني أضرب عن الطعام في سجن الإسكندرية حتى الموت.

حل ليختينسكي في القاهرة منتحلاً صفة تلميذ يدرس التلمود، ثم اكتشف أمره وأبعد عن مصر في ١١ تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩٣٠، مع بول ديتريخ وميلا نورمبرغ وساره بوزنانسكي.. وبعد عودته إلى فلسطين ضم إلى اللجنة المركزية للحزب، وكان يدير شؤون الحزب في منطقة تل أبيب ـ يافا.

٥) «ماير كوبرمان».. تولى شؤون الحزب في منطقة حيفا، مثقف، عصبي المزاج، يتحدث بالعربية العامية، انضم إلى اللجنة المركزية سنة ١٩٢٩.

٦) «يانكل بيرمان».. كان في الثلاثينات رئيس لجنة الحزب في تل أبيب تارة وفي حيفا تارة أخرى، ثم ارتقى إلى اللجنة المركزية. حضر معظم اجتماعات الحزب ومؤتمراته، ثم سافر قبيل الحرب العالمية الثانية إلى بولونيا، وعُلم فيما بعد أنه شغل فيها منصباً هاماً.

٧) «ساره بوزنانسكي».. امرأة قديرة، واسعة الاطلاع، أوفدها الحزب إلى مصر مع ليختينسكي. عملت ممرضة في مستشفى الأطفال في حارة اليهود في القاهرة، تحت اسم «مدموازيل أرليخ»، إلى أن اكتشف أمرها وأبعدت إلى فلسطين في ١١/١٠/١٩٣٠.

٨) «دافيد أفيغدور».. الملقب بـ «المفتي»، قصير القامة، قليل الكلام. كان مقرباً من اللجنة المركزية ويتولى إدارة المطبعة السرية في القدس، في اللغتين العبرية والعربية، والمسؤول عن طبع النشرات والمناشير وتأمين شحنها إلى مختلف المناطق.

٩) «حاييم دافيدوفتش».. انتخب عضواً في اللجنة المركزية للشبيبة الشيوعية في مؤتمر حيفا سنة ١٩٢٤، ثم أمسى عضواً في اللجنة المحلية للحزب في القدس في الثلاثينات.. اعتقل غير مرة، ثم سافر إلى الاتحاد السوفياتي سنة ١٩٣٨، وأسهم في الدفاع عن موسكو إبان الغزو النازي وقتل في المعركة.

١٠) «موشيه مزراحي» أو «موسى الشرقي».. فلسطيني المولد، انتخب عضواً في اللجنة المركزية للشبيبة في مؤتمر حيفا سنة ١٩٢٤، ثم كان عضواً في اللجنة المحلية للحزب في القدس. اعتقل غير مرة، ولم تستطع السلطات البريطانية إبعاده بوصفه فلسطينياً.. وفي سنة ١٩٣٦ سافر إلى موسكو، وسعى لإطلاق سراح «إلياهو تيبر» من السجن، ثم انقطعت أخباره.

١١) «ستيبان».. شاب طويل القامة، أبيض البشرة، روسي الهيئة، كان حلقة اتصال بين اللجنة المركزية ورؤساء اللجان المحلية، ويتولى جلب البريد الوارد على عناوين خاصة وإرساله إلى الخارج، وكان «تيبر» شديد الثقة به.

القيادة العربية:

١) «محمود المغربي».. عرف بالمغربي لأنه يتحدر من أصل جزائري، ولذا كان يعرف أحياناً باسم محمود الجزائري.. وهو عامل بناء في «منشية» يافا، كان يملك بيتاً صغيراً في تلك المحلة يقيم فيه مع شقيقه طاهر، ثم باعه في ساعة من ضيق اليد.

انتسب إلى الحزب سنة ١٩٢٨ ثم سافر إلى موسكو ليلتحق بجامعة الشعوب الشرقية (من طلاب الدفعة الثالثة). لم ينه دروسه فقطعها وتوجه في ربيع سنة ١٩٣٠ إلى لبنان مباشرة، حيث عرف في أوساط الحزب باسم «أبو داود». ثم اعتقلته السلطات الفرنسية في أواخر تلك السنة وأبعدته إلى فلسطين، ومن ثم انضم إلى اللجنة المركزية.

وفي شهر كانون الأول/ديسمبر سنة ١٩٣٠ اعتقل (كنا معاً) وحكم عليه بالسجن لمدة سنتين. وبعد قضاء مدة الحكم هذه ظل يطالب إلى أن مكّنه الحزب من السفر إلى موسكو ثانية، ليعرف باسم «الرفيق سليم». وظل فيها في تصرف «الكومنترن» حتى سنة ١٩٣٧، ثم أوفد إلى باريس ليكون في تصرف الحزب الشيوعي الفرنسي (بوصفه جزائرياً). وهنا فاجأه الاحتلال النازي، فأسرع إلى الاختفاء في أوساط العمال الجزائريين حتى نهاية الحرب سنة ١٩٤٥.

في سنة ١٩٤٦ تم نقله إلى «براغ» ليعمل في المركز العربي برفقة عدد من الشيوعيين العرب اللاجئين إلى العاصمة التشيكية.. وأخيراً استقر في شمال إفريقيا حتى أيامنا هذه.

٢) «رضوان الحلو».. عامل بناء من «منشية» يافا.. انتسب إلى الحزب سنة ١٩٣٥، وسافر إلى موسكو في طلب العلم سنة ١٩٣٧. وحدث له أثناء انتقاله بالقطار من أوديسا إلى العاصمة السوفياتية أن أراد أحد الفلاحين الروس الذين كانوا معه في عربة الدرجة الثالثة أن يشعل سيجارة، فتطوع رضوان وأنزل حقيبته وفتحها أمام أعين الفلاحين الذين بهرتهم مصنوعات البلاد البورجوازية، وأخرج منها قداحة أنيقة وأشعل بها سيجارة الفلاح الروسي، ثم أغلق الحقيبة وأعادها إلى الرف فوق رأسه.. وغط المسافرون في نوم عميق، في جو عبقت فيه روائح الفودكا والسليودكا والماخوركا، أي الخمرة، والسردين، والتبغ الفلاحي.. وفي الصباح تفقد رضوان حقيبته فلم يجدها، فالفلاح نزل من القطار في محطة قروية وهو يتأبط حقيبة فيها «الطائف رأسمالية»، أمّا رضوان فراح يصرخ بالعربية: «أين الحقيبة؟».. والفلاحون يضحكون ويقولون بالروسية: «نيتشيفو توفاريش» (أي لا بأس أيها الرفيق). وجاء إلى موسكو شاكياً صاخباً وهو يتساءل كيف يمكن أن تحدث سرقة في دولة اشتراكية؟!

عاد رضوان إلى فلسطين سنة ١٩٣٩، ماراً ببيروت، وانضم إلى اللجنة المركزية للحزب، ثم تولى رئاسة اتحاد العمال في يافا، إضافة إلى عمله الحزبي.. وبعد كارثة سنة ١٩٤٨ انتقل إلى أريحا حيث يعمل في حقل الزراعة الناجحة حتى يومنا هذا.

٣) «حسن ملك».. لبناني طرابلسي، «استعاره» الحزب الفلسطيني بعد اعتقال زعمائه العرب، وانضم إلى اللجنة المركزية سنة ١٩٣١، ثم اعتقل وأرسل إلى سجن عكا، حيث قضى ستة أشهر بتهمة الدخول سراً إلى فلسطين، والاشتباه بانتمائه إلى جمعية غير قانونية، وأعيد إلى لبنان. وهو اليوم منصرف إلى العمل في الحقل التجاري.

٤) «أحمد خلف».. من قرية «بيتونيا» في فلسطين، عامل زراعي، انتسب إلى الحزب سنة ١٩٢٧، وأرسل إلى موسكو ليتلقى العلم فيها، ثم عاد إلى فلسطين سنة ١٩٣٠. اعتقل سنة ١٩٣١، وحين أفرج عنه توجه إلى موسكو ثانية بقصد تكميل تعليمه. وانقطعت أخباره منذ سني الحرب العالمية الثانية، والمعتقد

أنه استقر فيها.

٥) «علي عبد الخالق».. عامل زراعي، أرسله الحزب مع زميله خلف إلى موسكو، فلم يبق فيها طويلاً، وعاد إلى فلسطين سنة ١٩٣٠ حيث عمل في حقل البناء، إلى أن اعتقل، ثم سمح له سنة ١٩٣٦ بترك السجن والسفر إلى إسبانيا، حيث اشترك في الحرب الأهلية وقتل فيها.

٦) «طاهر المغربي».. شقيق محمود المغربي. عامل بناء، سافر إلى موسكو سنة ١٩٣٦، وظل فيها خلال سني الحرب العالمية الثانية، ثم انقطعت أخباره.

٧) «عبد الغني الكرمي».. ابن العلاّمة والشاعر الشيخ سعيد الكرمي، وشقيق الشاعر عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى)، وشقيق المحقق الحجة في الشعر العربي القديم والموظف في إذاعة لندن اليوم الأستاذ حسن الكرمي.

انتسب عبد الغني إلى الحزب سنة ١٩٢٩، وقت أن كان يعمل في ميدان الصحافة، ثم أُوفد في السنة ذاتها إلى موسكو ليوسع معلوماته الماركسية خلال سنة واحدة، واختاروا له اسماً مستعاراً هو «مايخن»!.. وقد قبل بهذه التسمية بقصد التعتيم على شخصيته الحقيقية.

لم يطق عبد الغني، وثقافته فرنسية، نمط الحياة في تلك الديار وكان يتبرم بها، وحاول العودة إلى بلاده بعد مدة قصيرة من الإقامة في موسكو، غير أن المسؤولين لم يدركوا السبب في محاولته هذه وظنوا به سوءاً، واعتقدوا أنه بات مرتداً، فأهملوا طلبه.. واتصل ذات يوم بممثل الحزب الشيوعي الفرنسي في «الكومنترن»، واسمه «باربه» (Barbé)، وطلب منه أن يسهل له أمر السفر فوعده خيراً، إلاّ إن الأيام انقضت دون أن يتمكن عبد الغني من مغادرة البلاد.

وفي ساعة من توتر أعصابه جلس إلى مكتبه في غرفته في فندق «لوكس»، وأخذ يحرر رسالة إلى السفير البريطاني في موسكو يطلب منه فيها أن يمنحه جواز سفر، بوصفه من بلاد تخضع لحكم الانتداب البريطاني، وأن يتولى تسفيره من الاتحاد السوفياتي.

ترك عبد الغني الرسالة على مكتبه ودخل إلى الحمّام، فزاره في هذه اللحظة زميله المصري «فتحي»، ووقع نظره على عنوان الرسالة، واطلع على مضمونها على عجل، وانسحب كأنه لا يعرف شيئاً من مخطط زميله، ثم اتصل بإدارة الجامعة وروى لها القصة، فهالها الأمر واتصلت بـ «الغي. بي. أو.»، أي الشرطة السياسية السرية، التي أسرعت وداهمت غرفة عبد الغني واستولت على الرسالة

واعتقله وأرسله إلى سجن «الوبيانكا».

وفي التحقيق دافع عبد الغني عن نفسه بقوله أنه طلب السفر مرات عديدة ولم يجب إلى طلبه، وأنه يشعر بضيق نفساني لا أكثر.. وكان يزور موسكو في تلك الأيام سكرتير الحزب الشيوعي في لبنان وسورية، المرحوم فؤاد الشمالي، فعلم بتوقيف عبد الغني، وبذل جهداً عظيماً لدى المسؤولين في «الكومنترن» لإطلاق سراحه وإبعاده عن البلاد... وتكللت مساعيه بالنجاح، وعاد عبد الغني إلى فلسطين في صيف سنة ١٩٣٠.

وفي شتاء سنة ١٩٣٠ عقد مؤتمر للعمال العرب في حيفا، حضرتُه وألقيت فيه كلمة، وهناك التقيت بعبد الغني الكرمي، بوصفه مراسلاً لجريدة يافية.

وظل عبد الغني في فلسطين سنين عديدة، ثم انتقل إلى لندن بعد الحرب العالمية الثانية، وعمل فيها رئيس تحرير مجلة «العالم» اللندنية، التي توقفت عن الصدور سنة ١٩٦٣، بعد أن عاشت اثنتي عشرة سنة، وكانت في الواقع مجلة حسنة التبويب والإخراج، غزيرة المادة والصورة.

عاد عبد الغني الكرمي إلى فلسطين في أواسط الستينات، ثم انتقل للعيش في عمان إلى أن وافاه الأجل.

٨) «نجيب فرنجية».. يتحدر من أصل لبناني.. هاجر والده وعمه من «زغرتا» إلى فلسطين في سني الحرب العالمية الأولى.. نشأ وترعرع في حي العجمي في يافا، ثم أصبح صحافياً ومترجماً عن الإنكليزية.. حرر في صحف يافا، وانضم إلى الحزب سنة ١٩٣٤.. وبعد مضي وقت أوفد إلى موسكو برفقة زوجته بقصد الدراسة.. ثم عاد إلى فلسطين سنة ١٩٣٧ ليعمل في صحف «فلسطين»، و«الدفاع»، و«الإقدام».

وفي سنة النكبة ١٩٤٨ عاد إلى لبنان مع أسرته (بعد وفاة والده وعمه ووالدته)، وأقام في محلة سن الفيل في بيروت، وعمل في صحيفة «الهدف»، ووضع «الموسوعة العربية» الصادرة عن دار الريحاني، ثم غادر لبنان مهاجراً.

وهناك عدد آخر من الطلاب الفلسطينيين الذين تلقوا العلوم السياسية في موسكو في أوقات مختلفة، منهم من عاد إلى بلاده، ومنهم من بقي في الاتحاد السوفياتي، ومنهم من انتشر في أنحاء الأرض العربية والأجنبية، ومنهم من توفي.

الفصل الثالث

٥ ـ مؤتمر الـ «بروفنترن»

في صيف سنة ١٩٣١، عقدت اللجنة المركزية اجتماعاً طارئاً قررت فيه إيفاد بعثة إلى مؤتمر «البروفنترن»، أي اتحاد النقابات الدولية، الذي سيعقد في موسكو، والتمهيد لذلك بعقد اجتماع محلي عام للنقابات التي يسيرها الحزب أو المتأثرة بسياسته وخططه، تُبحث فيه قضايا النقابات الفلسطينية وهي:

أولاً ـ علاقة «الهستدروت» (اتحاد نقابات العمال اليهود) بالعمال العرب.

ثانياً ـ التمييز بالأجور بين العمال اليهود والعمال العرب.

ثالثاً ـ النقابات العربية الفلسطينية ودورها في الحركة الوطنية.

رابعاً ـ تأليف اتحاد نقابات ثورية مستقلة، أو الانضمام إلى اتحاد النقابات الوطنية ومركزه حيفا.

لقد بحثت هذه النقاط الأربع في اجتماع سري عقد في محلة البقعة بالقدس، واستمر ثلاثة أيام، وتقرر فيه إيفاد مندوبَيْن عربي ويهودي إلى مؤتمر البروفنترن، فاختارني المؤتمرون للتمثيل العربي، وسافرت إلى بيروت، ثم أبحرت إلى مرسيليا، فباريس، فبرلين، حيث يجب أن أتصل بفرع الحزب الشيوعي الألماني. وقد سبق وزُودت في القدس بعنوان مشغل للأحذية يقع في شمال العاصمة الألمانية، فتوجهت إليه، وسألت عن اسم معين، فاستقبلني رجل مسن يضع نظارة على عينيه، فقلت له كلمة السر، فهز رأسه وقال: بروفنترن؟..

قلت: نعم..

قال: ستحل في فندق كذا في منطقة «إيست إند»، وتظل فيه إلى أن تتم معاملة سفرك بحراً إلى لينينغراد.. وأقمت في برلين أسبوعاً في صحبة الرفاق، شاهدت في أثنائه مهرجانات الحزب النازي، والمهرجانات المضادة التي كانت تنظمها «الجبهة الحمراء» (روته فرونت) يشترك فيها عشرات الآلاف من الشباب والشابات وهم في بزاتهم العسكرية يرفعون الرايات الحمراء، وينشدون «روته فيدينغ مير مارشيرت»، أي يا حي «فيدينغ» ـ حي العمال ـ إننا نزحف!..

ويقف الناس على الأرصفة يراقبون وأيديهم على قلوبهم، إذ كانوا يشعرون

بأن الأرض الألمانية باتت تهتز تحت أقدامهم، وأن هاتين الجهتين لا بد وأن تصطدما، وأن هذا الصدام يغير وجه ألمانيا إمّا إلى أفضل وإمّا إلى أسوأ..

ووقفت بين الواقفين إلى أن تقدم منا شرطي ألماني، وقال بكل لطف لا موجب للوقوف على الرصيف، فإمّا أن تتابعوا السير وإمّا أن تنضموا إلى المتظاهرين!..

المنجل والمطرقة، والصليب المعقوف، يتحديان بعضهما بعضاً، وتدور في الشوارع معارك فردية بين الفريقين ويسقط بعض القتلى والجرحى، ويتجمع الحقد، وتتراكم الضغائن، وتجرى الاستعدادات على قدم وساق للدخول بألمانيا في عالم يكتنفه الرعب والغموض.

كان الألمان، كل الألمان، يقولون: لقد انقضت ستة عشر عاماً ونحن نرزح تحت نير معاهدة فرساي، التي استنزفت دماءنا، وانتزعت منا مستعمراتنا، وأقفلت الأسواق العالمية في وجه تجارتنا، وأرهقتنا بالديون وأذلتنا، فقد آن الأوان للتخلص منها، والانطلاق إلى عالم الحرية.

وكان موقف اليسار من هذه الحقيقة بأن لا خلاص لألمانيا إلاّ باستيلاء الجبهة الشعبية التي تضم الشيوعيين والاشتراكيين والديمقراطيين على أزمّة الحكم..

وكان موقف اليمين أي الحزب النازي بأن لا خلاص لألمانيا إلاّ بالقضاء على الديمقراطية الألمانية في جميع أشكالها ووجوهها، وطبع البلاد بطابع بوليسي وعسكري، وتجنيد كل الألمان للزحف غرباً وشرقاً، في ظل أجواء محمومة يتعالى فيها قرع طبول الحرب، وهتافات هايل هتلر.

وقد أحب اليمين الألماني أن يخلع على حركته طابعاً فلسفياً فكان كتاب «ماين كامف» (كفاحي)، للدهّان سابقاً، والعريف في الجيش الألماني لاحقاً، أدولف هتلر.. وأذكر بهذه المناسبة أنني وضعت فيه دراسة بعنوان «النازية والتقاليد الإسلامية»، نشرته دار الكشاف في بيروت سنة ١٩٤٠، وترجم إلى الإنكليزية في لندن سنة ١٩٤١.

تركت برلين بالقطار إلى ميناء «ستيتين» الواقع على البحر البلطيقي، ثم أبحرت منه على متن باخرة سوفياتية في اتجاه لينتغراد ـ وقد زُودت بوثيقة سفر خاصة وضعت عليها سمة الدخول السوفياتية بدلاً من وضعها على جواز السفر.. وكانت رحلة ممتعة شاهدت فيها «الليالي البيضاء»، أي الليالي التي لا تميز فيها بين الليل والنهار، فالضياء متواصل، ولا تشعر بحلول الليل إلاّ من السكون المخيم والهواء البارد.

بلغنا خليج فنلندا، ثم عبرت الباخرة قناة حتى اقتربنا من ميناء لينتغراد، فاسترعت انتباهنا قلعة «بترو ـ باولسكي كريبوست»، وقصر بطرس الأكبر. ثم ألقت الباخرة مراسيها في الميناء، وانتقلنا منها إلى دائرة الجمارك، حيث جرى تفتيش دقيق، وخاصة مع العناصر الأوروبية. وحدث أن أحد المفتشين شاهد قرطاً ثميناً في أذني حسناء إنكليزية، فأحب أن يثمن هذا القرط، فقلبه بين أصابعه، وقلب معه الحلمة التي تحمله، فغضبت الحسناء وانتهرته، فكف عن التثمين الحي، وقدره نظرياً، وسجل على الاستمارة نوع القرط وشكله وقال لها بواسطة المترجم: عليك أن تبرزي القرط، وهذه الاستمارة، عندما تغادرين البلاد.

وبعد جولة سريعة في لينتغراد، تعرفنا فيها إلى معالم هذه المدينة الجميلة التي أرادها بطرس الأكبر أن تكون «نافذة على الغرب»، فشاهدنا القلعة القديمة التي كان القياصرة يزجون فيها خصومهم، وقصر «بيترغوف» بنوافيره الشهيرة التي أراد بطرس الأكبر أن ينافس بها قصر فرساي، وقصر القياصرة الشتوي، ومتحف «أرميتاج» الذي يحتوي على لوحات زيتية لمشاهير الرسامين الأوروبيين، ومتحف بوشكين أمير شعراء الروس، والمسلة الشهيرة، ورصيف نهر «النيفا» البديع.. بعد هذه الجولة تابعنا السفر إلى موسكو بالقطار، وحللنا في فندق «لوكس»، الخاص بالبعثات الحزبية الأجنبية.

افتتح مؤتمر البروفنترن في «بيت اتحاد النقابات»، وكان سابقاً نادياً للأمراء.. وتوالت أعماله حوالي أسبوعين، عالج في أثنائها القضايا النقابية في العالم، «في مرحلة تجتاز فيها الرأسمالية أحلك الأزمات، وتعم فيها البطالة بين العمال، وتتدهور الزراعة، ويتبلور النضال الثوري للطبقة العاملة وللشعوب المناهضة للاستعمار، وتتحرك النازية الألمانية لتستولي على الحكم، كما تتحرك الفاشستية الإيطالية للتوسع في إفريقيا، والعسكرية اليابانية في الشرق الأقصى.»

واتخذ المؤتمر مجموعة من القرارات التي تؤلف منهجاً للنقابات العمالية العالمية، في تلك المرحلة التاريخية، وأبرز ما اتخذ منها بصدد فلسطين:

تنظيم النقابات العمالية العربية في اتحاد عام وضمه إلى البروفنترن، والمطالبة بمساواة العمال العرب واليهود بالأجور وساعات العمل.

وكانت أعمال المؤتمر، وللمرة الأولى في تاريخ المؤتمرات الروسية، تترجم بصورة آلية، أي كان أمام كل مندوب سماعة يضعها على أذنيه، ولوحة كهربائية تشير إلى اللغات المترجمة وفق خانات معينة، فما على المندوب إلاّ أن يضع اللاقط الكهربائي في خانة اللغة التي يريدها فيسمع الترجمة على الفور. وحدث في تلك الأثناء أن أبديتُ تذمراً من المسؤول الروسي عن راحة المؤتمرين، لما كان

يبديه من إهمال وبيروقراطية، فقلت له: هل تريد أن أذكر سلوكك هذا في بياني عن أعمال المؤتمر؟!.. فغضب ونقل هذا الكلام إلى اللجنة العليا لمؤتمر البروفنترن، وكان في عداد أعضائها «شفيرنيك» رئيس اتحاد النقابات السوفياتية، و«أولبريخت» الذي أمسى فيما بعد زعيماً للحزب الشيوعي الألماني ورئيساً للجمهورية الألمانية الديمقراطية، فاستدعياني أمامهما للبحث في شكواي، غير أن أولبريخت امتعض، وطلب مني أن أسحب الشكوى والكلام الذي قلته، وهكذا كان.

أمّا شفيرنيك فقد علق على هذه الحادثة بقوله: دم عربي حار!

وبعد أن أنهى المؤتمر أعماله زُودت بالتوصيات الخاصة من نقابية وحزبية، وعدت إلى فلسطين سالكاً طريق موسكو ـ باريس ـ مرسيليا، ثم أبحرت إلى الإسكندرية، ومنها إلى القطار.

وفيما كنت أجلس في عربة القطار منتظراً تحركه إلى غزة فاللد.. تقدم مني شرطي إنكليزي وطلب مني أن أرافقه إلى مكتب رئيسه، فقلت لذاتي «وقعت».. وفي المكتب وجدت ضابطاً إنكليزياً وضابطاً مصرياً، فطلبا مني جواز سفري، وكان مزيفاً، أي أن صورتي قد حلت محل صورة صاحبه الأصلي.. ودار بيننا الحوار التالي:

الضابط: أأنت صاحب جواز السفر هذا؟..

ـ: طبعاً..

الضابط: ما صنعتك؟..

ـ: نجّار..

الضابط: هيئتك لا تدل على ذلك..

ـ: أنا صاحب محل لصنع الموبيليا في يافا..

الضابط: أين؟..

ـ: في شارع العجمي..

الضابط: هل سبق لك وأعلنت عن فقدان جواز سفرك هذا؟..

ـ: نعم.. لقد أعلنت عن فقدانه منذ شهر ونصف الشهر، غير أنني عدت وعثرت عليه، وسافرت به إلى فرنسا وألمانيا..

الضابط: لماذا سافرت إلى هذين البلدين؟..

ـ: للتعرف إلى أحدث مصنوعات الموبيليا..

الضابط: ما هي وجهتك؟..

ـ: يافا طبعاً..

فتفحص الضابط الإنكليزي والضابط المصري جواز السفر جيداً، فلم يعثرا فيه على أي شيء يثير الشبهة.. فحاول الضابط المصري أن يرفع صوته ويهدد، غير أن الضابط الإنكليزي هدأ من روعه، وأسرّ في أذنه بضع كلمات.. أعاد إليّ جواز السفر، وقال: لا بأس عليك، تابع سفرك.. فأدركت بالبديهة أن الضابط الإنكليزي قال للضابط المصري دعه يتابع سفره، ونحن نتصل بشرطة يافا بالهاتف لكي تستقبله في المحطة، ونترك لها أمر البحث والتدقيق.

انطلق القطار إلى محطة اللد، فبلغناها عند الفجر، وهناك غادرت القطار، وأحرقت جواز السفر، وركبت سيارة تشحن البرتقال إلى القدس..

وعلمت فيما بعد أن شرطة يافا كانت ترابط في المحطة، ثم أغارت على القطار وطوقته، وبحثت عن القادم المشبوه دون جدوى فأدركت أنني أفلت من قبضتها.

الفصل الرابع

٦ ـ قضايا الحزب الكبرى

أثيرت في الفترة التي قضيتها في العمل المسؤول في الحزب، من سنة ١٩٢٩ حتى سنة اعتقالي ١٩٣١، خمس قضايا رئيسية، هي: أولاً ـ التعريب؛ ثانياً ـ ثورة ١٩٢٩؛[٤٠] ثالثاً ـ الهجرة اليهودية؛ رابعاً ـ المسألة الزراعية (الأراضي)؛ خامساً ـ الموقف من الحركة الوطنية العربية.

١) **التعريب:**[٤١] جاء قرار «تعريب» الحزب من منظمة «الكومنترن» مباشرة؛ وهو يعني أن على الحزب أن يفسح المجال للأعضاء العرب المنتسبين إليه، إشغال مراكز حساسة ابتداء من اللجنة المركزية حتى اللجان المحلية، وهذا الأمر لا يشترط جعل أعضاء الحزب العرب أكثرية والأعضاء اليهود أقلية، بل أن تكون الكفة الراجحة في القيادة إلى الجانب العربي.. ومما يؤيد هذا الواقع أن الأعضاء اليهود مع أنصارهم كانوا يقدرون بعشرة آلاف شخص، أمّا الأعضاء العرب مع أنصارهم فلم يتعدوا الألف شخص.

وقضية التعريب لم تكن سهلة هينة. فالعنصر الشيوعي اليهودي كان شديد التحفظ، لاقتناعه أن الشيوعي اليهودي أكثر وعياً من الشيوعي العربي في المسائل العقائدية والتنظيمية، وأنه، أي العضو العربي، إذا ما تعرض للضغط والاضطهاد انهار وسبب الأذى لغيره.

وانطلاقاً من هذه النقطة كانت القيادة اليهودية تتعثر في قضية التعريب، تؤيدها نظرياً، وتعرقلها لدرجة ما عملياً.. في حين أن تعليمات «الكومنترن» تنص على الإقدام على التعريب بجرأة، وجعل الحركة تبرز في المحيط العربي بضجة ولغط، وفي النتيجة يتبين الغث من السمين.

احتارت قيادة الحزب اليهودية في تطبيق سياسة التعريب، ولم تجد في نفسها الجرأة الكافية لفتح الأبواب أمام القيادة العربية، ورأت أن توفد إلى موسكو أكبر عدد ممكن من المنتسبين العرب، أو حتى من المناصرين منهم، لعلهم يتثقفون هناك، ويعودون إلى فلسطين ليشغلوا المراكز الحساسة في الحزب، بعد أن يكون

«الكومنترن» قد عرفهم، وقدر كفاءاتهم، وأسهم بدوره في تحمل المسؤولية. ووفاقاً لذلك أخذ الحزب يرسل البعثات الطلابية، من كل فئة ومستوى، فتجد بينهم الحداد، والنجار، والطالب، والفلاح، والموظف، والصحافي، والبائع المتجول.

كان للحزب قيادة ثابتة تتألف من أشخاص معروفين، مثل تيبر وبرزلاي وبيرمان وليختبنسكي، قد حصنوا أنفسهم جيداً ضد الاعتقال؛ وقيادة متحركة من اللجان المحلية، تتألف من أشخاص يتسلمون المراكز الحساسة بمجرد حدوث فراغ فيها، إلاّ إن طبيعة عملهم، واحتكاكهم المتواصل بالجمهور (في النقابات، وقيادة الإضرابات والمظاهرات) كانا يعرضانهم للاعتقال، فيخلقون بذلك «أزمة قيادة». ومما كان يزيد هذه الأزمة حدة، أن السلطات البريطانية كانت تبعد الكثير من الشيوعيين اليهود، الذين يحملون جوازات سفر سوفياتية، أو شهادات ميلاد روسية، إلى الاتحاد السوفياتي، بل كان بعض الشيوعيين اليهود يمني النفس بأن يلاقي هذا المصير إذا ما عثر عليه، وزج في السجن من ثلاثة أشهر إلى ستة أشهر، ثم الإبعاد على متن أول باخرة سوفياتية مبحرة من ميناء يافا إلى أوديسا.

وبالرغم من ذلك كله كانت قضية «التعريب» شغل الحزب الشاغل، وقد أوفد «الكومنترن» سنة ١٩٣١ مندوباً اسمه «موللر» ليحقق في موضوع «التعريب».. قلت له ممازحاً: «يختصرون في موسكو اسم الحزب بأحرف .V.K.P، أي الحزب الشيوعي لعموم الاتحاد السوفياتي، ويضيفون إليها حرف B بمعنى البلشفي..

قال: نعم.. وماذا؟..

قلت: نحن نختصر اسم الحزب الشيوعي الفلسطيني بأحرف .P.K.P.. فما رأيك لو أضفنا إليها حرف A أي المعرّب؟!..

فهز رأسه ضاحكاً وقال: «ومن الممكن أن يعني حرف A: Antisimite، أي المناهض للسامية!..

وأذكر بهذه المناسبة أن موللر هذا كاد يقع بيد الشرطة في ضاحية نهر العوجا بالقرب من يافا، فقد عقدنا معه اجتماعاً في الخلاء الأمين، وبعد الاجتماع سرنا معاً في اتجاه يافا وكنا حوالي ثمانية أشخاص.. وما إن توسطنا الشارع حتى أقبل علينا سائق عربة يهودي، فعرف من كان برفقتنا من الشيوعيين اليهود، وقال: لا تتقدموا في هذا الطريق، فهناك ثُلة من الشرطة ترابط ولا شك أنها تبغي إلقاء القبض عليكم..

فشكرناه وتفرقنا في اتجاهات مختلفة، ونجونا من الوقوع في شرك مدبر. غير أننا احترنا في معرفة من أخبر الشرطة باجتماعنا السري هذا؟.. وهل كان

المخبر بيننا؟.. وقد وقعت الشبهة على صحافي عربي من القدس اسمه «د.ش.» كان حضر الاجتماع. ولمّا كنا نفتقر إلى الإثبات آثرنا عدم الركون إليه في أي نشاط حزبي.

إذاً.. فقضية التعريب كانت جوهر قضايا الحزب في كل مراحله ومؤتمراته، وقد أسفرت عن اعتراف الشيوعيين اليهود بقيادة الرفاق العرب، والإبقاء على قيادتهم هم ضمن الأوساط اليهودية، والعمل على خلق وضع «فدرالي» ضمن الحزب الواحد، يحقق فكرة التعريب، ويؤمن سلامة الجهاز الحزبي الذي تديره القيادة اليهودية.

٢) ثورة ١٩٢٩: هزّت ثورة ٢٤ آب/أغسطس سنة ١٩٢٩ الحزب هزاً عنيفاً، وأوقعت الشيوعيين اليهود في حيرة تامة، فمنهم من «دافع» مع مواطنيه، ومنهم من التزم الحياد وآثر الابتعاد.. غير أن هذا الوضع أوجد مشكلة في الحزب بين الرفاق اليهود والرفاق العرب، وعقدت الاجتماعات الصاخبة، نوقشت فيها الثورة وذيولها، وكان محورها الرئيسي تحديد ماهية هذه الثورة، فهل هي ثورة وطنية أم هي مذبحة طائفية؟..

وهنا وقع الانقسام داخل الحزب. فمن الشيوعيين اليهود من قال إنها مذبحة، ومنهم من أيد اللجنة المركزية بقولها إنها ثورة وطنية سببها الحكم البريطاني الجائر، والاستيلاء على الأراضي وإفقار الفلاحين.

وبعد أخذ ورد عنيفين تقرر أنها ثورة وطنية، ولا عبرة في بروز مظاهر من العنف الطائفي مثل قتل شيخ جامع يافا وأسرته، وتصفية طلاب معهد التلمود في الخليل، وغير ذلك من الحوادث الشاذة التي لا تخلو منها كل الثورات. فامتثل من الأعضاء اليهود من امتثل لهذا القرار، وثار عليه غيرهم وانسحبوا من الحزب، أو أن الحزب قرر طردهم إلى أن يعيدوا النظر في موقفهم.

كنت في تلك الأثناء أشرف على أعمال الحزب في حيفا، وعلى اتصال وثيق باتحاد نقابات للعمال، يديره لبناني من آل قليلات، موظف في السكة الحديدية، وقد افتتح فيه مدرسة لمكافحة الأمية، يعاونه في ذلك شاب لبناني أيضاً من آل فتح الله.

وفي حيفا اتصلت خفية بشيخ الجامع عز الدين القسّام، صاحب القامة الفارعة، عند سفح جبل يقع إلى الناحية الشرقية من الجسر*، فحدثني عن جهاده

* المقصود: الجسر على وادي روشميا في الطرف الشرقي من مدينة حيفا. (المحرر)

في سورية ضد الفرنسيين سنة ١٩٢٠، ولجوئه إلى حيفا منذ ذلك التاريخ، وكفاحه ضد الإنكليز في البلاد، ومطاردة السلطات البريطانية له.. وعلمت في سنة ١٩٣٥، وأنا في باريس، أن القسّام قد استشهد مع أربعة من رفاقه بالقرب من جنين.

وحدث لي وأنا أقيم في حيفا إبّان الثورة، أن أصبت بمرض الزحار نتيجة لتناولي طعاماً ملوثاً في مطعم في ساحة السمك، ونقلت إلى المستشفى الحكومي، ومكثت فيه عشرة أيام إلى أن شفيت. وما إن غادرت المستشفى حتى طُلب مني أن أتوجه إلى القدس للالتحاق باللجنة المركزية فوضعت على رأسي قبعة بقصد التخفي، وأخذت مكاني في القطار، وكان شبه خال من الناس. وحين توقف القطار في محطة اللد، أطللت برأسي من النافذة، فشاهدت شابين عربيين يقتربان من النافذة التي أقف عندها، وبيد كل منهما سكين، وهما ينتظران تحرك القطار حتى يعتديا عليّ، فضحكت وقلت لهما: «إنني عربي مثلكما».. فأرجع كل منهما سكينه إلى جيبه، وقالا لي: إنزع هذه القبعة عن رأسك وابتعد.

وصل القطار إلى محطة القدس في الساعة التاسعة مساء. كانت المحطة غارقة في الظلام، والشوارع خالية من الناس، وأزيز الرصاص يسمع من هنا وهناك، فاستأجرت العربة الوحيدة الواقفة في الميدان، لتنقلني إلى بيت زميلي في دائرة البريد (قبل سفري إلى موسكو سنة ١٩٢٥) قسطندي روفا، وكان يقيم في كولونية اليونان القريبة من محطة سكة الحديد. طرقت الباب، ففتح كوة منه بحذر شديد، ورآني على ضوء خافت، بعد غياب طويل، فرحب بي، واستضافني مدة ثلاثة أيام ريثما تمكنت من الاتصال بالرفاق في القدس والالتحاق بهم مجدداً.

كانت اللجنة المركزية قد كلفت جوزف برزلاي أن يستأجر منزلاً باسمه في بيت صفافا، يخص أحد المزارعين العرب، فانتقلت إليه وأقمت فيه، وأسهمت في وضع تقرير لـ «الكومنترن» عن ثورة ١٩٢٩، وموقف الحزب منها.

ومن طريف ما حدث وقتئذ أن صاحب المنزل قد قدم نصيحة لبرزلاي أن يترك المنزل كيلا يتعرض للأذى هو ومن يستضيف، وساعده في توضيب أثاث البيت، ورافقه في سيارة شحن والمسدس بيده إلى محلة «تل بيوت» اليهودية، الواقعة في الناحية الشرقية من محلة البقعة الفوقا، للحفاظ عليه، ثم ودعه قائلاً: «لقد قمت بواجبي نحوك، فاذهب في طريقك، غير أنني إن صادفتك مرة أُخرى قتلتك!»..

فثورة ١٩٢٩ وضعت الحزب أمام حقائق عربية فعالة، وفتحت الباب أمام

دفعة جديدة من المنتسبين والمناصرين العرب، وأبرزت الشيوعيين كطرف منظّم وفعّال، له أثره ومكانته في الوسطين العربي واليهودي على السواء.

أمّا مركز الحزب الجديد فقد انتقل إلى بيت غارق في أشجار الصنوبر يقع في الناحية الغربية من البقعة الفوقا، يملكه جميل الشاكر الحسيني، وقد عقد الإيجار كالعادة جوزف برزلاي بوصفه صحافياً.

٣) **الهجرة اليهودية**: لقد أشغلت قضية الهجرة اليهودية الحزب، وحملته على مناقشتها وإصدار المناشير بصددها غير مرة.. فأي موقف عليه أن يتخذ بشأنها؟..

كانت هناك عدة مواقف ليتخذها الرفاق حيالها، وهي:

أولاً ـ إغلاق باب الهجرة، لأن حالة البلاد الاقتصادية لا تحتمل قادمين جدداً. فالقادمون منهم ينافسون الأيدي العاملة اليهودية ذاتها في حقلي الصناعة والزراعة، إضافة إلى أنهم سيعملون على إثارة الوسط العربي، واشتداد العداء لليهود عامة.

ثانياً ـ من المتعذر إيقاف الهجرة ما دامت هي عماد الحركة الصهيونية، ومن الأفضل المطالبة بمنع الهجرة غير المشروعة، والتمسك بمطلب تحديد الهجرة اليهودية، الذي يطالب به العرب أنفسهم وهكذا يتحد* موقف الحزب مع موقف الحركة الوطنية العربية، ويتم التعاون بين الفريقين حول نقطة سياسية على جانب كبير من الأهمية.

ثالثاً ـ المطالبة بإيقاف «الهجرة البورجوازية» اليهودية، وتأييد «الهجرة العمالية» اليهودية، لأن العمال هم عصب الحركة الاشتراكية، ووجودهم يشكل حركة بروليتارية واعية، تكون ضمانة للتغيير الاجتماعي في فلسطين.

فأصحاب الرأي الأخير كانوا يلتقون مع نظرية حزب «بوعالي تسيون» القائلة بحشد أكبر عدد ممكن من العمال اليهود في فلسطين، بوصفهم طليعة الاشتراكية العلمية الواعية، أمّا العرب فبالمستطاع دمجهم في المجتمع الاشتراكي اليهودي عن طريق الاختلاط والتزاوج.

أمّا الموقف الذي اتخذه الحزب فهو وقف الهجرة «كشعار مبدئي»، وحصرها وتحديدها بأرقام سنوية معينة، ما دام من المتعذر وقفها، «كشعار عملي».. وقد أفاد الحزب من هذا الموقف المزدوج في إرضاء العرب، وتسكين اليهود.

---

* «إيقاف الهجرة فوراً وتشكيل لجنة تبحث مقدرة البلاد على الاستيعاب وتضع مبدأ للمهاجرة»، من مذكرة الأحزاب العربية الخمسة إلى المندوب السامي واكهوب في ٢٥ تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٩٣٥.

٤) المسألة الزراعية (الأراضي): لم تكن المسألة الزراعية في فلسطين مسألة إقطاعية، يسيطر فيها كبار أصحاب الإقطاعيات على مساحات شاسعة من الأراضي، في حين يعمل الفلاحون فيها مثل الأرقاء، كما كان الحال في روسيا ومصر والعراق.

فالمسألة الزراعية في فلسطين هي مسألة أراض محدودة المساحات، موزعة بين عدد قليل من الملاكين (مزارع وبيارات، أي بساتين برتقال)، وأراض «مشاع» يستغلها القرويون على شكل تعاوني بدائي، وأراض «أميرية» منها ما هو صالح للزراعة ومنها ما هو «بور»، وأراض هي بمثابة ملكيات صغيرة موزعة بين صغار المزارعين وهي تشكل معظم المساحات الزراعية.

ولمّا كان اليهود يعدون العدة لإقامة دولة لهم، بمساعدة دولة الانتداب، ولمّا كانت هذه الدولة لا تقوم إلاّ على «الأرض»، فقد عمد زعماؤهم إلى تأسيس صندوقين يهوديين لتنفيذ مخطط استعمار فلسطين، وهما «الصندوق القومي» (Keren Kayemeth)، ومهمته جمع رؤوس الأموال اليهودية (تبرعات «الشاقل» ـ وهو وحدة نقدية عبرية قديمة ـ وجبايات، واستثمارات، إلخ..) و«الصندوق التأسيسي» (Keren Hayesod) ومهمته شراء الأرض واستثمارها في كل حقل ومشروع، وهو يمنع إعادة بيعها أو نقلها من يد إلى يد، إذ أصبحت ملكاً قومياً للشعب اليهودي، كما يشترط أن تستخدم فيها الأيدي العاملة اليهودية فقط.

وقد نشط الصندوق التأسيسي في شراء الأراضي بواسطة عملاء بارعين يهود وعرب، وغالباً ما كانت عملية «الشراء» هذه تتخذ شكلاً مأساوياً، تتجند له كل دوائر حكومة الانتداب، ابتداء من «المحاكم الزراعية» حتى «المحاكم القضائية»، فنتج عن ذلك أن غص السجن المركزي في القدس، و«مقلع عتليت» بالقرب من حيفا، وقلعة عكا، بأعداد كبيرة من الفلاحين «العصاة». وكانت الأحكام التي تصدر بحقهم تتراوح بين العشر سنوات والمؤبد والإعدام.

لقد اتخذ الحزب موقفاً موحداً في مسألة الأراضي هذه؛ فكان يدعو إلى العمل ضد سياسة الانتداب الرامية إلى إفقار المزارعين العرب وإرغامهم على بيع أراضيهم وطردهم منها، ومهاجمة «العملاء» وأصحاب الأراضي من أغنياء المزارعين و«الأفندية» الذين يبيعون أراضيهم إلى المؤسسات اليهودية، وتحميلهم مسؤولية هذا البيع.

وكان لهذا الموقف أن وحّد الحزب نشاطه في السياسة الزراعية مع الحركة الوطنية العربية، وأفاد منها في الوقت ذاته في تسعير الكفاح الاجتماعي والأيديولوجي.

٥) **الحركة الوطنية العربية**: رسم الحزب لنفسه موقفاً معيناً من الحركة الوطنية العربية، فقد قسم الوطنيين إلى مناضلين ضد الاستعمار والصهيونية، وإلى انتهازيين متواطئين مع المحتلين.

وقسم المناضلين الوطنيين إلى قسمين: الأول، «اللجنة التنفيذية»، المنتخبة في المؤتمر الفلسطيني السابع لسنة ١٩٢٨، ويعرفها بالبورجوازية المناضلة ضمن الإطار العربي والتآزر الإسلامي؛ والثاني، الحركة الوطنية اليسارية التي تمثل الطبقة المتوسطة، ويعرفها بالبورجوازية الصغيرة المناضلة ضمن الإطار العربي والتآزر الدولي.

تعاون الحزب مع اللجنة التنفيذية، وأيدها في حملاتها السياسية ضد الانتداب والصهيونية.. وتعاون تعاوناً وثيقاً مع الوطنيين اليساريين أفراداً وجماعات، إذ لم يوحدوا صفوفهم وتتنذ في منظمة معينة. أمّا باقي الأحزاب السياسية العربية التي قامت في فلسطين، فكان الحزب يعتبرها أحزاباً غير شعبية، أو انتهازية، ولم يعرها اهتماماً.

«**حمدي الحسيني**»: كان هذا الزعيم الوطني موضع اهتمام الحزب المتزايد، بوصفه زعيماً فلسطينياً يساير ركب التحرر العالمي البروليتاري والمناهض للنازية والفاشستية.

ينتمي حمدي (أبو فيصل) إلى أسرة بارزة في غزة هاشم، مارست الزعامة، والصحافة، والقضاء، وإدارة البلديات.. كان أحد أركانها الشهيد الشيخ محيي الدين الحسيني الذي أعدمه الأتراك في غزة في سني الحرب العالمية الأولى.

ولد حمدي في غزة سنة ١٨٩٧، وانصرف في شبابه إلى خدمة القضية الوطنية الفلسطينية، فاعتقلته السلطات التركية سنة ١٩١٧ ونفته إلى «قونية» في الأناضول.. وعاد بعد الحرب إلى غزة ليتابع نضاله الوطني ضد الحكام الجدد، إلى أن كانت سنة ١٩٣٠، وهي سنة معرفتي به، ورأى في الحزب الشيوعي قوة مساندة لاتجاهه في الحركة الوطنية، كما رأى الحزب في حركته الديمقراطية الوسيلة السليمة للاتصال بالأوساط الوطنية الفلسطينية.

وفي سنة ١٩٣١ أسس حمدي الحسيني عصبة مقاومة الاستعمار، وهي أول مجموعة وطنية تتبنى أفكاراً إصلاحية، اجتماعية، نظرية، لم تعهدها الاتجاهات الوطنية في ذلك الزمن.

وفي هذه السنة دعي حمدي الحسيني لحضور مؤتمر مقاومة الاستعمار المنعقد في باريس، ثم انتقل إلى موسكو حيث استقبله ستالين في قصر

الكريملين.* وقد أراد الزعيم السوفياتي اختبار «حساسيات» حمدي، فقال له حين دعاه إلى الجلوس: «لقد جلس على هذا الكرسي قبلك ملك الأفغان أمان الله خان!».. فأجابه حمدي على الفور: «إن جلوس ملك الأفغان على هذا الكرسي لا يشرفني قطعاً».. فلمس ستالين نزعة حمدي اليسارية وانطلق يحدثه عن قضايا الشرق والاستعمار، وقد ركّز حديثه على «الرشوة» قائلاً إنها أخطر ظاهرة في الحركات الوطنية، وهو يعني بالرشوة الأساليب التي يلجأ إليها المستعمر في شراء ضمائر الزعماء والقادة، واستدراجهم إلى خدمة مآربه ومصالحه.

عاد حمدي من موسكو ليسهم في تأسيس «حزب الاستقلال العربي الفلسطيني» سنة ١٩٣٢.. وفي هذه السنة أصدر عجاج نويهض(٤٢) مجلة «العرب» في القدس، وهي لسان حال حزب الاستقلال. وكان حمدي ينشر فيها مقالاته الوطنية بقلم «باحث عربي». وقد حثني وقتئذ على أن أنشر مقالات في تلك المجلة، وكان موضوع مقالة لي فيها «الصراع الطبقي في الأحزاب الصهيونية واللاصهيونية». ولمّا حلت نكبة ١٩٤٨ كان حمدي يقيم في غزة في ظل الإدارة العسكرية المصرية، ثم انتقل مع أسرته إلى القاهرة، وأقام فيها طويلاً، ثم عاد إلى غزة بعد حرب ١٩٦٧، وأقام فيها ولا يزال في ظل الحكم الإسرائيلي.. وقد أتيحت له فرصة الاصطياف برفقة كريمته في لبنان سنة ١٩٧٣.

التزم حمدي الحسيني خطاً وطنياً جلياً وصلباً، فلم يفاوض، ولم يهادن، ولم ينحرف، ولم يقبل أي منصب رسمي لا إبّان حكم الانتداب، ولا إبّان الحكم العسكري المصري، ولا إبّان الحكم الإسرائيلي.

ومما قاله لي حين اصطاف في لبنان: «سنظل نكافح في سبيل استقلال فلسطين مهما كلف الثمن، ومهما كانت النتائج.»

ومما تجدر الإشارة إليه بهذا الصدد أن الأمير شكيب أرسلان قد حضر مؤتمر مقاومة الاستعمار أيضاً، وزار موسكو، غير أن ستالين رفض مقابلته بداعي أنه يدعو إلى الوحدة الإسلامية، وهذه الدعوة مرفوضة من ستالين، كما هي مرفوضة الدعوة إلى الوحدة العربية.

وحجة ستالين في ذلك أن ليس من رابطة بين الشعوب الإسلامية سوى رابطة الدين، وأن هذه الشعوب تنتمي إلى أمم شتى، تختلف في أوضاعها الاجتماعية، وفي قضاياها الوطنية.. إذ ما الذي يربط من الناحية القومية بين المسلم القوقازي، والمسلم الأفغاني، والهندي، والتركي، والعربي، والإفريقي، وكل منهم يعيش في

* قالت السيدة هند، ابنة نجاتي، إن والدها كان الترجمان في هذا اللقاء بين حمدي وستالين. (المحرر)

ظروف تاريخية متباينة، ويعاني مشاكل وقضايا تختلف عن مشاكل وقضايا غيره من المسلمين؟..

كما أن ستالين لم يؤمن بالوحدة العربية كهدف، وإن قبلها كقوة ضاربة ضد الاستعمار، وحجته في ذلك أن الوحدة العربية هي في نهاية المطاف جبهة معادية للشيوعية، وحتى للاشتراكية العلمية، وبوسعها أن تقوم بدور غير تقدمي في مراحل معينة من مراحل تطورها الاجتماعي، وتثبيت أقدامها سياسياً.

وهناك افتراض في رفض ستالين مقابلة الأمير شكيب أرسلان، وهو خشيته أن تنقلب هذه المقابلة إلى حملات معادية له ولنظامه، إذ ليس هناك أي مبدأ أو عقيدة بل أي نظرية اجتماعية، تجمع بين الزعيم السوفياتي، المتضلع في قضايا الشرق والشرقيين، وبين الداعية الإسلامي وأمير البيان الأمير شكيب أرسلان.

المطاردة: اشتد العداء بين العرب واليهود بعد ثورة ١٩٢٩، وبات المرء من الطرفين لا يأمن على حياته وحياة أسرته، إذا ما أقام في الأحياء اليهودية إن كان عربياً، وفي الأحياء العربية إن كان يهودياً.. وعلى ذلك أخذت الأعين العربية ترمق البيت الغامض القائم بين أشجار الصنوبر في محلة البقعة، بنظرات كلها ريبة وشبهة، فتقرر تركه بأسرع وقت ممكن، ثم تولى جوزف برزلاي استئجار بيت آخر للجنة المركزية يقع في طلعة «مأمن الله» بالقدس، وهي منطقة تفصل بين الأحياء اليهودية والأحياء العربية خارج السور.

أمّا أنا فقد استأجرت شقة خاصة في شارع «مأمن الله»، تقع في منزل غير بعيد عن بيت اللجنة المركزية، استأجرتها لأقيم فيها مع زوجتي، وهي أوكرانية الأصل من مدينة «لفوف». وفي هذه الشقة رزقنا ابنة اسمها «دولت» أو (دوليه أو دوليا)، وهي اليوم مهندسة معمارية في موسكو. وفي هذا المنزل كنت أشرف على تحرير لسان حال الحزب، «إلى الأمام»، وتحرير النشرات والمناشير، وكنت أستقبل فيه حمدي الحسيني حيث نعد الخطط المشتركة.

وحدث أن سافرت إلى حيفا في مهمة، فأحب والدي أن يزورني في شقتي ليمتع نظره بحفيدته، فلحق به رجل أمن يهودي معروف بلؤمه وخسته اسمه «رابينوفتش»، وشاهده يدخل المنزل، فأسرع وأخبر الشرطة التي أتت وفتشت شقتي فلم تجدني فيها، ولم تجد شيئاً يشكل تهمة، فغادرتها بعد أن طلبت من رابينوفتش أن يتولى حراستها وهي تقع في الفناء الداخلي للمنزل، ولها نافذة تطل على الشارع.

عدت من حيفا ذات مساء، وكنت شديد الحذر، فلم أدخل الدار واكتفيت

بالنقر على زجاج النافذة المطلة على الشارع، فأطلت زوجتي وأشارت عليّ بالهرب.. ولجأت إلى بيت اللجنة المركزية القريب.

وتقرر بعد هذا الحادث، أن تبتعد اللجنة المركزية عن بيتي، فانتقلت إلى بيت في قرية «الفتا»، على طريق يافا، المتاخمة لمحلة «محنيه يهودا» اليهودية، يملكه المحامي الوطني اليساري يحيى حموده.

وفي هذه الفترة ضاعفت نشاطي واشتركت في مهرجان «عيد النبي موسى» في القدس. وهو عيد أوصى به الفاتح صلاح الدين الأيوبي، كما أوصى بعيد النبي روبين في يافا، بقصد التذكير الدائم بالفتح الإسلامي. ورفعني الأنصار على الأكتاف، وأنا أضع كوفية وعقالاً على رأسي، وأستر عيني بنظارة سوداء، رفعوني بين أعلام الطرق الدينية، وقرع الطبول والصنوج، والأهازيج القروية، وأصوات المزامير والدبكات القروية.. فهتفت بما أوحته القريحة، ثم لوّح الرفاق بالعلم الأحمر، ورفعوا لافتة تحيي النضال في سبيل الاستقلال، فهاج الناس وماجوا، وتبلبلت الأفكار، واشتد اللغط بوصول البلاشفة العرب!..

وكان لهذه الحادثة أن أثارت سلطات الانتداب وشنت حملة مسعورة لإلقاء القبض عليّ.. وكان مخبروها يحيطونني بهالة من الغموض الخرافي، منهم من يقول أنه رآني أتستر في «ملاية» نسائية، وأغطي وجهي بمنديل أسود.. وقال أحدهم أنه رآني في حارة النصارى في القدس وأنا في زي خوري له لحية طويلة.. وقال غيره أنه لا يرتاب في أن الشحاذ الذي يرتدي الأسمال ويتمدد عند «الباب العتم» المؤدي إلى الحرم المقدسي هو أنا بالذات..

وكان لهذه الأخبار أن حملت جماعة الـ «سي.آي.دي.»، أي دائرة التحري، على أن تتابع البحث عني ليل نهار. ولمّا كانت تفتقر إلى صورة حديثة لي، أحضرت شاباً عربياً يعرفني، وجمعته برسام، وطلبت منه أن يعطي الرسام الأوصاف الكاملة لوجهي، ففعل، ثم طبعوها ووزعوها على رجال الأمن. ولم تمض أيام حتى اعتقلوا معلم مدرسة، وسمساراً، وبائع أقمشة متجولاً!.. ثم أطلقوا سراحهم.

الفَصْلُ الخامِسُ

٧ ـ في الطريق إلى السجن

الفخ: عقدت اللجنة المركزية اجتماعاً في شهر تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٩٣١، في مقرها الجديد في قرية «لفتا»، حضرته أنا ومحمود وبرزلاي، بحثنا فيه مواضيع حزبية داخلية، وناقشنا فكرة «استئجار عمودين» في صحيفة عربية مقدسية. وقد ارتأينا، بعد الموافقة على هذه الفكرة، إسناد تحريرهما إلى معلم مدرسة ابتدائية من آل البرغوثي، كان كثير التودد إلى الحزب، على أن أقابله أنا ومحمود لاستمزاج رأيه في هذا الأمر.

في اليوم التالي، وحوالي الساعة السابعة مساء، توجهت أنا ومحمود برفقة رجل الارتباط إلى مكان اللقاء بالبرغوثي، وهو غرفة تقع في الطابق الثاني من منزل ينتصف الطريق بين «لفتا» و«محنيه يهودا»، تقيم فيه عائلات يهودية. ثم غاب رجل الارتباط فترة وعاد وبرفقته البرغوثي. كان للغرفة نافذة وحيدة تطل على باب خلفي للمنزل، وعلى أرض صخرية. وقد رأينا من قبيل الاحتراس أن ننزع طرابيشنا عن رؤوسنا كيلا ينتبه أحد أن في الغرفة عرباً. غير أن ما أثار دهشتنا رؤية البرغوثي يعيد طربوشه إلى رأسه، فنرفعه عنه، ثم يعيده إلى رأسه ثانية وينتصب واقفاً، فعزونا سلوكه هذا إلى ضرب من الجهالة في أصول الأعمال السرية، فأجلسناه بعصبية وألقينا بطربوشه جانباً. وبعد نصف ساعة على وجه التقريب سمعنا همساً عند باب الغرفة المغلقة من الداخل، ثم طُرق الباب بعنف وارتفع صوت يقول: إفتحوا الباب باسم القانون.

هرعنا إلى النافذة وألقينا منها نظرة إلى مدخل المنزل الداخلي، لنقفز منها، فرأينا البوليس الإنكليزي يسد المدخل، ولم يكن بمقدورنا عمل أي شيء سوى الاستسلام.

وما إن فتحنا الباب حتى سدد المستر «ركس»، مدير بوليس القدس، المصباح الكهربائي القوي في وجوهنا، وبصحبته أحد كبار ضباط الاستخبارات اليهود الأدون شلومو، ورجل تحر آخر، واقتادونا إلى سجن القدس المركزي، وكانت الساعة قد بلغت الثامنة مساء، فدخلناه أنا ومحمود ورجل الارتباط

اليهودي. أمّا البرغوثي فقد أُطلق سراحه فوراً.

استقبلنا في مكتب السجن رجل سوري الأصل يعرف باسم محمد اللاسلكي، كان يعمل في أيام الحكم الفيصلي في سورية ضابطاً في قسم الإرسال البرقي، ثم انتقل إلى القدس وعمل في المحطة الكهربائية التابعة لدائرة البريد والبرق، ثم تحول إلى ضابط في سجن القدس المركزي، مهمته تفتيش القادمين الجدد، وتسجيل أسمائهم، وأعمارهم، وجنسياتهم، وأماكن ولادتهم.. ثم توجيههم في أصول السلوك في السجن. ومن تلك التوجيهات قوله للقادم الجديد: بعد قليل يحضر مدير السجن المركزي، المستر ستيل.. سيطرح عليك أسئلة، فأجبه دائماً بعبارة واحدة وهي: «نعم يا سيدي».. هه.. لا تنس.. «نعم يا سيدي»!..

وبعد أن أجرى محمد اللاسلكي التفتيش في الجيوب، وبين الأسنان، وتحت الألبسة الداخلية، قال: «سأفتش الآن في مكان من الجسم خشية أن تكون فيه أشياء مهربة؟!.. هكذا تقتضي أنظمة السجن»!..

وإذ انتهى من عمله هذا التفت إلى مستر ركس وقال له: «كل شيء تمام يا سيدي.».

وتولى ركس طرح أسئلة شكلية مثل أين تقيم؟ وما هو عملك؟ ثم وقّع على مذكرة توقيف إدارية بحقنا، ريثما يتم التحقيق معنا في تهم تجيز تقديمنا إلى المحكمة المركزية.

وفي اليوم التالي لاعتقالنا جاء إلى السجن المحامي عمر الصالح البرغوثي*، وهو عم الواشي، وطلب مقابلتي، وراح يقنعني بأن ليس لابن أخيه أي ضلع في عملية الاعتقال، وأنه لم يعتقل معنا لافتقار الأدلة ضده!..

---

* عمر الصالح البرغوثي محام معروف، ولد في القدس سنة ١٨٩٤، تعرفت إليه وهو في العقد الرابع من عمره، يتذوق الأدب والشعر، ويبحث في التاريخ. وقد ألّف بالاشتراك مع خليل طوطح، مدير دار المعلمين في القدس، «تاريخ فلسطين». وكان كثيراً ما يستقبل في مكتبه الواقع أمام حديقة البلدية في شارع يافا، العديد من المشتغلين في السياسة والأدب.

وكان عمر البرغوثي، بحكم مهنته، على صداقة وثيقة برؤساء الأمن العام من إنكليز وعرب ويهود، ومع ذلك ما إن حلت كارثة ١٩٤٨، حتى أقفل مكتبه وغادر بيته وفيه مكتبة قيمة وأثاث منتخب، فاستولى اليهود على محتوياتها، ثم توجه مع الهاربين إلى الأراضي المصرية، وحشر هناك في العنبر رقم ٥ من معتقل القنطرة.

كان يقضي معظم أوقاته جالساً على كرسي، وينام عليه، وهو يؤمل النفس بالعودة السريعة. وبعد أن طال الانتظار واشتد الأسى على مفارقة الديار، عاد إلى عمان حيث شغل مناصب في الدولة الأردنية، وكانت وفاته في القدس إبان توحيد الضفتين في الثاني من شهر حزيران/يونيو ١٩٦٥.

قلت لمدير البوليس الإنكليزي في الإفادة الأولية في السجن إني أقيم في غرفة في «منشية» يافا. وكانت هذه الغرفة لا تحتوي من الأثاث سوى سرير وطاولة وكرسي، كنا نتخذها ملاذاً للطوارئ. وطلب منا تحديد الشارع والبناية لأمر في نفسه، غير أن دوائر الأمن استندت إلى هذه الإفادة وقررت نقلنا، بعد انقضاء فترة من التوقيف، إلى يافا التي أعلنا أننا نقيم فيها. وهناك وضعنا في السجن القائم في ساحة السرايا. وبعد أسبوع من التوقيف طلب منا أن نرشد قوى الأمن إلى الغرفة التي نقيم فيها.. فأرشدناهم إليها ونحن نعلم أنها لا تحتوي على أي شيء يديننا قانونياً، وتعفينا من التشديد في تحديد مكان إقامتنا الحقيقي.. وراح البوليس اليافي يفتش الغرفة بينما كان ركس يلهينا بأحاديثه التافهة، إلى أن صاح أحدهم: وجدتها.. لقد عثرت على مناشير تحت الفراش!..

وكانت هذه المناشير المدسوسة هي التهمة «الحسية» الوحيدة لاستصدار أمر بالتوقيف والإحالة إلى المحكمة.. غير أن هذه التهمة بحد ذاتها غير كافية لحمل المحكمة على إصدار حكم قاس بحقنا. فالمتهمون بحيازة المناشير السرية وتوزيعها يحكمون بالسجن من ثلاثة أشهر إلى ستة أشهر. وقادة دوائر الأمن الفلسطينية لا يستسيغون مساواة الزعماء بالأعضاء البسطاء، وكان عليهم التريث ريثما يحبكون باقي التهم التي تحمل في طياتها الحكم بالسجن في نطاق السنتين.

قضينا في سجن يافا حوالي الشهر بانتظار المحاكمة، تعرفت في أثنائه إلى شاب يافي اسمه يوسف العش، متهم بجنحة، كان كلما شاهدني في ساحة السجن سألني عن رأيي في مشروع السنوات الخمس السوفياتي الجديد!..

وحلّ في السجن، وفي غرفتنا بالذات، شاب مثقف اسمه «جبرا»،[٤٣] كنت قد تعرفت إليه بواسطة الصحافي نجيب فرنجية، ولبّيت دعوته وزرته في بيته المتواضع في حي المنشية. وأدركت من حديثه أنه مثقف بالإنكليزية، يجيد الرسم، ويمارس الأدب والصحافة. وجاءتنا والدته بالقهوة وهي تئن، فمال عليّ نجيب وهمس بأذني قائلاً: إنها تعاني من مرض السرطان وهي تجهله!.. وقد أُوقف جبرا لاشتباه الشرطة أن له نشاطاً سياسياً، وظل مسجوناً أياماً معدودة، ثم أطلق سراحه.

وتعرفت في السجن إلى شاب من قبضايات يافا، اسمه علي الجرايحي، مديد القامة، مكتنز الجسم، أبيض البشرة، أزرق العينين. كان هذا الشاب يقض مضاجع المسؤولين في السجن، فيتحدى الكبير والصغير منهم، كما كان كلما تحرش به بوليس إنكليزي قال له بالإنكليزية «كامون فايت».. أي تعال لنتلاكم، ويمد قبضتيه القويتين إلى أمام.

وطلب علي أن يقيم في غرفتنا، لأننا نتحدى سلطة الانتداب، ونواجه

المخاطر بشجاعة. فعرفنا فيه شاباً جريئاً، يطيب له أن يحدثنا دائماً عن كائن أسطوري اسمه «عوج بن عناق»، كائن هائل، يأتي بأعمال خارقة، يعتصر الغيم بيده ليرتوي بمائه، ويشوي الحيتان في عين الشمس ليتغذى بلحمها وزيتها.. ويبدو أن هذه الخوارق قد استولت على لب علي، وكان يحس في قرارة نفسه أنه هو أيضاً كائن جبار لا يستطيع أحد أن يعترض سبيله، أو أن يرد له طلباً.

وحدث ذات صباح أن دلف إلى غرفتنا بوليس إنكليزي، فلم ننهض له مثل باقي المساجين، فاستشاط غضباً، وطلب مني أن أنهض وأتبعه فقلت له بالإنكليزية: هل تريد قتلي كما قتلت السجين المصري؟!..

فأخذته الرجفة وقال: أنا لم أقتله.. لم أقتله.. هو الذي انتحر، وغادر الغرفة على عجل.

لقد تركت هذه الحادثة أثراً عميقاً في نفس علي الجرايحي، وزاد إعجابه بنا، وتقربه منا.. وعلمت فيما بعد أنه أصيب في السجن بـ «مرض عضال»، ونقل إلى المستشفى الحكومي حيث وافاه الأجل وهو في ريعان فتوته وشبابه.. رحمه الله.

المحاكمة: قضينا في التوقيف مدة طويلة استغرقت خمسة أشهر في سجن القدس المركزي، وشهراً في سجن يافا. وقد قصدت دوائر الأمن من هذه الإطالة احتمال تراجع أحدنا وانقلابه إلى شاهد ضد رفيقه، وحبك التهم، وإيهام القضاء بأن القضية في غاية الخطورة، على أساس أن الحكم يجب أن يأتي ثلاثة أضعاف مدة التوقيف أو أكثر!.. وأخيراً إيجاد شاهد من أهله، أي التأثير بالإغراء والتهديد على أخي الكبير المرحوم أحمد، وحمله على أن يقف في المحكمة شاهداً ضدي.

وفي الثامن والعشرين من شهر أيار/مايو سنة ١٩٣١، اقتادونا من سجن يافا إلى قاعة المحكمة المركزية، القائمة في الجهة المقابلة للسجن من ساحة السرايا، والمنعقدة برئاسة القاضي المسلم عزيز بك الداوودي، والقاضي اليهودي الأدون شلوش. وقد استُبعد القاضي الإنكليزي الثالث الذي يتوسط القاضيين الفلسطينيين عادة، حتى لا يتهم بالتحامل الاستعماري.

أمّا محامي الدفاع عني وعن محمود فكان اشتراكياً يهودياً، لأن المحامين العرب رفضوا تولي الدفاع عنا بضغط من دوائر الأمن، أو لضعف في إدراك الواجبات الملقاة على عاتق المحامي.

وبدأت المحاكمة بالسؤال الرتيب: هل أنت مذنب؟..

وكان الجواب: كلا..

ثم شرع النائب العام في إلقاء كلمة الاتهام وقد حصرها في ثلاث نقاط هي:



نجاتي صدقي في الوسط مع أخيه أحمد ووالده

أولاً، حيازة مناشير سرية؛ ثانياً، الانتماء إلى حزب غير قانوني، بما فيه تزوير جواز سفر (وهذه التهمة موجهة إليّ فقط)؛ ثالثاً، الدعوة إلى قلب النظام الاجتماعي بالقوة.

وراح النائب العام يشرح هذه النقاط، فتلا نص المنشور الذي دُسّ في الغرفة، وهو يدعو الفلاحين إلى مقاومة مغتصبي الأرض، ثم هاجم الحزب بوصفه عميلاً لدولة أجنبية.

وهنا اعترضت عليه بقولي للقاضيين: لا يجوز حشر الاتحاد السوفياتي في قضية محلية، وإثارة مشاكل دولية!

فطلب مني الصمت.. وتابع النائب العام اتهامه بأننا جماعة هدم وتخريب، ولا بد من إبعادنا عن المجتمع أطول مدة يجيزها قانون العقوبات.

ثم أثار مسألة اشتراكي في مؤتمر «البروفنترن»، وقدم للمحكمة نسخة عن صحيفة «التايمز» اللندنية التي نشرت خبراً يقول إن مندوب الحزب الشيوعي الفلسطيني، واسمه «الرفيق سعدي»، قد ألقى خطاباً في المؤتمر.. ثم التفت إليّ وقال: وهذا هو الرفيق سعدي.. هذا هو الشخص الذي سافر إلى موسكو بجواز سفر مزور، وعاد به إلى فلسطين عن طريق القنطرة، مضللاً ضابط الحدود البريطاني، وقد استدعيناه لسماع شهادته أيضاً.

وشرعت المحكمة في سماع أقوال الشهود، فتقدم أولاً مستر ركس وزميله الضابط اليهودي شلومو، وحدّثا المحكمة كيف داهمونا في القدس، وكيف عثروا على مناشير سرية في غرفتنا في يافا. وأكدا للمحكمة أننا لسنا من الأعضاء العاديين في الحزب وإنما نحن من الزعماء الخطرين. ثم وجه ركس الكلام إلى القاضي عزيز الداوودي وقال: وهذا هو الشاهد أحمد صدقي، شقيق المتهم نجاتي صدقي، قد جاء إلى المحكمة مختاراً ليدلي بأقوال تثبت صحة التهم الموجهة ضد شقيقه بالذات.

امتدت الأعناق نحو أحمد الضعيف المسكين، والذي تذوّق طعم السجن والإهانة والضرب والملاحقة. فتقدم من منصة الشهادة وأقسم اليمين، وراح يتحدث بكلام مرسوم له، وهو أنه شقيقي ويحبني، غير أنه يشفق عليّ لارتمائي في أحضان الحركات الهدامة، ولطالما وجه إليّ النصيحة تلو النصيحة لكي أنسحب من الحزب، لكني لم أعر نصائحه هذه آذاناً صاغية بسبب تصلبي وتعنتي.

سأله القاضي: هل تعرضت لضغط للإدلاء بهذه الشهادة؟..

فأجاب: كلا.. إنني أقدم هذه الشهادة مختاراً، وما هدفي منها سوى تخفيف الحكم عن أخي!..

ثم استمعت المحكمة إلى شهادة الضابط البريطاني الذي حقق معي في محطة القنطرة ليلاً، بعد عودتي من مؤتمر «البروفنترن».. فوقف في منصة الشهادة وأقسم اليمين وقال: نعم.. إن هذا المتهم بالذات هو الذي حققت معه في القنطرة ليلاً وهو يحمل جواز سفر اشتبهت بأنه مزور، ولم أستطع توقيفه وقتئذ.

القاضي: لعله ليس الشخص الذي مرّ بالقنطرة..

الضابط: إنه هو بالذات.. لقد أجروا له تشخيصاً في السجن بين عدد من المساجين، وأخرجته من بينهم..

فوجه القاضي السؤال إليّ وقال: ماذا تقول في شهادة الضابط؟..

قلت: منذ متى حصل هذا الحادث الذي يدعيه الضابط؟..

قال الضابط: منذ ستة أشهر تقريباً..

قلت: كيف يتمكن الضابط من أن يتذكر وجه مسافر مر به ليلاً ومنذ ستة أشهر مع العلم أن عشرات المسافرين يمرون من محطة القنطرة يومياً.

القاضي: ولكن الضابط يقول أنه تحقق منك أثناء التشخيص في السجن.

قلت: من السهل إجراء مثل هذا التشخيص، إذ إن رجال الأمن قد أرشدوا الضابط خفية إلى المكان الذي أقف فيه، فجاء وأشار إليّ.

القاضي: ألم تغادر البلاد هذه السنة؟..

قلت: كلا..

القاضي: لقد سقطت تهمة حيازة جواز سفر مزور عن المتهم وبرّئ منها.. ويحصر اتهامه بحيازة مناشير تحريضية.. وانتسابه إلى جمعية غير قانونية.. وَلِتُجْرَ محاكمته هو ورفيقه في إطار هاتين التهمتين، وفقاً للمادة كذا وكذا من قانون العقوبات.

ودار نقاش حول المناشير التي دسّها رجال التحرّي في غرفتنا فأنكرنا معرفتها، ونفينا أن تكون لنا.

وكان رد القاضي إن هذه المناشير هي دليل مادي لم نستطع إثبات براءتنا منها.

ثم سألني: هل أنت منتسب إلى جمعية سرية تدعى الحزب الشيوعي الفلسطيني؟..

قلت: نعم..

وهنا ضجت المحكمة، وضج معها محامينا..

القاضي: وهل تعترف أنك أحد قادة هذا الحزب..

قلت: نعم..

فاشتد اللغط بين الحضور، والقاضي يطرق الطاولة مطالباً الحضور بالتزام الصمت.. ثم نهض محامي الدفاع وقال: ليس لدى المحكمة أي دليل يدين موكلي وزميله الصامت سوى هذا الاعتراف. وعلى ذلك أسأل المحكمة الموقرة أن تأخذ هذا المسلك الصريح والجريء بالاعتبار، وأن يكون حكمها مخففاً جداً.

رفعت الجلسة للتداول بين القاضيين لفترة ربع ساعة، ثم دخلا قاعة المحكمة ثانية، وصاح الحاجب نهوض!..

وتلا عزيز بك الداوودي القرار التالي: «لقد نظرت المحكمة المركزية المنعقدة في يافا في ٢٨ أيار [مايو] سنة ١٩٣١، في قضية المتهمين نجاتي صدقي ومحمود المغربي، فتأكد لها بالدليل المادي المتعلق بحيازتهما المناشير السرية، وبالاعتراف الصريح من المتهمين، انتسابهما إلى جمعية غير قانونية وتزعمهما جمعية تدين بمبادئ هدامة، وترمي إلى إثارة العمال والفلاحين على الرأسماليين وأصحاب الأراضي، وتقويض النظام الاجتماعي الموروث عن طريق العنف المسلح.

«ولذا نحكم عليهما بالسجن مدة سنتين كاملتين، ابتداء من تاريخ توقيفهما.. حكماً قابلاً للاستئناف.»

بعد صدور الحكم قرر رجال الأمن نقلنا إلى السجن المركزي في القدس بالقطار لا بالسيارات، خشية أن يقوم رفاقنا باعتراض هذه السيارات في طريق باب الواد وإطلاق سراحنا.. وفي القطار جلس إلى جانبي حارس إنكليزي، وحين مررنا بجماعة من الفلاحين يعملون في الحقل، أطل الإنكليزي من النافذة وقال لي: ها هم أصدقاؤك!.. ثم استدار قائلاً: إنني أقول ذلك جاداً لا مستهزئاً..

ووصل القطار إلى محطة القدس مساء، لنستقل منها سيارة السجن.. ولشد ما كانت دهشتنا عظيمة حين شاهدنا سيارة ضخمة مكتظة بالجنود الإنكليز المدججين بالسلاح جاؤوا لمواكبة سيارتنا إلى سجن القدس المركزي.

السجن المركزي في «المسكوبية»: عمد الروس في سنة ١٨٦٠ إلى تشييد مركز ديني وثقافي وسياسي في بقعة من الأرض تقع إلى الشمال من سور القدس، عرفها أهل البلاد باسم «المسكوبية».. وأن الحجاج الروس الذين يفدون إلى الديار المقدسة بأعداد كبيرة، يحلون في هذه البقعة حيث يجدون كل أسباب العناية والراحة والحماية.

تقوم في هذه البقعة مجموعة من الأبنية الحجرية الفخمة، كان الروس يفيدون منها في مآرب شتى، إلى أن احتل الإنكليز البلاد سنة ١٩١٧ فوضعوا أيديهم على

الأملاك الروسية هذه، وحولوها إلى خدمة مآربهم الاستعمارية.. وهذه صورة عنها في العهدين:

للمسكوبية مدخل جنوبي يؤدي مباشرة إلى المستشفى الروسي، المستشفى الحكومي في عهد الانتداب. وتقع إلى جانبه دار الاستقبال (ظلت كذلك فيما بعد)، فالمكاتب الإدارية للروس (دوائر العدلية)، فالقنصلية الروسية (المحاكم)، فدار الكهنة ودار النساء (ظلتا هناك فيما بعد)، فدار الأشراف الروس (دوائر البوليس، والسي.آي.دي.)، أي دائرة تحري الجرائم.

وتنتصف ساحة المسكوبية كنيسة كبيرة مشيدة وفق الطراز الكنسي الروسي الجميل، ذات قباب سبع مصفحة بالرصاص، تعرف باسم «سفياتايا ترويتسا» (Sviataia Troitsa)، أي الثالوث الأقدس.. وكنيسة أصغر تعرف باسم كنيسة «ألكسندر نيفسكي» (١٢٢٠ ـ ١٢٦٣م)، من مشاهير قادة الروس، فاتح السويد والدانمارك ومحرر الروس من الجزية التترية، وأحد القديسين في الكنيسة الروسية. وإلى الشرق من هاتين الكنيستين دار الحجاج من عامة الروس، فأصبحت في ظل الانتداب «السجن المركزي».. وفي خارج السور من الناحية الشمالية للمسكوبية بناية شيدتها الجمعية الفلسطينية ـ الروسية، التي كانت ترعاها الأسرة القيصرية مباشرة، سنة ١٨٨٧، واتخذتها قاعدة للنشاط الديني والتعليمي والسياسي من أجل «إنقاذ الديار المقدسة» من السلطنة العثمانية.

فالمَسوق إلى السجن المركزي، بيت الحجاج الشعبيين الروس سابقاً، يقطع ساحة المسكوبية في حوالي مئة متر تقريباً انطلاقاً من دار المحاكم، ويجتاز حاجزاً من الأسلاك الشائكة، ثم يسير في طريق منحدرة إلى أن يبلغ حاجزاً من الأسلاك الشائكة، ثم يسير في طريق منحدرة إلى أن يبلغ حاجزاً آخر من الأسلاك، ثم يقف أمام باب صغير من القضبان الحديدية، فيطأطئ رأسه علامة دخوله باب الخنوع والمذلة، ويلج الباب ليجد نفسه بين أيدي سجانيه، فيطبقون عليه الإجراءات الروتينية، مثل التسجيل، وإعطاء الرقم، وحلق شعر الرأس، وارتداء اللباس الأزرق (إذا كان سجيناً عادياً)، أو الاكتفاء بالتسجيل (إذا كان موقوفاً أو سجيناً لاعتبارات سياسية).. ثم يقودونه إلى غرفة المحكومين إذا كان محكوماً، أو إلى غرفة الموقوفين إذا كان لا يزال رهن التوقيف.

* * *

يشعر السجين في الأسبوع الأول من أيامه في السجن بأنه أتعس مخلوق على وجه البسيطة، محروم من الحرية، من رؤية الشمس، من مشاهدة الأهل والأصدقاء

والأحباء، بل الناس عموماً، ومن تناول الطعام الذي يشتهيه، ومن اللباس الذي يحب.. ولكن ما إن يدخل الأسبوع الثاني حتى يعتاد نظره على محيطه الجديد، وعلى حياته اليومية الرتيبة، وهي النهوض في الساعة السابعة صباحاً، وترتيب الفراش، وتنظيف الغرف، وإخراج «الجردل» إلى المراحيض وغسله، وتناول وجبة الصباح المؤلفة من الشاي وقطعة خبز مع قطعة جبنة أو القليل من الزيت، ثم النزهة في ساحة السجن (أو الذهاب إلى العمل خارج السجن بالنسبة للسجناء العاديين)، ثم العودة إلى الغرف، وتبادل الأحاديث في كل موضوع، ومطالعة الكتب الدينية والأدبية فقط.. ثم تناول «كروانة» الغداء المؤلفة من العدس، أو البصل مع شريحة من اللحم، ثم التزام الهدوء حتى العصر، فتعقبها النزهة في ساحة السجن، وتناول «كروانة» العشاء، ثم إطفاء الأنوار الساعة الثامنة مساء، وتبادل الأحاديث بأصوات خافتة، والنوم على وقع خطوات الحراس، وطرطقة مفاتيحهم.

كانت الحياة في السجن رتيبة، لا تعرف الانفراج النفساني إلاّ بقدوم سجناء جدد يحملون أخبار المجتمع.. وذات يوم حل في السجن للمعالجة الطبية سجين من طولكرم، أقدم على ارتكاب جريمة قتل دفاعاً عن الشرف، وحكم عليه بالأشغال الشاقة خمس عشرة سنة يقضيها في معتقل «عتليت»*.

أفادنا هذا السجين ونحن في ساحة السجن أن المحكومين في معتقل عتليت كانوا يتوقعون نقلنا إليه للعمل في تحطيم الصخور. وقد أخذوا يتنافسون فيما بينهم في أي «باراك»، أي عنبر، سنحل، بقصد تكريمنا والحفاوة بنا. غير أن الحراس أحاطوهم علماً بأن السلطة لن تضعنا بينهم كي لا نؤثر عليهم عقائدياً، وأننا سنقضي مدة الحكم منعزلين في سجن القدس المركزي.

ومما رواه لنا هذا السجين عن معتقل عتليت أن المسؤول عنه جاويش إنكليزي اسمه «دف» (Duff)، مديد القامة، بدين، شرس الطباع، يطيب له أن يطلب من أربعة سجناء، في كل صباح، أن يحملوه على محفّة، ويطوفوا به بين المقالع، والسوط بيده، فيتوقف حيثما يريد ويصرخ بأعلى صوته بالعربية «مين فيكم قبضاي»؟!..

فإذا أخذت النخوة أحدهم وقال «أنا».. هبط «دف» من المحفة وأعمل فيه

* معتقل «عتليت».. يقع في منطقة جبلية صخرية، خلف جبل الكرمل، اتخذها الإنكليز معتقلاً للمحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، حيث يقضون أيامهم في تحطيم الصخور، وغالباً ما يتعرضون لإصابات خطرة أو مميتة.

السوط.. إلاّ إن السجناء كانوا يتحاشون استفزازاته هذه ولا يعيرون كلامه انتباهاً.

أبو جلدة والعرميط: تعرفنا في السجن إلى رجلين أشغلا حكومة الانتداب مدة طويلة في حرب العصابات، وهما أبو جلدة والعرميط..

لقد ألّف هذان الفلاحان عصابة لمحاربة الدولة المنتدبة، مثل كثير من العصابات المنتشرة في البلاد، والمؤلفة في غالبها من الفلاحين الذين باتوا بلا أرض وبلا عمل.

لقد برز هذان الثائران إثر ثورة ١٩٣٠، وألّفا عصابة اتخذت من الجبال مجالاً لأعمالها، واصطدمت مع القوات البريطانية في غير معركة. وقد أراد زعيمها أبو جلدة، وهو رجل نحيل الجسم، قصير القامة، أن يبعد عنه وعن رجاله تهمة الشقاوة، فارتدى لباساً عسكرياً، وقد زين كتفيه بسيفين وثلاث نجوم.. وجر سيفاً صقيلاً طويلاً، له يد مذهبة، وخلع على نفسه لقب «القائد العام». كما نصّب زميله (العرميط)، وهو رجل طويل القامة، قوي البنية، شديد البأس، نائباً له، مطلق الصلاحيات.

وحين شدد الإنكليز الخناق على هذه العصابة تفرقت هنا وهناك، ولجأ أبو جلدة إلى عمان طالباً الحماية من الملك عبد الله. فاستقبله الملك واستمع إليه، غير أنه خرج بنتيجة سلبية، وسلمه للسلطات البريطانية، التي نقلته إلى سجن القدس المركزي. وكانت دوائر الأمن قد اعتقلت في تلك الأثناء زميله العرميط بواسطة أحد الوشاة من أفراد العصابة القدامى.

وبعد توقيف قصير الأمد قدما إلى محكمة الجنايات فأصدرت الحكم بإعدامهما شنقاً.. وأذكر أن أم العرميط قامت بزيارة ابنها في السجن، فقال لها من خلف القضبان «حطي لي في قبري خنجر لأصفي حسابي مع الواشي»!..

وذات يوم من سنة ١٩٣٢ اقتيد العرميط أولاً إلى المشنقة، وبعد ساعة اقتيد أبو جلدة إليها، ماراً بصفين من البوليس الإنكليزي وهم يهتفون «هيب.. هيب.. هيب.. هوراي».

وأذكر بهذه المناسبة أن مدير السجن مستر ستيل هو الذي يتولى تنفيذ أحكام الإعدام، ويتقاضى عن كل محكوم بالموت خمسة جنيهات، إضافة إلى راتبه.

معتقل من كمبردج: حلّ في السجن عنصر سياسي جديد، من غير الشيوعيين وغير الفلاحين الثائرين. إنه وطني أنهى دراسته في جامعة كمبردج سنة ١٩٣١، اسمه واصف كمال.. قاد تظاهرة سياسية في نابلس، فاعتقل وأرسل إلى السجن

المركزي.

أرادوا وضعه معنا في «القاووش»، لكنه أبى ذلك قائلاً إنني وطني، ولا علاقة لي باتجاهات عقائدية اشتراكية.

تحدثت إليه وكان وطنياً حقاً، لا ينتمي إلى هيئة سياسية معينة. وقد لاقى بعض المتاعب في السجن؛ فالفارق شاسع بين منامات جامعة كمبردج ومنامات سجن القدس المركزي.

لا شيء يستحق الذكر في هذه الفترة من السجن سوى أنني تخلصت من حموضة في معدتي كادت تسبب لي قرحة، لأنني كنت مرغماً على اتباع «رجيم» من مأكل السجن.. ثم إنني اغتنمت فرص الفراغ لأتمكن من اللغة الإنكليزية بشكل أعمق وأفضل مستعيناً بقاموس إنكليزي - عربي ألّفه اللبناني المصري شكري أنطوان تابت.

واستمرت الحياة على هذه الوتيرة من السنة الأولى في السجن إلى أن قررنا الإضراب عن تناول الطعام لرداءته، على أن نشفع هذا الإضراب، في حال رفض الإدارة تلبية مطلبنا، بطرطقة صحون الأكل المعدنية على قضبان السجن، وإحداث ضجيج يثير أعصاب باقي المساجين.

العصيان في السجن: ونفذنا هذه الخطة إلى أن جاء مدير السجن مستر ستيل، وهو رجل بدين، قصير القامة، مقيت الهيئة، في العقد السادس من عمره، ووقف خلف قضبان القسم الذي نحل فيه، وقال: ماذا تريدون؟..

قلنا: الأكل رديء..

قال: سأجربه..

وأمسك «كروانة» فيها يخنة البصل، وأدخل أصابعه فيها، وأخرج منها بصلة كبيرة وأكلها، ثم رفع الطاسة إلى فمه ولعق ما فيها من سوائل، وقال:

أكل لذيذ.. أكل شهي.. لماذا ترفضونه!.. وانسحب.

وفي صبيحة اليوم التالي من العصيان، أعدنا الطرطقة والهياج، فردت علينا إدارة السجن بالهجوم، ففتح الحراس الأبواب وعلى رأسهم ضابط السجن وهو يهودي محلي «سفاردي»، واستعملوا العصي لإرغامنا على الجلوس على الأرض.. ثم ولج الغرفة المدير ستيل وقال لي ضاحكاً: «من تغلّب على الثاني أنا أم أنت؟!»..

ثم وقف الحراس في صفين متقابلين، وقال لي ستيل: إن أنظمة السجون البريطانية تقضي بأن يمر قائد العصيان في السجن بين هذين الصفين.. وأُرغمت

على ذلك في حين كانت العصي تنهال عليّ حتى أصبحت خارج الصفين.. ثم حملت إلى المستشفى الحكومي الواقع في ساحة المسكوبية.

بقيت في المستشفى ثلاثة أيام، ثم أعدت إلى السجن حيث تبلغنا أمراً يقضي بنقلي ونقل محمود المغربي إلى قلعة عكا.

قلعة عكا: أقلتنا سيارة البوليس، برفقة سيارة من الجند الإنكليزي، إلى عكا عن طريق رام الله، بير زيت، الناصرة، حيفا. وهناك شاهدنا التلة التي وقف عليها نابليون، وقد انتصبت فوقها وعلى عمود حديدي قبعة معدنية تشبه قبعة الفاتح الفرنسي.. كما شاهدنا القلعة الأثرية التي عاصرت أحداثاً تاريخية كبرى، والتي زج فيها الأمير يوسف الشهابي، ثم أعدم شنقاً بأمر من واليها أحمد باشا الجزار.

فالانتقال إلى قلعة عكا كان نوعاً من السجن والنفي معاً.. لقد وضعونا في مبنى حديث مؤلف من طابق واحد، ويقع ضمن منطقة القلعة، وهو معد في الأصل للمحكومين الأجانب. غير أنهم حولوه إلى سجن للسياسيين، كما أنهم جعلوا ساحته متنزهاً للمساجين المصابين بأمراض عصبية. وكثيراً ما كنا نقضي فترة التنزه معاً، فنتحدث ونمازح، إلى أن تحمس أحدهم واسمه الياس وراح يقلد الخطباء السياسيين بكلام كله هذيان، فقررت إدارة السجن التفريق بين فترة تنزهنا وفترة تنزههم.

وكان يشرف علينا عريف يهودي اسمه أفرام، ومن مهامه حين يقفل علينا باب السجن، التنصت من تحت النوافذ العالية التي تطل على الساحة إلى ما نقول ونتحدث، ونقله إلى مدير قلعة عكا مستر «بايك».

عنّ على بالي الاستفادة من الياس ليراقب العريف أفرام أثناء تنزهه مع زملائه.. فقلت له أريد منك خدمة، فحين يقفل علينا أفرام الباب، ويقف تحت النوافذ يتنصت، إرفع صوتك بالأغنية التي تقول: «ومن الشباك لارمي لك حالي»، فأدرك للتو أن أفرام يتنصت علينا.

قال: ولا يهمك يا نعيم ـ هكذا كان يحب أن يسميني.

في اليوم التالي، وفي ساعة القيلولة، سمعت الياس يغني: «ومن الشباك لارمي لك حالي يا نعيم.. وهاي أفرام واقف تحت الشباك يتنصت عليكم.. أنت سامع يا نعيم.. ومن الشباك لارمي لك حالي»!..

جن جنون العريف أفرام، وهرع إلى «بايك» يقول له لقد استغلوا المجانين أيضاً.. وروى له ما سمع. فأمر مدير قلعة عكا بإبعاد المصابين بالأمراض العصبية

عن ساحة سجننا تماماً. وهكذا تخلصنا من أناس بوسع الإدارة أن تدفعهم ليتحرشوا بنا، وهم لا يتحملون مسؤولية كلامهم أو أفعالهم.

وعلمت بعد أيام أن الياس قفز من على الجسر الممتد بين الخندق والقلعة، لاعتقاده أن حبيبته الميتة ـ وكان قد حدثنا عنها ـ تدعوه إلى اللحاق بها، فسقط على أليته وفارق الحياة.

وتوالت الحياة في قلعة عكا رتيبة، كنا نقضيها في مناقشات عامة وخاصة إلى أن أشرفت مدة السجن على النهاية.. ففي أواخر شهر كانون الأول/ديسمبر من سنة ١٩٣٢ استدعينا إلى مكتب مدير القلعة مستر بايك، وهو مالطي الأصل، الذي أعاد لنا أشياءنا الخاصة، ونقد كل واحد منا مبلغ نصف جنيه، كما تقضي قوانين السجن، لكي نتدبر أمرنا به، ريثما يعود كل منا إلى بيته، ويمارس الحياة العامة من جديد.. فمحمود سافر إلى يافا، أمّا أنا فقد وجدت زوجتي في انتظاري، وسافرنا معاً إلى القدس، لنعيش في جو من العلانية.

استأجرت غرفة في القدس عند أُسرة مسيحية في زقاق المدرسة الأسوجية من حي المصرارة. وهناك حاولت أن أقضي فترة راحة واستجمام على أن تكون في الوقت ذاته منتجة. فاتصلت بالصديق حمدي الحسيني واتفقنا، كما سبق وذكرت، على أن أحرر مقالات لمجلة «العرب»، التي يصدرها في القدس عجاج نويهض، باسم «باحث».

قضينا في هذه الغرفة خمسة أشهر، كنا خلالها خاضعين لمراقبة دقيقة من التحري اليهودي رابينوفتش. فكان في كل صباح ومساء يأتي إلى نافذة الغرفة الواقعة في الطابق الأرضي، ويتمسك بقضبانها الحديدية، ويقفز عالياً لكي يلقي نظرة علينا، فيجدني دائماً أجلس إلى الطاولة وأكتب.

التوقيف الإداري: ويقترب عيد العمال في أول أيار/مايو من سنة ١٩٣٣. ومن عادة البوليس الفلسطيني عشية هذا اليوم أن يقوم بحملة اعتقالات بين أعضاء الحزب، خشية اشتراكهم في تظاهرات أول أيار/مايو، أو بالأحرى يجدها مناسبة لتوقيف من يريد توقيفه وفق قانون منع الجرائم الإداري.

وقد توقعت مثل هذا الأمر بالنسبة لي، فأرسلت زوجتي إلى بيت صديقة لها في القدس، وأمّا طفلتنا دولت فقد أرسلناها إلى موسكو لكي تكون في مأمن من متاعب حياتنا. وما إن حلت عشية عيد العمال حتى اقتحم غرفتي رجلان من التحري، أحدهما عربي من بيت طهبوب، والثاني هو اليهودي رابينوفتش الذي أصر على توقيفي إدارياً، أي بأمر من رئيسه فقط، وأن أقضي الليلة في مركز

بوليس محلة مياشعاريم*، بينما كان زميله العربي يحاول إقناعه بتركي في غرفتي على أن أحضر بنفسي إلى المركز في اليوم التالي. فرفض البوليس اليهودي ذلك، وبعثر أثاث الغرفة، واقتادني إلى المركز. وفي اليوم التالي تم نقلي إلى «القشلاق» في قلعة القدس، حيث قضيت فيه يومين، وفي اليوم الثالث نقلت إلى السجن المركزي تمهيداً لتقديمي إلى المحكمة الإدارية برئاسة حاكم القدس الإداري مستر كيث روش. والمحكمة الإدارية هذه هي بدعة إنكليزية، بوسعها أن توقف المرء وتخضعه للمراقبة وإثبات الوجود خلال سنة كاملة دون أن توجه إليه أية تهمة معينة. وهي تقوم على قاعدة تقول «إذا ما أوقفت إنساناً، وأخضعته لمراقبة يقوم هو بتنفيذها يومياً فإنك بذلك تمنعه من ارتكاب جريمة محتملة»!..

ومن مهازل هذه المحكمة أن يقف شهود الحاكم خلف ستار، فتسمع أصواتهم دون أن ترى لهم وجهاً. فيسأل الحاكم الشاهد، وربما يكون أحد رجال الأمن، ما رأيك في فلان وماذا تعرف عنه؟.. فيجيب الشاهد بما قد لقن، ثم يوجه الحاكم كلاماً إلى الموقوف كله تعنيف وتجريم، ويقرن ذلك بإصدار حكمه القاطع المستند إلى المادة كذا وكذا من قانون منع الجرائم.

وهذا ما حدث لي. فقد أصدر هذا الحاكم قراراً إدارياً بأن أخضع لمراقبة البوليس سنة كاملة على أن أثبت وجودي في دائرة البوليس ثلاث مرات كل يوم!..

وحين عدت إلى غرفتي، بعد توقيف دام أسبوعاً، أخبرتني صاحبة البيت أنها قد ألغت إيجاري الشهري، وتطلب مني إخلاء غرفتي فوراً، لأنها تتجنب المشاكل مع الحكومة.. وأذكر بهذه المناسبة أنني التقيت بهذه السيدة وابنتها الصبية بعد خمس عشرة سنة في بيروت، لاجئتين بائستين في برج حمود، بعد أن استولى اليهود على بيتها، ووضعوه في حراسة أملاك العدو المحتلة.

ثم استأجرت غرفة أخرى في المحلة ذاتها، وكنت أتوجه كل يوم إلى مركز بوليس محلة مياشعاريم لأثبت وجودي أمام ضابط بوليس بريطاني، بينما كان رابينوفتش البغيض يأتي كل مساء إلى النافذة المطلة على الشارع، والمغطاة بالستائر، ويسأل بصوت عال: هل أنت في البيت؟

فأجيبه: نعم..

يقول: ومن عندك؟..

أجيبه: أنا وزوجتي..

---

* مياشعاريم، أي المئة باب.

يقول: حسناً.. برافو.. برافو!..

إن الحكم بإثبات الوجود ثلاث مرات في اليوم أسوأ من الإقامة في السجن، إنه الشلل المطلق، والقرف المتواصل من الدخول إلى مركز البوليس والتوقيع على الدفتر، ورؤية وجوه ساخرة صباحاً مساء.

ومع ذلك فقد أرادت دوائر الأمن إزعاجي بشتى الوسائل، ومن ذلك أنها أوعزت لجميل الشاكر الحسيني أن يطالبني بإيجار البيت الذي كانت اللجنة المركزية قد استأجرته بواسطة جوزف برزلاي في محلة البقعة الفوقا، بين أشجار الصنوبر، ثم اضطرت إلى إخلائه قبل أن تسدد كامل الإيجار.

جاءني صاحب هذا البيت برفقة ولديه الشابين، وعرفني بنفسه قائلاً: أنا فلان.. وأرجو أن تدفع لي القيمة المتبقية من إيجار البيت الذي أقمت فيه مع رفاقك!..

فأفهمته بأنني لم أستأجر بيته، ولم أقم فيه إطلاقاً، وأستغرب كيف يطالبني بإيجار بيت لم أسكنه ولم أوقع على عقد إيجار بصدده..

فألح علي بالدفع وقال أنه سيقاضيني أمام المحاكم، وأن البوليس يشهد في صالحه!..

لقد أصبح الجو لا يطاق، وخاصة بعد أن التقيت في الشارع بالبوليس ابن طهبوب الذي قال لي: أنت لا تعرف كيف تحارب الإنكليز، تعال إلى غرفتي في أملاك المجلس الإسلامي الأعلى في محلة مأمن الله، وأنا أطلعك على مشروع إرهابي يعجبك!!..

وأخيراً قررت اللجنة المركزية أن أترك القدس خفية، وأن أنتقل إلى مقرها الجديد القائم على جبل الكرمل في حيفا.

ونفذنا هذه الخطة بإحكام، وانتقلت إلى حيفا. وفي تلك الأثناء وردت تعليمات من «الكومنترن» بأن أسافر إلى باريس.

الفصل السادس

٨ ـ سنوات باريس

الهرب من المراقبة: تركت فلسطين برفقة زوجتي في شهر حزيران/يونيو من سنة ١٩٣٣، في طريقنا إلى لبنان، مارين بعكا فقرية «البصة»، حيث تولى رجل من أهل هذه القرية نقلنا عبر الحدود على دابتين. وفي منتصف الليل، وبانقضاء أكثر من ساعة شاهدنا أنواراً خافتة، فقال الرجل: «دخلنا أراضي فرنسا»!..

وبعد أن استرحنا في أحد بيوت «علما الشعب» وتناولنا الطعام، تابعنا الرحلة حتى بلغنا سفح الجبال، والسهل المؤدي إلى مدينة صور، وهنا قال لنا الدليل: «لقد انتهت مهمتي، وعليكما أن تجدا وسيلة تنقلكما إلى بيروت.»

ومر بنا في هذه اللحظة قروي، فسأله الدليل أن يؤمن لنا دابة تنقلنا إلى صور لقاء أجر..

قال القروي: إنني ذاهب إلى صور وسأرسل لكما رجلاً مع دابة.. وجلسنا تحت شجرة تحيط بها الصخور مدة ساعة تقريباً إلى أن لاح لنا في الأفق رجل يمتطي ظهر بغل.. فاقترب منا، وكانت زوجتي ترتدي ملاءة وتستر وجهها بمنديل.. ثم سلم وقال: تفضلا واركبا هذا البغل إلى صور لقاء ليرة!..

وركبت البغل، وأردفت زوجتي، وسرنا في الطريق إلى صور. وما إن بلغنا أحد الروافد التي تصب في البحر المتوسط وإذ بثلة من رجال الدرك تقبل نحونا، فأدركت للتو أن الرجل الذي يرافقنا قد أوعز للدرك أننا هاربان من فلسطين..

قال العريف: أين جواز سفركما؟..

فأبرزت له جواز سفري وأفهمته أنني لم آت عن طريق الناقورة الرسمي لأنني اتفقت مع ابنة عمي على الزواج رغم إرادة أهلها، وأن قراننا سيتم في بيروت..

فوجه العريف السؤال إلى زوجتي المتحجبة: أحقيق ما يقوله ابن عمك؟..

فأومأت رأسها بالإيجاب..

ثم اقترب مني المكاري وقال هامساً: «إعط الأفندي ثلاث ليرات!»...

نقدت الدركي الليرات الثلاث ـ وكانت لليرة قيمة شرائية قوية في ذلك الوقت ـ وتابعنا الرحلة إلى صور، حيث استأجرت سيارة فورد نقلتنا إلى بيروت،

وأنزلتنا حسب طلبي عند مدخل حديقة الصنائع. وهنا التقيت بنخمان ليتفينسكي وزوجته أنيوتا، حسب اتفاق مسبق، ونقلانا إلى الشقة التي ينزلان فيها في محلة الصنائع، وعلمنا منهما أنهما يزمعان السفر إلى باريس للإقامة فيها نهائياً. . وبقينا في ضيافتهما أسبوعاً كاملاً، ثم تابعنا الرحلة إلى إستنبول في قطار الشرق السريع. وهناك التقينا بنخمان وزوجته ثانية، وقمنا بجولات سياحية في الأماكن الأثرية وفي البوسفور. ثم تم الاتفاق على أن تسافر زوجتي برفقتهما إلى فيينا، وأن أسافر أنا بمفردي، زيادة في الحذر، على أن نلتقي هناك في فندق «بريستول».

ركبت القطار إلى فيينا. فحين توقف في محطة صوفيا استرعت انتباهي وسيلة للدعاية مستغربة، إذ علقت السلطات الملكية البلغارية فوق باب المحطة رغيفاً أسود تعافه النفس، بحيث يراه كل مسافر، وقد كتبت تحته عبارة تقول: «هذا هو الخبز الذي يأكله الروس»!. .

ثم تحرك القطار في طريقه غرباً إلى أن توقف في محطة بلغراد الملكية. وهناك دخل بعض رجال الأمن القطار بقصد المراقبة والتفتيش. . كنت أجلس هادئاً وأطالع مجلة إنكليزية لها غلاف أحمر، فتقدم أحدهم وانتزع المجلة من يدي، فوجدها مجلة إنكليزية عادية وليست يسارية كما خُيل له فأعادها إليّ. ثم جاء رئيسه وأخذ يحقق معي، ويحدثني بالتركية ظاناً أنني من أهالي الصرب الثائرين على الحكم اليوغسلافي. وسرعان ما تبين له خطؤه وغادر العربة والقطار.

وفي الصباح الباكر كان القطار يدخل فيينا، فتوجهت رأساً إلى فندق «بريستول»، حيث التقيت بزوجتي ونخمان وأنيوتا.

قضينا في فيينا ثلاثة أيام زرنا في أثنائها قصر شونبرون، والمسرح الإمبراطوري، وقصر هيلدن، وقصر بلفيدير، ومدينة الملاهي «البراتِر»، وكاتدرائية فوتيف البديعة الهندسة، وكاتدرائية سان ستيفان الخلابة، ودار الأوبرا، وغيرها من الأماكن التي تستأثر بقلب الزائر لهذه المدينة الخالدة.

ومن فيينا افترقت عن زوجتي، فقد توجهت هي إلى موسكو لتكون إلى جانب ابنتنا دولت لبعض الوقت. وأمّا أنا فقد توجهت إلى باريس، ونزلت في فندق «مونت بلان» في الحي اللاتيني، إلى أن تم لقائي بمندوب الكومنترن في العاصمة الفرنسية الرفيقة «رازوموفا»، وهي زوجة سابقة للرفيق «ماديار»، أحد رجال الكومنترن البارزين. وقد بلغني فيما بعد أنه كان في عداد المغضوب عليهم في العهد الستاليني وقد اختفت آثاره.

وُضعت في باريس رسمياً بتصرف رازوموفا، المتصلة بالحزب الشيوعي الفرنسي، ونقلت من الفندق إلى بيت قديم قريب من «غار دو نورد»، أي محطة

الشمال للسكك الحديدية، الواقعة في وسط باريس، وغير بعيد عن مقر الحزب الشيوعي الفرنسي. وقد عهد إلى فتاة باريسية اسمها «سوزان» أمر العناية بي. فكانت تأتيني في كل صباح بما يلزمني من حاجات، وتقفل عليّ الباب لتعود ثانية مساء لتبلغني ما تلقته من الرفيقة رازوموفا من تعليمات.

مكثت على هذه الحال مدة أسبوعين على وجه التقريب، حتى تم الاتفاق على إصدار مطبوعة شهرية باللغة العربية.

صحيفة «الشرق العربي»: أطلقنا على هذه المطبوعة اسم «الشرق العربي»، صحيفة شهرية يحررها مصطفى العمري، وهو اسم مستعار اتخذته لنفسي.. أمّا مديرها المسؤول فهو رجل فرنسي شيوعي لا يفقه من اللغة العربية شيئاً، ثم عثرنا على مطبعة وحيدة في باريس تحتوي على أحرف عربية، وتستخدم عاملاً فرنسياً ينضد الأحرف العربية بالنظر، وقد سبق لهذه المطبعة أن أصدرت بعض المطبوعات باللغة العربية في مناسبات شتى.

ثم اتخذنا مكتباً شكلياً للصحيفة في أحد متفرعات شارع غابتا، تشرف عليه سوزان.. وأمّا أنا، وبعد أن عادت زوجتي من زيارة ابتنا دولت، فقد جعلت مكان سكني خارج باريس في ضاحية «كلامار»، وفيه كنت أحرر الصحيفة، وأوضبها، وأعدها للشحن إلى شمال إفريقيا والبلاد العربية، وأتلقى الرسائل والصحف والمجلات المتبادلة.. وقد صدر العدد الأول من الصحيفة في شهر أيلول/ سبتمبر سنة ١٩٣٣.

وكان نهج هذه الصحيفة العربية: الدعوة إلى مناهضة الاستعمار في العالم العربي، ومناصرة الحركات الوطنية الاستقلالية، وتأييد كل حركة ترمي إلى الإصلاح الاجتماعي في صفوف جمهرة الكادحين.. وقد ركزت جل اهتمامها في الدفاع عن عرب شمال إفريقيا، تساند حزب العمل الدستوري في تونس، وجماعة العلماء المسلمين في الجزائر، وتشن حملات على دولة الانتداب والصهيونية في فلسطين، وتطالب باستقلال سورية ولبنان، وتجابه سياسة فرق تسد في العراق، وتؤيد نضال حزب الوفد في مصر.

وكانت الصحيفة توزع في العالم العربي خفية، وترسل في معظم الحالات طيّ صحف فرنسية، فيتلقفها القراء بشغف، ويكاتبونها ويرسلون لها مقالاتهم وتعليقاتهم رغم الرقابة الشديدة التي كانت مفروضة عليها في فرنسا وفي البلاد العربية المحتلة.

وما إن صدر العدد الأول منها حتى هبت دوائر الأمن الفرنسية تبحث عن



نجاتي صدقي في باريس، ١٩٣٤

أصحاب هذه الصحيفة، وعن هيئة تحريرها وإدارتها، إلى أن فوجئتُ ذات يوم بدخول أحد رجال الأمن إلى مكتب الصحيفة. فوجدني فيها مع السكرتيرة سوزان، فنظر إليّ مبتسماً، فبادلته الابتسامة بمثلها دون أن أظهر أي انفعال. فقدم لي نفسه بأنه مفتش في الأمن، ومهمته التعرف إلى مكتب هذه الصحيفة الجديدة. ولم يزد على ذلك بكلمة واحدة وانصرف، بعد أن طبع ملامحي وملابسي في مخيلته. فقرّ رأينا بعد هذه الزيارة على ابتعادي كلية عن المكتب. وأول ما فعلته أن استبدلت ملابسي وقبعتي ومعطفي بغيرها، لأنها تؤلف القسم المكمل للهيئة والملامح، فإذا ما تغيرت تغير الانطباع الخارجي المأخوذ عني إلى أكثر من النصف، فتظل تقاطيع الوجه ولون البشرة، وهذه وحدها غير كافية لتحديد الشخصية، لا سيما وأن في باريس الآلاف من الشرقيين الذين يشاطرونني تقاطيع الوجه ولون البشرة.

أمّا أنا فقد عرفت المفتش ورسمت هيأته في مخيلتي تماماً. فهو قصير القامة، مستدير الوجه، مليء الجسم، يرتدي معطفاً أسود، ويضع على رأسه قبعة سوداء مكورة الشكل.. صادفته مرة في «المترو»، فنظر إليّ مبتسماً، فنظرت إليه مستغرباً وتابعت طريقي، ثم صادفته مع فريق من معاونيه وأنا أهم بدخول عربة قطار تحت الأرض، فأغلق باب القطار وتحرك قبل أن يبلغوه. والتقيت به وأنا خارج من دار للسينما، وكنت برفقة فتاة تشبه سوزان، فتقدم منا مع معاونيه، غير أنه ارتد فجأة وقال لهم: «ليست هي».. وبالتالي لست أنا الشخص المطلوب، فأحجموا عن التعرض لحرية شخص لا يقصدونه.. وكانت آخر مرة رأيته فيها في ضاحية «كلامار»، حيث كنت أقيم، فحنى رأسه مبتسماً كأنما يريد أن يرى رد الفعل، فأجبته بنظرات كلها استهجان واستغراب، فتيقن نهائياً بأن الشخص الذي رآه في مكتب الصحيفة قد تلاشت آثاره تماماً.

ولمّا عجزت دوائر الأمن عن معرفة محرر الصحيفة، اتبعت مخططاً آخر. فقد أوفدت إلى مكتب الصحيفة تحرياً مديد القامة، جميل المحيا، فراح هذا يتودد إلى سوزان ويدعوها لتناول العشاء أو الذهاب معاً إلى دار السينما. فصدته بلباقة الفتاة الفرنسية، قائلة أنها مخطوبة ولا تبحث عن خاطب ثان.

وكانت محاولة عجيبة لمعرفة عنوان سكني عن طريق العالم العربي.. فقد وجّه لي أحدهم من القاهرة كتاباً يسألني فيه أن أرسل له أية قسيمة من قسائم الكهرباء الخاصة ببيتي في باريس، لكي يعرف الفارق في أسعار الوحدة الكهربائية بين باريس والقاهرة!..

وقد أهملت طلبه هذا وألقيت كتابه في سلة المهملات. قررت دوائر الأمن الفرنسية، بعد فشل كل هذه المحاولات، إجراء «استفسار» من المدير المسؤول عن

الصحيفة العربية التي يتحمل مسؤوليتها السياسية، وكان جوابه أنه مسؤول فعلاً عن هذه الصحيفة مع أنه لا يعرف اللغة العربية، غير أن محرريها يترجمون له أهم مواضيعها ويوافق عليها، وأنه فرنسي ويتمتع بكامل حقوقه السياسية، والدستور يمنحه حق القول والكتابة والتظاهر.

ولمّا لم تجد تلك الدوائر مبرراً قانونياً للتحقيق مع الرجل أو توقيفه تركته وشأنه. وظلت تلاحق سوزان دون طائل. وظلت الصحيفة تصدر شهرياً حتى أوائل صيف سنة ١٩٣٦، وقت أن عطلها رئيس الوزارة الفرنسي المسيو بيار لافال، بمرسوم خاص.

فالرئيس الفرنسي هذا تعاون في سني الحرب العالمية الثانية مع النازيين الألمان، وفي ختامها حكم عليه بالإعدام غيابياً. ولمّا جاؤوا للقبض عليه، حاول الانتحار بأن أطلق رصاصة على نفسه، لكنه لم يمت. فحمل جريحاً إلى سجن «سن سن» في باريس، وأسند إلى الجدار وأعدم رمياً بالرصاص في سنة ١٩٤٥ (ولد سنة ١٨٨٣).

الفصل التاسع

٩ ـ العودة إلى موسكو

مغامرة في القطار: قالت لي الرفيقة رازوموفا، بعد تعطيل صحيفة «الشرق العربي»، إن عليّ أن أتوجه إلى موسكو، للبحث في مهماتي في المستقبل القريب.

توجهت إلى العاصمة السوفياتية في القطار عبر ألمانيا وبولونيا. وكانت هذه الرحلة تنطوي على مجازفة رهيبة، إذ إن الرفاق في باريس زودوني بجواز سفر فلسطيني مزيف، صاحبه عربي يمتهن التجارة، غير أن اسمه يثير الالتباس لجهة انتمائه الطائفي.. وحين اقترب القطار من منطقة برلين، دلف المفتشون بصحبة رجال الغستابو، وكانت النازية في ذلك الوقت تستشري في ألمانيا، وتعد العدة للمجازر في بلادها وفي البلاد المجاورة. وبعد أن تفحصوا جواز سفري، وعرفوا البلد الذي أقصده، راحوا يتبادلون نظرات الاستفسار والاستغراب، وسمعتهم يتساءلون بالألمانية «أرابيشه»، «محمدانيشه»، «بالستينيشه يوده»؟.. أي هل هو عربي، مسلم، أم فلسطيني يهودي!.. فلم أبد أي ارتباك أو انزعاج، والتزمت مكاني وكأن الأمر لا يعنيني قطعاً.. ثم تهامسوا فيما بينهم وأعادوا لي جواز سفري.

وبعد ربع ساعة دخلت إلى المقصورة فتاة ألمانية جميلة المحيا، وجلست أمامي مباشرة، ثم شرعت تحدثني قائلة:

س: هل السيد يتكلم الألمانية؟..

ج: كلا.. أتكلم الإنكليزية..

فقالت بالإنكليزية: إنني أجيد هذه اللغة أيضاً، ما هي جنسيتك؟..

ج: عربي من فلسطين..

س: هل أنت سائح؟..

ج: كلا.. تاجر..

س: ستتوقف في برلين طبعاً؟..

ج: كلا.. ترانزيت..

س: لماذا لا تتوقف في برلين، هذه عاصمة جميلة، ستجد فيها كل البضائع

التي تهمك.. فيها متنزهات، وملاه كثيرة.. إغتنم هذه الفرصة وتوقف في برلين، وسأكون مرشدة لك..

قلت: شكراً جزيلاً أيتها الآنسة، إنه للطف كبير منك، غير أنني مضطر إلى متابعة سفري لإنجاز اتفاقات تجارية..

قالت: وما هي وجهتك؟..

قلت: موسكو..

قالت: أو.. وما هي المنتجات الروسية التي تبيعها؟..

قلت: الأخشاب، الأسماك، الفراء، وغيرها..

وفي هذه الأثناء كان القطار يدخل محطة برلين، وتلح عليّ الفتاة الألمانية بزيارة العاصمة الألمانية، وأنا أبدي اعتذاري لها. وغادرت القطار.

والأمر الذي استنتجته أن هذه الفتاة عميلة لرجال الأمن النازيين، فقد أرادوا بواسطتها معرفة فيما إذا كنت سأتوقف في برلين للقيام بمهمة ما.. غير أنهم تيقنوا أنني لا أعير برلين اهتماماً، بل ولا أية منطقة من ألمانيا بأسرها. وبقيت تحت رقابتهم حتى خروج القطار من الحدود الألمانية، والدخول في أراضي بولونيا.

لقد سببت لي هذه الرحلة إزعاجاً جماً. فمروري بألمانيا النازية بحد ذاته كان مغامرة بشعة، بقطع النظر عن جواز السفر الذي أحمله، والمسؤول عنه ولا ريب هو رازومونا أولاً، والرفاق الفرنسيون ثانياً.

نقاش في الكومنترن: وفي موسكو التقيت بخالد بكداش، ونزلنا في بناية «الوكس»، في شارع تفرسكوي (غوركي اليوم). وكانت لنا مناظرات في مستقبل العالم العربي. فهو يتمسك بوجهة نظر ستالين القائلة برجعية شعار الوحدة العربية، وأنا أتمسك بوجهة نظر عملية تقول بوحدة أوضاع الشعوب العربية وبوحدة المصير والهدف..

ويرجع تمسك بكداش بوجهة نظره هذه إلى إثبات تمسكه بالطاعة العمياء لتعاليم ستالين، وشعوره الملازم بأن الوحدة العربية حركة مناهضة لمصالح الأقليات القومية، بما في ذلك الأقلية الكردية التي ينتمي إليها.

واحتكمنا في الموضوع إلى الرفيق جورجي ديميتروف،[44] رئيس منظمة الكومنترن في ذلك الحين، وبحضور الرفيق مانولسكي رئيس القسم الشرقي في المنظمة، والزعيم ماو تسي تونغ (كان وقتئذ في الثالثة والأربعين من عمره وفي زيارة لموسكو)، ومحمود المغربي، وشخص أرمني سوفياتي اسمه «كالجيان».. ودافعت عن رأيي في موضوع الوحدة العربية. قلت، محاولاً إقناع ديميتروف، إن

وضع الشعوب العربية يختلف في جوهره عن وضع شعوب يوغسلافيا مثلاً، فالعرب يتحدرون من أصل واحد، ويشتركون في اللغة والأرض والاقتصاد والثقافة والتاريخ والحركة التحررية.. فلم يقتنع ديميتروف بكلامي هذا بسبب تأثره بالأوضاع الانفصالية البلقانية، وشعوبها المختلفة قومياً، ولغة، وعقيدة، وثقافة.. فتدخل الزعيم الصيني وأيدني في وجهة نظري مستنداً إلى نقطة أساسية واحدة، وهي أن الوحدة العربية قوة جامعة في مقاومة الاستعمار، مهملاً البحث في أية نوازع أُخرى تتمثل في القومية العربية، وفتوحات العرب التاريخية، وانتشار الإسلام.

والواقع أن هذه النقاط لم تكن مدار بحث، وجل ما كنت أرمي إليه هو التوجيه السياسي السليم في إطار الحركة الوطنية العربية، وعدم الانعزال عن ركب الشعوب العربية في سعيها من أجل الاستقلال وسيادة العدالة الاجتماعية.

وقد أُعجب مانولسكي بموقفي ودفاعي، وقال لي بالروسية ممازحاً: «يظهر أننا بعثنا فيك الروح الوطنية»!..

أمّا كالجيان، فقال معلقاً: «إنك تحاور بجدارة»..

وفي اليوم التالي استدعاني مانولسكي إلى مكتبه، وكان بكداش حاضراً، وقال لي ستسافر إلى طشقند، عاصمة أوزبكستان، لتطلع على الطريقة التي اتبعها الاتحاد السوفياتي في حل المسألة الوطنية.. وما إن سمع بكداش ذلك حتى قال لمانولسكي بإصرار: وأنا أريد مرافقة الرفيق سعدي في هذه الرحلة!.. فقال له كما تريد..

إلى طشقند: الطريق إلى طشقند طويلة ومرهقة ومملة، يقطعها القطار الروسي القديم في أسبوع كامل ليلاً ونهاراً.. ومحطاته الرئيسية هي موسكو، ريازان، كويبشيف، أورالسك، طشقند.. والمسافرون هم رجال من الجيش، ومزارعون، وموظفون، وعناصر من شعوب شرق الاتحاد السوفياتي، يقتلون الضجر بشرب الفودكا والنبيذ والشاي، والغناء والعزف على البلالايكا (آلة موسيقية مثلثة الأطراف يعزف عليها بمجموعة أصابع اليد)، أو الهارمونيا.

قال لي أحد المسافرين الفلاحين ونحن في مطعم القطار، وكان مخموراً: من أي بلاد أتيتما؟..

قلت: من بلاد العرب..

قال: أوح.. وهرش رأسه.. وماذا تفعلان في هذه الديار؟..

قلت: إننا نقوم بزيارة تعارف وصداقة..

فهز رأسه غير مصدق، وغمز بعينيه، ومشط لحيته بأصابع يده وقال: أنا أدرى الناس بالهدف الذي ترميان إليه من هذه السياحة!..

ومن طريف ما حدث لي في القطار أن اجتمعت بفريق من ضباط الجيش الأحمر، وكانوا ينتقلون من كويبشيف إلى أورالسك، ورحنا نتبادل الأحاديث العامة والسياسية، ثم أدرنا كؤوس الفودكا، فلعبت الخمرة في رأسي، لكنني كنت واعياً بنسبة خمسين بالمئة.. وإذ أحد الضباط الروس يميل عليّ ويسألني بالروسية: من أنتما؟.. من أرسلكما؟.. ما هي مهمتكما؟.. أفصح القول لمصلحة من تعملان؟!..

فأجبته بصوت مخمور: «إننا عرب.. أرسلنا الكومنترن.. مهمتنا زيارة طشقند.. ونعمل لمصلحة الثورة العالمية!..».

وهنا تيقن الضابط أنه مخطئ وكف عن طرح الأسئلة. ولمّا طلع الصباح كان فريق الضباط قد غادر القطار.

فالرحلة إلى طشقند بالقطار قابضة للنفس ورتيبة، فكيفما تطلع المرء لا يرى إلاّ قفاراً (قفار آسيا الوسطى)، ولا يحس إلاّ بصقيع يخترق العظم، ولا يركن إلى الراحة النفسية إلاّ عندما يتوقف القطار في إحدى المحطات ليتزود بالماء والوقود، وليتزود المسافرون بالماء المغلي لصنع الشاي، إذ في كل محطة صهريج ماء في غليان دائم.

وأخيراً وصلنا إلى طشقند عاصمة أوزبكستان، في أواسط شهر تموز/يوليو سنة ١٩٣٦، وحللنا في فندق «مير». وفي اليوم التالي جاءنا رسول من مكتب العلاقات العامة، ورسم لنا منهجاً لزيارة العاصمة.. وبدأناها بزيارة أبرز شخصيات جمهورية أوزبكستان وقتئذ وهم: آخون بابايف رئيس الجمهورية، وأكمل إكراموف رئيس الحزب، وفيض الله حجايف رئيس الوزراء.

فرئيس الجمهورية رجل قد تخطى السبعين من عمره، مديد القامة، خافت الصوت، طيب القلب، ومركزه إداري رمزي.. ورئيس الحزب رجل في الخمسين من عمره، غير بدين، عصبي المزاج، متوسط القامة، مكتنز الجسم، متحدث، جم النشاط.. كان قبل الثورة واجتياح الجيش الأحمر لبلاد تركستان، عضواً بارزاً في حزب وطني تركستاني يدعى «حزب جديدي»، ويعرف هذا الحزب أيضاً باسم «البصمجية»، أي الذين يجمعون التواقيع الشعبية من أجل حرية تركستان واستقلالها.

ومع اشتداد الدعاية البلشفية ودعوتها إلى جعل بلاد تركستان جمهوريات سوفياتية تدين بالمبادئ الماركسية، وقع الصدام بين القوة الحاكمة الجديدة، وحزب جديدي أو «البصمجية». ودارت بين الطرفين معارك مسلحة حامية الوطيس،

انتهت بانتصار الروس والبلاشفة المحليين. وتحالف الفريق الوطني التركستاني اليساري مع الروس الحمر، وكان فيض الله حجايف في طليعتهم، ثم انتسب إلى الحركة الشيوعية الأوزبكية، وتسلم مقاليد رئاسة الوزراء..

أوزبكستان ومعارضة بوخارين: كانت تجتاح الاتحاد السوفياتي في الفترة التي زرت فيها أوزبكستان موجتان من المعارضة لسياسة ستالين، وهما: المعارضة اليسارية وعلى رأسها ليون تروتسكي، وقد أتينا على ذكرها في مكان آخر من هذا الكتاب.. والمعارضة اليمينية وعلى رأسها نيقولاي بوخارين وهو بحاثة في الماركسية قديم، له مؤلفات في العلوم الاقتصادية، والمادية التاريخية. وكان إبان الحرب الأهلية في روسيا عضواً في المكتب السياسي الذي ضم لينين، وتروتسكي، وستالين، وكامينيف، وبوخارين. وقد أسندت إليه شؤون الصحافة والدعاية، وهو واضع الدستور السوفياتي الحالي.

وتتلخص معارضة بوخارين ـ ريكوف في مناهضة المزارع التعاونية، والاعتماد على صغار أغنياء المزارعين (بقايا العهد السابق) المعروفين باسم «الكولاك»* ـ فهم حسب رأيه سائرون إلى الاندماج في الاشتراكية ـ وعدم التخوف من إثراء العناصر البورجوازية المنتجة والتي لا تشكل خطراً على النظام الاشتراكي، وعدم الاندفاع في حقل الصناعة الثقيلة التي تنتج «آلات الإنتاج»، وتنشيط الصناعة الخفيفة التي تنتج مواد «الاستهلاك»..

وكانت النتيجة أن طرد بوخارين من الحزب، ثم اعتقل، وحوكم، وأعدم مع جماعة الـ ٢١ سنة ١٩٣٨. أمّا التهم التي وجهت إلى اليسار واليمين معاً، فهي: «الخيانة؛ الجاسوسية؛ التخريب؛ الإرهاب؛ العمالة للدول الأجنبية منذ بداية ثورة ١٩١٧؛ الشروع في عقد اتفاقيات سرية مع النازيين واليابانيين لتجزئة الاتحاد السوفياتي.»

والحديث عن بوخارين ومعارضته يعود بنا إلى أوزبكستان.. فالدستور السوفياتي، وهو كما أسلفنا من وضع بوخارين، ينص في «المادة ١٧» على أن «حرية الانفصال عن الاتحاد السوفياتي مؤمنة لكل جمهورية في الاتحاد.»

كما أن «المادة ١٨أ» تنص على أنه «يحق لكل جمهورية اتحادية أن تقيم صلات مباشرة مع الدول الأجنبية، وأن تعقد معها اتفاقيات، وتبادلاً دبلوماسياً،

* المعنى الحرفي لهذه الكلمة هو «قبضة اليد». وكانت تطلق قبل الثورة على التاجر الجامد الكف، أو على المرابي الشحيح... ثم عادت تطلق بعد الثورة على أي مزارع يعتمد على العمل المأجور.

وتمثيلاً قنصلياً.»

فهاتان المادتان شجعتا رئيس وزراء أوزبكستان فيض الله حجايف، ورئيس الحزب الشيوعي الأوزبكي أكمل إكراموف، على المطالبة بتحقيق «المادة ١٨أ»، بداعي الإسراع في تطوير أوزبكستان، والانفتاح على العالم الشرقي منه والغربي.

وكانت النتيجة أن اعتقل حجايف وإكراموف واتهما بالتعاون مع المعارضة البوخارينية، وأعدما مع جماعة الـ ٢١. والمعروف عن أكمل إكراموف أنه كان مقرباً من ستالين، ويتمتع بمعزته، ومع ذلك لم يغفر له زلته. وكان السيىء الطالع يتوسل إلى قضاته بقوله: «أبقوا على حياتي وانفوني إلى حيث تريدون»!.. لم يجد إكراموف آذاناً صاغية، لأن تلك الفترة من تاريخ البلاد كانت فترة تصفيات نفسانية وجسدية من كل شكل ونوع، في داخل الحزب وفي الجيش.. وفي الأجواء ما ينذر بهبوب أعاصير تهب من الغرب الألماني، والشرق الياباني؛ إنها بوادر الحرب العالمية الثانية.

دامت إقامتنا في طشقند عشرة أيام، تعرفنا في أثنائها إلى معالم المدينة، وإلى بعض مظاهرها العمرانية والفنية.. وقضينا سهرات ممتعة بصحبة أكمل إكراموف، الذي أطلعنا على صور لستالين، أخذت له مع إكراموف وأصدقائه في طشقند، وهم في جلسة حميمة، رفع فيها التكليف. وقد بدا فيها ستالين وهو يضع على رأسه طاقية أوزبكية منحرفة إلى اليسار، ومتكئاً على كوعه، ويستغرق في الضحك.

ولعبنا البلياردو في بيت الضيافة مع إكراموف وفتاتين تعملان في مكتبه، وتبادلنا الأنخاب في جو حميم، فإذا ما أخذت النشوة إكراموف قال بالعربية: «إسقنيها شراباً طهوراً»!..

وقمنا بزيارة لمتحف طشقند، واطلعنا على بعض المخطوطات العربية، وعلى نسخة مخطوطة نادرة من مصحف عثمان. كما قمنا بزيارة لجامع طشقند، وفيه عدد محدود جداً من المصلين الطاعنين في السن.

وتجولنا في أسواق طشقند القديمة والمبنية من اللَّبِن، إلى الطين المعقود بالقش، وأهم معروضاتها المصنوعات الحريرية الزاهية الألوان. وكنا وقتئذ في شهر الصوم، ومن عادة القوم أن يعلنوا ساعة الإفطار بالنفخ في أبواق طويلة من على سطوح البيوت.

وكانت لنا جولة في جامعة طشقند التي تأسست سنة ١٩٢٠، والتي تضم اثنتي عشرة كلية، وقد خرّجت وتخرّج العديد من أهل الاختصاص، كما تجولنا في غير مؤسسة علمية وصناعية.

وسهرنا في المسرح الأوزبكي الوطني، وشاهدنا أوبريت «ليلى والمجنون»، وفقاً لنص الشاعر الأزربيجاني مير عليشر نوائي المتوفى سنة ٩٠٦م.

وأعدوا لنا استقبالاً في مدرسة تقع خارج طشقند، بعد أن ارتدينا الألبسة الأوزبكية، واندفع التلامذة لاستقبالنا هاتفين مرحبين ملوحين بالأعلام.

ودعينا إلى مآدب سخية يقدمون فيها حسب عاداتهم صدر الكنافة قبل تقديم المآكل المالحة.

ثم زرنا بيت أحد الفلاحين الأوزبكيين بقصد الاطلاع على حياته الداخلية. وكان يتألف من غرفة واحدة، تحتوي على ثلاجة تبرد بألواح الثلج، و«فونوغراف» وإلى جانبه أسطوانات مكدسة، ومصباح كهربائي متصل بشريط طويل يتدلى من السقف، وسرير نوم (أبو تفاحة) يبلغه صاحبه بالصعود على سلم صغير بثلاث درجات، وستائر من الحرير المحلي الخشن، وصحف أوزبكية، وزهور اصطناعية.

فزيارتنا لطشقند كانت على الجملة نوعاً من السياحة والترفيه، والحصول على انطباعات أولية. ولم يكن بوسعنا خلال عشرة أيام إجراء دراسات ومقارنات، إضافة إلى أننا كنا نجهل دخائل القوم تماماً، ولا نعرف شيئاً عمّا يدور بخلد إكراموف وحجايف من رغبة أو محاولة للاتصال بالعالم الخارجي وفقاً للمادة «١٨أ»، أو الانفصال وفقاً للمادة «١٧» من الدستور السوفياتي، مع العلم أن هذه المادة بصورة خاصة هي مادة «مبدئية» غير قابلة للتحقيق والتطبيق.

وحين عدنا من طشقند إلى موسكو، سألني الرفيق مانولسكي: كيف كانت الرحلة؟..

قلت: ممتعة جداً..

قال: هل لمست هناك وضعاً وطنياً أوزبكياً يختلف عن وضعنا الروسي؟

قلت: لا ريب في ذلك.. فالبلاد تحافظ على مقوماتها الوطنية.. والطابع الأوزبكي بارز فيها لغة ولباساً وحياة، وهي الآن على مفترق الطريق بين القديم الموروث، والحديث المتقدم.. هذه هي انطباعاتي الأولية عن هذه الرحلة..

فنفخ مانولسكي في غليونه وقال مبتسماً: خَرَشو.. خَرَشو، أي حسناً.. حسناً.

الفصل الثامن

١٠ ـ الحرب الأهلية في إسبانيا

المفاجأة: استدعاني الرفيق مانولسكي بعد عودتي من طشقند بأسبوع، وقال لي: هل تتبع أخبار الحرب الأهلية التي اندلعت في إسبانيا مؤخراً؟..

قلت: طبعاً.. الصحف تنشر أخبارها يومياً، والاجتماعات تعقد في كل مكان لمؤازرة الجمهوريين، والأموال تجمع لهذه الغاية في المعامل والمعاهد، وفي جميع المؤسسات العامة..

قال، وقد أراد أن يتأكد من مدى اهتمامي بالقضية الإسبانية: طيب وما هي المبالغ التي جمعت للجمهوريين حتى الآن؟..

قلت: لقد جمع خلال ستة أيام، أي من ٢٧ تموز/يوليو حتى ٣ آب/أغسطس (من سنة ١٩٣٦) ١٢ مليوناً و١٤٥ ألف روبل، أو ما يعادل ٣٦ مليوناً و٤٣٥ ألف فرنك فرنسي، حولت كلها باسم رئيس وزراء إسبانيا السنيور خيرال..

قال: لقد دعوتك لأعرض عليك فكرة السفر إلى إسبانيا لتساعد الحزب هناك في تنظيم الدعاية العربية في الأوساط المغربية.. وكن على ثقة بأن قيام حركة استقلالية في المغرب الإسباني اليوم يزعزع الأرض التي يقف عليها الجنرال فرنكو، ويقرر مصير شمال إفريقيا بأسره..

قلت: إنه ليسعدني أن أقوم بهذه المهمة..

فانتصب واقفاً وشد على يدي وقال: سنتخذ الترتيبات اللازمة لسفرك إلى باريس ومن ثم إلى إسبانيا، وأرجو لك التوفيق..

استهلال تاريخي: أرى قبل التطرق إلى خواطر الحرب الأهلية في إسبانيا أن أمهد لها بلمحة تاريخية إسبانية موجزة..

نعود إلى إسبانيا منذ الحرب العالمية الأولى وقت أن اتخذت موقفاً محايداً، فاستفادت من التبادل التجاري مع الفريقين المتحاربين. وما إن انتهى عهد «الازدهار الحربي» حتى تدهورت التجارة الإسبانية، وفرضت الضرائب الباهظة على أصحاب الأعمال، وأعفي النبلاء ورجال الدين من تأديتها، وسيطر المحافظون

والعسكريون على السلطة وكانوا يعارضون في كل إصلاح، وازداد عدد العاطلين عن العمل، وقامت إضرابات وحركات عصيان في المعامل، وخاصة في مدينة برشلونة الصناعية، وهبّت قطالونيا تطالب بالانفصال عن إسبانيا، إضافة إلى أن الدولة الإسبانية كانت تشن حرباً ضارية في مراكش، وقد منيت فيها (سنة ١٩٢١) بهزيمة كبرى في معركة «أنوال»، أزهقت فيها أرواح الجنود الإسبان بالآلاف على أيدي الثوار المغاربة، وبقيادة الأمير عبد الكريم الخطابي.

وكانت دكتاتورية الجنرال بريمو دي ريفيرا* العسكرية سنة ١٩٢٣ بموافقة الملك ألفونسو الثالث عشر (١٨٨٦ ـ ١٩٤١)، فعلق الدستور، وحل مجلس «الكورتيس» (البرلمان)، وأرسل بعض الزعماء الأحرار إلى المنفى، فعم الاستياء البلاد ضد الدكتاتور والملك معاً.

وفي سنة ١٩٣١ تم إسقاط الحكم الدكتاتوري الذي كان أقامه دي ريفيرا، ووافق الملك على إعادة الحقوق الدستورية. غير أن هذه الخطوة لم ترض الشعب الإسباني، وطالب بإلغاء النظام الملكي. وفي ١٤ نيسان/أبريل سنة ١٩٣١ فر العاهل الإسباني إلى إنكلترا، وأعلنت الجمهورية الإسبانية.

وقد اختطت الجمهورية منهجاً يقضي بإلغاء طريقة تأجير الأراضي القائمة على أنظمة إقطاعية قديمة، وإعادة النظر في نظام الضرائب، والحد من سلطة الكنيسة، وكف يد الجيش عن السيطرة على الدولة. كما أنها وضعت يدها على أجزاء كبيرة من الأراضي الشاسعة التي يملكها الأثرياء من أصحاب الأراضي، والأسرة المالكة، والكنيسة، ووزعتها بين فقراء الفلاحين، ثم استولت على أملاك الكنيسة، وصادرت ثروات الرهبان «الجزويت»، وحلت المنظمات الدينية.

وكان لهذه الإصلاحات أن أثارت معارضة قوية من الذين فقدوا أملاكهم وحقوقهم القديمة الموروثة (أحزاب اليمين ورجال الدين)، في حين أن العناصر الراديكالية (أحزاب اليسار) كانت تقول بأن إصلاحات الدولة غير كافية، ولم تبلغ الهدف الذي ترمي إليه.. وقد تم لهذه الأحزاب الفوز في انتخابات سنة ١٩٣٦ بمعظم مقاعد «الكورتيس»، واتخذت إجراءات اشتراكية صارمة ترمي إلى تحديد امتيازات الكنيسة، وتوزيع أراضي كبار الملاكين على الفلاحين، وتوزيع الثروة الأهلية بين السكان توزيعاً عادلاً.

وإذ شعرت الحكومة الجمهورية بأن الضباط المحافظين في الجيش قد أخذوا يتململون، أسرعت إلى تسريح بعضهم، ونقلت البعض الآخر إلى المستعمرات

* المركيز دي استيلا ميغيل بريمو دي ريفيرا (١٨٧٠ ـ ١٩٣٠).

الإسبانية فيما وراء البحار، وفي عدادهم الجنرال فرنسيسكو فرنكو الذي نقلته إلى جزر الكناري.

وفي هذه الأثناء شرع العسكريون، في داخل إسبانيا وفي مستعمراتها، في إعداد العدة لإسقاط النظام الجمهوري بزعامة الجنرال فرنكو.. وفي ١٨ تموز/يوليو سنة ١٩٣٦ نشبت الحرب الأهلية بين «العصاة» و«الجمهوريين». ويقدّرون أن حوالي ٩٠ بالمئة من الضباط وثلثي الجيش الإسباني كانوا يتعاطفون مع «العصاة»، يساندهم كبار أصحاب الأراضي ورجال الكنيسة، وقمة أصحاب الأعمال.. أمّا «الجمهوريون» فقد نالوا تأييد البقية الباقية من الجيش، إضافة إلى «الشرطة الضاربة» ومعظم السكان المدنيين.

وزادت الحرب الأهلية شدة وضراوة، وانفصل عدد كبير من زعماء الطبقة المتوسطة عن الأحزاب الجمهورية البورجوازية، وانضموا إلى الأحزاب اليسارية (الاشتراكية، والشيوعية، والفوضوية، والنقابية)..

أمّا العصاة فقد أضعفهم الخلاف في تحديد الأهداف. فأعلن الجنرال فرنكو قيام «الدولة الفاشستية» في إسبانيا، وجنح إلى المراوغة بقصد كسب عطف السكان. فطالب بتوزيع الأراضي الكبيرة على المزارعين، واتخاذ إجراءات مضادة لامتيازات رجال الدين. غير أن هذه المطالب أثارت بدورها استياء أصحاب الأراضي ورجال الدين، الذين أخذوا يطالبون بعودة النظام الملكي!..

فالحرب الأهلية الإسبانية أوجدت في داخلها حرباً أهلية بين شعوب غير إسبانية.. فالفاشست الطليان والنازيون الألمان وغيرهم من الأقوام يحاربون إلى جانب «الفلانج» الإسبان.. واليساريون والروس والديمقراطيون الغربيون وغيرهم من الأقوام يحاربون إلى جانب الجمهوريين الإسبان.. بينما بعض الدول الديمقراطية، مثل إنكلترا وفرنسا، التزمت سياسة عدم التدخل في الحرب الإسبانية خشية أن تتحول إلى حرب أوروبية.

ويقدر عدد الأجانب الذي تورطوا في الحرب الأهلية الإسبانية بخمسين (٥٠) ألف نسمة، آتين من اثني عشر قطراً، ثلاثون (٣٠) ألف نسمة منهم يقاتلون إلى جانب العصاة ومعظمهم من الألمان والطليان والبرتغال، وعشرون (٢٠) ألف نسمة منهم يقاتلون إلى جانب الموالين، ومعظمهم من الروس والإنكليز والأميركان.

لقد اتسمت الحرب الأهلية في إسبانيا بالشراسة والوحشية، ويقدر عدد ضحاياها بمليون نسمة. وكانت الكفة الراجحة فيها إلى جانب العصاة، بسبب وجود قوات نظامية إلى جانبهم، وتزودهم بأعتدة حربية ضخمة من ألمانيا وإيطاليا، مكنتهم من الإشراف على ثلثي إسبانيا الغربية.

وفي شهر آذار/مارس سنة ١٩٣٨ تقدم العصاة في داخل البلاد تقدماً حاسماً. وفي أواخر تلك السنة انتقلت العاصمة من مدريد إلى فالنسيا.. وفي كانون الثاني/يناير ١٩٣٩ سقطت مدريد بيد القوات المغيرة، وبسقوطها كانت نهاية الحرب الأهلية في إسبانيا.

وكان أول إجراء اتخذه الجنرال فرنكو، بعد دخوله إلى مدريد، إصداره مراسيم أعاد بموجبها الأراضي إلى أصحابها السابقين، كما أعاد للكنيسة أملاكها ونفوذها وسلطانها.

وعاشت إسبانيا في ظل الحكم الدكتاتوري الفاشستي ستاً وثلاثين سنة. ولم يتقلص هذا الحكم إلاّ بوفاة الجنرال فرنكو صباح يوم الخميس ٢٠ تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٩٧٥، وعودة أُسرة آل بوربون الملكية إلى إسبانيا في شخص الملك خوان كارلوس.

في الطريق إلى إسبانيا: زُودتُ في الكومنترن بجواز سفر عربي لا غبار عليه. وعدت إلى باريس بطريق الجو في العاشر من شهر آب/أغسطس سنة ١٩٣٦. توقفت الطائرة في «دانزيغ»، عاصمة بروسيا الشرقية، حوالي الساعة التاسعة مساء، فصعد إليها جماعة من البورجوازيين الألمان من الجنسين وهم في ألبسة السهرة، يضجون ويقهقهون. وفهمت من جاري المسافر أنهم في طريقهم إلى باريس للاشتراك في حفلة راقصة، ثم يعودون إلى دانزيغ في الصباح..

وفي العاصمة الفرنسية اتصلت بالمراجع المختصة في الحزب الشيوعي الفرنسي، لتؤمن لي سبل السفر إلى إسبانيا المشتعلة بنار الحرب الأهلية، فأوكلت الأمر إلى موظف إداري لدى اللجنة المركزية اسمه «ريشار»، إذ إن رازوموفا قد عادت إلى موسكو نهائياً.

وبعد ثلاثة أيام من إقامتي في باريس قال لي هذا الموظف: ستسافر هذه الليلة من محطة «غار دي ليون» إلى مدينة «بربينون»، الواقعة على البحر الأبيض المتوسط في جنوب فرنسا، وهناك تذهب إلى مقهى «البرنيه»، في الجهة الجنوبية من ساحة المدينة، وتسأل عن شخص اسمه «فرنسوا أورلاندو»، وتسلمه هذه البطاقة، وهو يرشدك إلى ما عليك أن تفعل.

وهكذا كان.. فقد رافقني ريشار مساء إلى محطة السكة الحديدية، وودعني مداعباً بقوله: «حذار أن تقتل في إسبانيا»!

اندفع القطار نحو جنوب فرنسا قاطعاً مسافة ٩٠٠ كيلومتر تقريباً من باريس إلى مدينة «بربينون»، فاستقر في محطتها في اليوم التالي. فغادرت على عجل

وتوجهت إلى العنوان الذي زودت به، واتصلت بـ «فرنسوا»، وقدمت له البطاقة، فربت على كتفي وقال لي: ستستقل السيارة إلى الحدود الإسبانية هذه الليلة، وأنت لست المسافر الوحيد إلى الجبهة..

كانت الساعة قد شارفت على الواحدة بعد منتصف الليل وقت أن وصلنا إلى بلدة «بورت بو» الإسبانية الواقعة على الحدود الفرنسية ـ الإسبانية، فتوقفنا أمام أحد البيوت، وكان يشع بالأنوار الكهربائية، ويرفرف عليه علم الجمهورية بألوانه الأزرق والأخضر والأحمر، إلى جانب أعلام الأحزاب الاشتراكية والشيوعية والفوضوية.

دلفنا إلى داخل البيت، وإذ بطائفة من فتيان مليشيا الجمهورية، مدججين بالسلاح، يرتدون لباس العمال الأزرق، ويضعون على رؤوسهم طاقيات سوداء تشبه «السدارة» العراقية، وقد تدلت من طرفها الأمامي شرابة حمراء.

الكل في حركة دائمة، فتيان وفتيات، رجال ونساء، يتوقدون حماسة. هذا ينظف سلاحه، وتلك تضرب على الآلة الكاتبة، وهذا يفحص جواز سفر، أو جواز مرور، وذاك جاء من ميادين القتال ليدلي بأخبار هامة، وغيره جاء ليتلقى تعليمات.

وبعد أن أجريت المعاملة الرسمية من تسجيل، وحصول على بطاقة متطوع، وبطاقة تنقل في الأراضي الجمهورية، ركبت القطار الذاهب إلى «برشلونة»، وهو يعج بالمتطوعين وبالمودعين.. هناك عجوز جلست إلى جانب ابنها الشاب تودعه والدموع تنهمر من عينيها الذابلتين، وفتاة في ريعان الصبا انفردت بحبيبها وهي تخاطبه بصوت خافت، وترمقه بنظرات كلها رقة وحنان، ثم تنزع من جيدها قلادة دقيقة الصنع وتثبتها حول عنقه، ثم يتعانقان طويلاً طويلاً، ويفترقان رويداً رويداً تبعاً لحركة القطار الآخذ في الانطلاق.. وآباء وأمهات، وأصدقاء وأقارب، كلهم جاؤوا ليودعوا المتطوعين من الشباب المتوجهين إلى برشلونة، ومنها إلى جبهات القتال.

أمّا عربات القطار فكانت في داخلها أشبه بواجهة دعاية قتالية، فقد زينت جدرانها بإعلانات مصورة، أذكر منها رسم فتاة ترتدي البنطلون وقد شمرت عن ساعديها، وعلى رأسها طاقية بشرابة حمراء، ترفع البندقية بيدها اليسرى إلى فوق رأسها، وتمد يدها اليمنى إلى أمام وهي تقول: «أيها المواطن!.. إنك تستطيع حمل السلاح وبلادك بحاجة إليك، فلماذا لا تنضم إلى صفوف المليشيا؟»..

ورسماً آخر يظهر سواعد نحاسية اللون، قد جمعت أكفها ورفعتها عالياً، وفي أسفلها عبارة تقول: «القوة بالاتحاد»!..

ورسماً ثالثاً يظهر عاملاً يمسك بندقية بيده ويقبض باليد الثانية على يد رجل

يرتجف وجلاً، وهو يقول له: «النهب عمل غير شريف، ولسوف أعاقبك عليه بشدة»!..

جولة في برشلونة: وصلت إلى برشلونة الجميلة، الفخمة، العريقة بالمدنية، عاصمة قطالونيا.. رحت أتجول في شوارعها العريضة، وقد نبتت على جوانبها أشجار البرتقال المعروف بـ «أبو صفير»، فبدت وكأنها زينت بمصابيح كروية حمراء. وفجأة التقيت بثلة من رجال المليشيا، فتقدم مني رئيسهم، وقد ظنني إسبانياً، وخاطبني بالإسبانية قائلاً:

«لماذا لا تنضم إلى صفوفنا؟»..

فابتسمت وأجبته بالفرنسية، وبحماسة الشباب: «إنني متطوع عربي جئت لأدافع عن الحرية في مدريد.. وعن دمشق في وادي الحجارة.. وعن القدس في قرطبة.. وعن بغداد في طليطلة.. وعن القاهرة في قادس.. وعن تطوان في بورغوس»!..

فلاحت على وجهه أمارات الدهشة والسرور وقال بفرنسية ركيكة: «أحقا أنت عربي؟.. أنت 'مورو' - أي مغربي -؟.. هذا مستحيل، إن المغاربة يسيرون مع الأشقياء الفاشست.. إنهم يهاجمون مدننا، ينهبون بيوتنا ويعتدون على نسائنا»..

قلت له: «إن هؤلاء المغاربة الذين يسيرون اليوم في ركاب الجنرالات الفاشست إنما هم يسيئون بسلوكهم هذا إلى العرب والإسلام، ولا يمثلون إلاّ أنفسهم، فهم مخدوعون، خدعهم العسكريون الإسبان، بالاشتراك مع بعض زعماء المغاربة الذين باعوا أنفسهم للشيطان، أمثال عبد الخالق الطريسي*»..

استغرب رئيس المليشيا كلامي هذا، وأخذ يهز رأسه يمنة ويسرة كأنه غير مصدق ما يسمع، أو أنه يرتاب في عروبة الشخص الذي يخاطبه. فقطعت عليه مجال تشككه وقلت له: «إنني لست العربي الوحيد هنا، ففي 'الفرقة الدولية' بعض العرب، وغيره آت في الطريق.. وكن على ثقة أن الكثير من المغاربة الذين يزحفون مع فرنكو سيدركون الحقيقة، ويركنون إلى الفرار والانضمام إلى قواتكم.. وهناك في بلادنا العربية الملايين من العرب الذين يعطفون على الجمهورية

---

* «عبد الخالق الطريسي».. ولد في تطوان سنة ١٩٠٩، تعاون مع الجنرال فرنكو إبان إعلانه العصيان في المغرب، وساعد في تجنيد المغاربة للقتال. وفي سنة ١٩٣٧ أسس حزب الإصلاح الوطني الذي يطالب بنوع من الاستقلال الذاتي في ظل الحماية الإسبانية الفاشية. وبعد الاعتراف باستقلال المغرب سنة ١٩٥٦، اندمج حزب الإصلاح مع حزب الاستقلال. أمّا الطريسي فقد انضم إلى الحكومة المغربية كوزير للعدل، ثم عُيِّنَ سفيراً للمغرب في القاهرة.. وتوفي في ٢٨/٥/١٩٧٠.

الإسبانية، ويناصرون الديمقراطية، لأن مدنيتهم العربية وتقاليدهم التاريخية إنما تقوم على مبدأ الشورى الحق».

فارتسم السرور على وجه رئيس المليشيا وعلى وجوه رفاقه، ولم نلبث أن تعانقنا، وتبادلنا التحية بالربت على الأكتاف، ثم هزوا يدي مصافحين، وقال لي أحدهم: «إلى اللقاء في الجبهة الوسطى، إلى اللقاء في توليدو وفي قصرها العربي الرائع»..

واصلت السير في شوارع برشلونة، وأنا في دهشة مما يجري في هذه المدينة التي يطلقون عليها اسم «نيويورك إسبانيا».. روح تعاونية لا توصف، نشاط وحماسة ومعنويات عالية.. أعلام حمراء ترفرف في كل مكان إلى جانب أعلام الجمهورية.. بضاعة جديدة تعرض على أرصفة الشوارع، مثل طاقيات بشرابات حمراء، وأزرار ونجوم ودنتلات لونت بألوان تمثل مختلف الأحزاب السياسية.. وخارطات لإسبانيا علقت على جدران الشوارع غرزت في القسم الجمهوري منها دبابيس لها رؤوس حمراء، وفي القسم الفرنكوي دبابيس لها رؤوس سوداء، وقد احتشد جمهور غفير حول هذه الخارطات وهو يتناقش بحدة عن سير القتال.

أمّا ساحة قطالونيا فهي مركز مدينة برشلونة، وقلب حركتها التجارية. فهناك المصارف والمخازن الكبرى، ودور القناصل، والوكالات التجارية، والفنادق الفخمة.. وتقوم في الناحية الشمالية من هذه الساحة عمارة ضخمة تعرف باسم «أوتيل كولون»، كانت في بداية العصيان الفاشستي معقلاً للحرس الملكي الإسباني، ثم غدت حصناً للجماعات الفاشستية العاصية. ولمّا فاز شعب برشلونة على هذه الجماعات، أصدرت حكومة قطالونيا مرسوماً يقضي بوضع هذا الأوتيل بتصرف الحزب الاشتراكي الموحد في قطالونيا.. ويشاهد المرء على واجهة هذه العمارة لوحة عرضها حوالي عشرين متراً كتبت عليها هذه الأحرف: .P.O.S، أي «حزب العمال الاشتراكي»، و.P.C.S، أي «الحزب الشيوعي الإسباني»، وU.S.C، أي «الاتحاد الاشتراكي القطالوني»، و.P.O.C، أي «حزب العمال القطالوني». وقد اتفقت هذه الأحزاب الأربعة، وبعد انسحاب حزب العمال الاشتراكي من «الدولية الثانية»، على أن تتحد في «جبهة شعبية» وتنضم إلى الكومنترن.

ولجتُ أوتيل كولون هذا طالباً الزيارة كمتطوع أجنبي، ولم أكد أضع قدمي في المدخل الرئيسي حتى اعترضني الحرس المسلح، وطلب مني أن أبرز بطاقتي، فأطلعته على ما أحمل من وثائق. وبعد أن تفحصها قال: من تريد أن تقابل؟..

قلت: أحد المسؤولين في الاتحاد..

قال: سأرسل معك من يرافقك إلى الطابق الثالث حيث الأمين العام للاتحاد.

صعدت إلى الطوابق الأول والثاني والثالث، فهالني ما شاهدت: متطوعين من مختلف الجنسيات.. شعارات وتعليمات.. رسوماً ثورية متنوعة الأشكال والألوان، أُلصقت على الجدران بلا ترتيب.. حركة وسرعة في كل طابق وزاوية من عمارة الأحزاب المتحدة.

وفي الطابق الثالث اجتمعت بنائب الاتحاد*، فقدمت له نفسي بالفرنسية قائلاً: «إنني متطوع عربي قدمت اليوم من فرنسا ـ وكان ذلك في ١٥ آب/أغسطس سنة ١٩٣٦ ـ وأنا في طريقي إلى مدريد.. وبودّي أن أُلم ببعض المعلومات عن قطالونيا..»

قال بلهجة حميمة: أهلاً بالمتطوع العربي الكريم.. أهلاً بحفيد بناة قصر الحمراء، رائعة الفنون العربية.. أتيت على الرحب والسعة، أمّا قطالونيا فإليك نبذة عنها..

نحن القطالونيين شعب قائم بذاته، لنا ثقافتنا الخاصة بنا، ولنا لهجتنا المميزة، ولنا نضال طويل ضد سادة قشتالة، بذلنا فيه الدماء غزيرة في سبيل استقلالنا الوطني.. غير أنني أؤكد لك أنه يستحيل على مقاطعة قطالونيا أن تعيش بلا إسبانيا الداخلية.. فالاستقلال الذي نريده هو الاستقلال الداخلي (أوتونومي)، على أن نشترك فعلياً في السياسة العامة التي تنتهجها السلطات المركزية.

بلادنا هي مركز الصناعة الضخمة، ومهد الطبقة العاملة، ومبعث حركتهم النقابية، فكان من البديهي أن نراها قد سبقت كل المقاطعات الإسبانية في تأسيس الأحزاب السياسية، والنقابات الحرفية. أمّا الظاهرة المميزة لعمال قطالونيا فهي أنهم لم يفتحوا أعينهم إلاّ وهم في أحضان الفوضوية المتغذية بتعاليم ميخائيل باكونين** وخليفته البرنس كروبوتكين***.

لعمالنا اليوم أحزاب مختلفة لها نظريات متنوعة، إلاّ إنها توحدت في الآونة الأخيرة في حزب واحد، غايته الانتصار على القوى الفاشستية بالسلاح.. وإنني جد سعيد برؤية هذه الوحدة، التي كنت أحلم بها طيلة حياتي، قد تحققت.

بعد أن حاول العصاة الاستيلاء على السلطة في قطالونيا، وتمكنا من قمع هذه المحاولة بشدة، انحاز إلى جانبهم كل رجال الصناعة الضخمة، والإقطاعيون، وطغاة المال من أرباب المصارف، وسواهم من أصحاب الامتيازات الجائرة،

---

* كذا في الأصل، ويبدو أن المقصود: نائب الأمين العام للاتحاد. (المحرر)

** «ميخائيل ألكسندروفيتش باكونين»، فوضوي روسي وكاتب (١٨١٤ ـ ١٨٧٦).

*** «الأمير بيتر ألكسيفيتش كروبوتكين»، فوضوي روسي، كاتب وجغرافي (١٨٤٢ ـ ١٩٢١).

وصاروا يقاتلون العمال في الشوارع، ويطلقون الرصاص على الجماهير من نوافذ قصورهم. فأجابتهم الجماهير المدافعة بالمثل، فقتل منهم من قتل، وسجن من سجن، وفر من فر.

فلمّا استتب الأمر وعادت المياه إلى مجاريها، رأت الحكومة الجمهورية أن دُور الصناعة الضخمة خالية من الرأسماليين، فترتب إذ ذاك على النقابات أن تضع يدها على تلك الدور، بعد أن تركها أصحابها، وخانوا وطنهم وانضموا إلى الأعداء، وتدير شؤونها بواسطة لجان من العمال. وعلى ذلك فإن الصناعة الضخمة في قطالونيا مصادرة، والحكومة هي التي تعنى بأمر الإنتاج وتصريف المتوجات.

وليست هذه الحالة وهذه التدابير من صميم الاشتراكية، وإنما هي ظروف استثنائية أوجدتها الحرب الأهلية، وسببها المباشر انحياز كبار الرأسماليين إلى جانب العصاة. أقول إنها ليست بالاشتراكية، لأن النظام الحاضر في قطالونيا هو نظام جمهوري لا يمس مبدئياً الملكية الفردية على دور الصناعة، فالمصادرة إذاً هي اضطرارية، أقدمت عليها الحكومة عقاباً للخونة الذين انضموا إلى أعداء الشعب. خذ على سبيل المثال «خوان مارش»، فهو متمول كبير، يملك الكثير من البيوتات الصناعية والتجارية في إسبانيا، ومراكش، وجزر الباليار، فهذا الرجل يأتي في طليعة من يمد أعداء الجمهورية بالأموال الطائلة، أفلا يجب أن تصادر أملاكه؟..

وكن على ثقة أننا لن نمس التجارة الأهلية، ولا الصناعة الخفيفة، لأن أصحابها جمهوريون ديمقراطيون، يناضلون في صفوف الشعب ضد طغمة الجنرالات العصاة.

فالحزب الاشتراكي الموحد يعمل اليوم كل ما في وسعه لمساعدة الحكومة المركزية، بما تنتجه مصانعنا من دبابات، ومصفحات، ومدافع، وقنابل، لكن «العناصر الفوضوية» في صفوفنا تعاكس أمر هذه المساعدة لدرجة ما، بحجة أن هذه المعدات لازمة للدفاع عن قطالونيا فقط!..

فشكرت نائب الاتحاد على معلوماته هذه، وما كدت أخرج من عنده حتى لحق بي وسألني ضاحكاً:

هل تود مقابلة شاب يتكلم العربية؟..

قلت: بكل سرور..

وبعد لحظات دخل علينا شاب في نحو العشرين من عمره، قمحي اللون، ضحوك، خفيف الحركة. فتولى نائب الاتحاد أمر التعارف فيما بيننا، فاغتبط الشاب جداً حين علم أنني أتيت من بلاد المشرق العربي متطوعاً، فشد على يدي وقال: أنظر إليّ جيداً، ألا تراني عربياً أكثر منك!.. إضافة إلى أن اسمي هو

إسماعيل..

وعلمت منه أن أمه عربية، وأباه إسباني، عاش في الجزائر، وفي مراكش، ومالطا، وأنه يتأهب، حسب تعبيره، للذهاب إلى ميدان قشتالة.

فترة مدريد: انتقلت إلى مدريد في القطار في يوم كانت فيه قوات فرنكو والمغاربة المغلوبون على أمرهم، والفرقة الأجنبية المؤلفة من المرتزقة الأوروبيين بمن فيهم ضباط روس من بقايا الجيش القيصري، كانوا كلهم يزحفون من أقصى جنوب إسبانيا إلى الشمال عبر الوادي الكبير، ومن الغرب الجنوبي عبر بلدة «باداخوز».

التقيت في القطار بمهندس إسباني يتحدث بالإنكليزية، فدفعه حب الفضول للتحدث إليّ، فلمّا علم أنني صحافي عربي ومتوجه إلى مدريد لتغطية أخبار المعارك، أبدى اهتماماً عظيماً، والتفت إلى زوجته التي كانت ترافقه وقال: أنظري.. شاب عربي آت من بلاد العرب لنقل أنباء الحرب الأهلية في إسبانيا.. أليس هذا من العجب العجاب؟!.. وحاول إقناعي بأن أكون منصفاً في ما أبعث به من مقالات وأنباء وألاّ أتحيز إلى جانب من الجانبين!..

وفي مدريد توجهت إلى بيت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الإسباني، الواقع في شارع «سرانو». وكان هذا البيت في السابق مقر المجلس الوطني للحزب الكاثوليكي برئاسة «خيل روبليس». وهناك قدمت أوراقي، فرحب بي زعماء الحزب، وأفادوني أنهم تلقوا تعليمات بصدد قدومي إلى مدريد، وأنهم يأملون خيراً بأي مسعى أقوم به لإزالة الغشاوة عن أعين الجنود المغاربة إن كانوا في الميدان، أو في الأسر.

أمّا هؤلاء الزعماء الإسبان فهم:

١ ـ «دولوريس إيباروري»، وتلقب بـ «ألباسيوناريا»، بمعنى «الأم الرؤوم». كانت وقتئذ في السادسة والثلاثين من عمرها، نحيلة، مديدة القامة، فحمية الشعر والعينين، هادئة، رخيمة الصوت، سكوتاً، ترتدي الثوب الإسباني الأسود باستمرار.. وهي أول عاملة إسبانية انتسبت إلى الحزب في الثلاثينات. وكانت في عداد الوفد الإسباني الذي مثل حزبه في المؤتمر السابع للكومنترن المنعقد في موسكو سنة ١٩٣٦. وهي على الجملة الزعيمة الرمزية لليسار العالمي.

وكان لدولوريس وقتئذ ابن في السادسة عشرة من عمره يعمل في أحد مصانع موسكو، وابنة صغيرة تقيم في بيت الأطفال الأجانب في بلدة «إيفاني» بالقرب من موسكو.

٢ ـ «خوسيه دياز».. السكرتير العام للحزب، عامل من إشبيلية، نحيل البنية، يشكو من ضعف في صحته.. هادئ الطبع، دمث الأخلاق، يتمتع باحترام أنصاره وحلفائه من الاشتراكيين والجمهوريين.

٣ ـ «فيسنته أوريبه».. وزير الزراعة، والمعني بشؤون مراكش في الحزب، باسكي الأصل، أقام في تطوان في المغرب الإسباني، متوسط القامة، متبحر في نظريات الاقتصاد الإسباني، وخاصة في الشؤون الزراعية، نحيل، منظم، وصارم.

٤ ـ «بدروتشيكا».. السكرتير الثاني للجنة المركزية، ممتقع اللون، نحيف جداً، يشرف على شؤون الحزب الإدارية، يمنح تصاريح الأمن، ويلاحق جماعات الطابور الخامس السرية.

٥ ـ «أنطونيو ميخه».. مسؤول عن الشؤون النقابية، أندلسي المولد، يعنى بالقضايا المالية للحزب، وهو في الوقت ذاته ضابط ارتباط مع مختلف اللجان الحزبية.

٦ ـ «إميليو هرناندس».. وزير التربية، مديد القامة، وعلى جانب واسع من العلم والثقافة.

أمّا أعضاء الحزب فقد بلغ عددهم في ذلك الوقت حوالي ثلاثمئة ألف نسمة.

أقمت في بيت الحزب مؤقتاً، وكانت «الباسيوناريا» تعاملنا جميعاً بعطف وحنان. ولطالما كانت تقوم بخدمة المائدة، فتسكب لنا الطعام بيدها في أطباق من فضة، تركها «خيل روبليس»، ولا تدخر وسعاً في مسايرتنا وملاطفتنا.

بعد يومين من وصولي إلى مدريد نقلت إلى بيت يقع في شارع «سرانو»، وقد هجره أصحابه الأثرياء بسبب انتمائهم إلى العصاة، واتخذته مقراً لي أكتب فيه النشرات بالعربية للجنود المغاربة، والمقالات لبعض الصحف الإسبانية التي تصدر في مدريد، مثل «الموندو أوبريرو»، و«كلاريدار»، و«أنفورماسيونيس»، و«إيرالدو دو مدريد»، و«بوليتيكا».. كما كنت أحرر المقالات إلى بعض الصحف العربية، منها مقال أرسلته إلى صحيفة «الرابطة الشرقية» الصادرة في بيروت، فعمد رئيس تحريرها إبراهيم حداد إلى نشره وتصوير غلاف الرسالة معه أيضاً..

ثم ألحقتني اللجنة المركزية بالرفيق «فيسنته أوريبه»، وزير الزراعة والمعني بالشؤون المغربية. واتخذت لنفسي اسماً مستعاراً هو مصطفى بن جلا، لأنني وجدت فيه رنيناً مغربياً. وهو في الوقت ذاته استمرار لمصطفى سعدي في الجامعة، ومصطفى العمري في صحيفة «الشرق العربي».

حللت في مدريد ونيران الحرب الأهلية تستعر فيها في غير جبهة..

الجبهات: في ١٨ تموز/يوليو سنة ١٩٣٦ أعلن الجنرال فرنكو العصيان في المغرب، ثم انتقل إلى الأراضي الإسبانية في الجنوب شاملاً جبهات إشبيلية، وملقا، وقادس، وجزر الكناري، بينما كانت الفرقة الأجنبية وغيرها من القوات المؤيدة للعصاة تستولي على مليله وسبته في الأراضي المغربية.. وكانت قوات ثالثة تجتاز حدود البرتغال، بموافقة السلطات البرتغالية، وتحتل بلدة «باداخوز» في الجنوب. وفي هذه البلدة بالذات بدأت المجزرة الإسبانية بأبشع صورها.. فما إن استقر العصاة فيها حتى أمر قائدهم جميع العمال بالتجمع في ساحة مصارعة الثيران ليتلو عليهم بياناً هاماً.. وبعد أن تجمعوا وتكامل عددهم راحت المدافع الرشاشة تحصدهم من الجهات الأربع بقصد خلق حالة من الذعر والهلع في جميع أنحاء إسبانيا، وتحطيم معنويات السكان. وقد سقط في هذه المجزرة حوالي ١٥٠٠ شخص.

وفي شهر تموز/يوليو من السنة ذاتها استولى العصاة في شمال إسبانيا على بامبيلونا، وسراغوسا، وفالادوليد، وبورغوس (عاصمتهم في الشمال).

وفي تلك الأثناء أنزلت السفن في قادس وملقا قوات إيطالية بقيادة الجنرال مانسيني، لتزحف منها على الأراغون، فسيغوفيا، فوادي الحجارة، فألكالادي إيناريس، فتطويق مدريد.

الجمهوريون: كان «نيستو ألكالازامورا» أول رئيس للجمهورية الإسبانية، ظل في سدة الرئاسة ست سنوات، من ١٩٣١ حتى ١٩٣٦، ثم حل محله عند بداية الحرب الأهلية «مانويل أسانيا» رئيساً للجمهورية، وهو اشتراكي ديمقراطي، أشغل منصب وزير الدفاع بعد إسقاط النظام الملكي، وهو كاتب ومفكر ومؤلف روائي يعالج مشاكل نفسانية. وكان في السابق رئيساً للنادي الثقافي الإسباني «أتينيو».. وفي عهده تعدّل الدستور الإسباني، وباتت المادة الأولى منه تنص على ما يلي: «إسبانيا جمهورية الفعلة من جميع الطبقات.»

وكان رئيس وزرائه في بداية الحرب الأهلية «خوسيه خيرال»، وهو عالم كيماوي، وجمهوري يساري، ومقرب من الرئيس أسانيا.

وفي شهر أيلول/سبتمبر سنة ١٩٣٦، أسندت رئاسة الوزراء ووزارة الدفاع إلى الزعيم الاشتراكي «لارغو كاباليرو». وقد أدخل في وزارته هذه ثلاثة وزراء اشتراكيين، كان أحدهم الصحافي «خوليو ألفاريس دل فايو»، وقد أسند إليه وزارة الخارجية، كما ضم إليها الشيوعي «إميليو هرناندس»، وأسند إليه وزارة التربية، والشيوعي «فيسنته أوريبه»، وأسند إليه وزارة الزراعة. أمّا وزارة العدل فقد أسندها

إلى الفوضوي «غارسيا أوليفر».

في ١٥ حزيران/يونيو سنة ١٩٣٧، وبعد بلوغ قوات فرنكو أبواب مدريد، انسحب لارغو كاباليرو مع بعض وزرائه إلى فالنسيا، حيث اشتد الخلاف بينه وبين الشيوعيين في موضوع تمتين التعاون بين الطرفين، فاستقال هو وحكومته، وتشكلت وزارة جديدة برئاسة «خوان نيغرين».

العسكريون الجمهوريون:

١ ـ «الجنرال أسنسيو».. قائد الجبهة الوسطى، وكان يخطط لمهاجمة «تالافيرا»، إلى الغرب من توليدو، والواقعة على نهر «تاخو»، وتحريرها من أيدي العصاة بأربعة آلاف مقاتل من رجاله، يضاف إليهم ألفا مقاتل يتم سحبهم من جبهة وادي الرامة. ثم عيّنه لارغو كاباليرو نائباً له في رئاسة الوزراء ووزارة الدفاع.

٢ ـ «إميل كليبر».. قائد الفرقة الدولية الأولى.

٣ ـ «بافل لوكاتش».. كاتب مجري، وقائد الفرقة الدولية الثانية.

٤ ـ «إنريك ليستر».. من مقاطعة غاليسيا الإسبانية، في الشمال الغربي من البلاد، قائد طابور جمهوري في جبهة إسترامادورا.

٥ ـ «جوان موديستو».. قائد مساعد لإنريك ليستر.

٦ ـ «كامبسينو».. عامل إسباني، قائد طابور دولي.

٧ ـ «فيسنته روخو».. مقدم ورئيس أركان حرب الدفاع عن مدريد.

٨ ـ «أنطونيو ميخه».. قائد عسكري، عضو في لجنة «خونته» للدفاع عن مدريد، ورئيس هذه اللجنة فيما بعد.

٩ ـ «خوسيه مياخا».. قائد عسكري، وعضو في لجنة الدفاع عن مدريد.

١٠ ـ «بارتولوميو غوردون».. قائد اللواء الخامس وطابور النصر، التابعين للحزب الشيوعي الإسباني.

١١ ـ «دوروتي».. قائد الفرقة القطالونية.

فهؤلاء القواد للقوات الدولية شيوعيون، باستثناء مياخا الاشتراكي ودوروتي الفوضوي.

ولقد تزايد عدد الفرق الدولية، بعد أن تدفق المتطوعون الأجانب من كل حدب وصوب، حتى غدت اثنتي عشرة فرقة، تقسم إلى طوابير مثل طابور «غاريبالدي»، المحارب في سبيل الحرية وفي سبيل توحيد إيطاليا (١٨٠٧ ـ ١٨٨٢)، وطابور «تلمان»، زعيم الحزب الشيوعي الألماني، قتله النازيون إبان الحرب العالمية الثانية بأن وضعوه في كوخ وقذفوه بالقنابل من الجو، وطابور «كارل

ماركس».. وكان مقر القوات الدولية هذه في مدريد، شارع فيلاسكيز رقم ٦٣.

العسكريون العصاة: من أبرز جنرالات العصاة أربعة..

١ ـ «الجنرال فرنكو».. القائد العام للقوات المعادية للجمهورية.

٢ ـ «الجنرال فاريلا».. الرجل الثاني بعد فرنكو، وهو القائل: «سأدخل إلى ساحة مدريد على حصان أبيض وأقول إنني هنا»!.. وهو الذي أعلن في شهر أيلول/ سبتمبر سنة ١٩٣٦ «أن الجيش الفاشستي يهاجم مدريد بخمسة طوابير من خمسة اتجاهات وهي: أولاً ـ من طريق إسترامادورا. ثانياً ـ من توليدو. ثالثاً ـ من أفيلا غوادا راما. رابعاً ـ عبر سيغوفيا غوادالاخاره. خامساً ـ هو الطابور السري الذي يعمل داخل العاصمة مدريد.»

ومن هنا باتت عبارة «الطابور الخامس» اصطلاحاً دولياً لأعمال التجسس والتخريب السياسي الداخلي.

٣ ـ «الجنرال ياغو».. قائد القوات الإسبانية المغربية.

٤ ـ «الجنرال كيبو دليانو».. المعروف بالجنرال المذيع السكير.

الإذاعات الإسبانية:

«إذاعة إشبيلية».. يشرف عليها العصاة. وقد أسندوا إذاعة الأخبار والتعليقات إلى الجنرال الكهل كيبو دليانو، وهو رجل سكير سليط اللسان، يرتجل التعليقات وهو يدخن النارجيلة، فتسمع قرقعتها من الأجهزة اللاقطة.

ومن تعليقاته وقتئذ قوله: «ضربت طائرة حمراء مدينة إشبيلية فسقطت القنبلة على حانوت رجل وقتلته. وقد تبين لنا أن هذا الرجل هو أشد احمراراً من الحمر أنفسهم!»..

كان يذيع هذا النمط من التعليقات الساعة التاسعة من كل مساء.

«إذاعة سالامانكا».. تابعة للعصاة أيضاً، تذيع التوجيهات للطابور الخامس الساعة العاشرة إلاّ ربعاً من كل مساء.

«إذاعة تطوان».. تبث بالعربية المراكشية. وفي ليلة استمعت إليها وإذ بالمذيع يقول: «نخبركم يا سادتي أن الشيخ هتلر طلب من غورينغ باشا يبعث بالسلام عليكم إلى فرنكو باشا، وإنه فاريلا باشا أقام حفلة عشاء للجنرال محمد بن عمر، وهذا يعني شرف كبير للمغرب».. ثم راح يكيل المديح للزعيم المغربي عبد الخالق الطريسي.

«إذاعة أونيون راديو»، التابعة للجمهورية الإسبانية.. تذيع من مدريد الأخبار والتعليقات والخطب، في الساعة العاشرة من كل مساء، وتتولى التشويش على إذاعة سالامانكا بصورة خاصة.

الشاعر فدريكو لوركا: قيل لي بعد وصولي إلى مدريد بوقت قصير، إن الجنرال فاريلا ألقى القبض في إشبيلية على الشاعر والروائي الإسباني، والمعروف بنزعته الجمهورية الاشتراكية، فدريكو غارسيا لوركا. وقد هدد بإعدامه إذا ما أقدمت الحكومة الجمهورية على إعدام ابن أحد الجنرالات العصاة والمعتقل في مدريد. ودار حوار بين الطرفين عبر الإذاعة، غير أن الجمهوريين ارتكبوا خطأً فادحاً باعتبار الموضوع «قضية مبدئية»، وأعدموا ابن الجنرال، وفي اليوم التالي تم إعدام لوركا في قشلاق إشبيلية.

كان لوركا شاعراً مجيداً، وكاتباً متغلغلاً في حياة شعبه وعاداته وتقاليده. من مسرحياته «الزفاف الدامي»، و«يرما»، و«العانس».

معركة حصن توليدو: كان حصن توليدو جبهة قائمة بذاتها. فتوليدو المدينة بيد الجمهوريين، وحصن توليدو بيد العصاة.. لقد احتمى عدد كبير من العصاة في هذا الحصن، وأخذوا معهم رهائن من نساء العمال وأطفالهم، وأغلقوا عليهم أبواب الحصن العربي المنيع، ونشروا القناصة على أسواره، وراحوا يطلقون النار على المقاتلين والسكان المدنيين.

أمّا الجمهوريون فكانوا يحيطون بالحصن من كل جانب، ويصلونه ناراً حامية دون أن يحصلوا على نتيجة تذكر.. وأخيراً، قر الرأي على صب البنزين والغليسيرين عبر نوافذ الحصن الأرضية وإشعال النار فيه.. وجاؤوا بصهاريج المواد الملتهبة من مدريد في الحادي والعشرين من شهر أيلول/سبتمبر سنة ١٩٣٦، وما إن بلغت الحصن حتى أصيبت بالرصاص واشتعلت وفشل المشروع.

قال دياز وقتئذ: «إن الاستيلاء على حصن توليدو يتطلب ألف مقاتل، نخسر منهم مئتين على أقل تقدير.»

وفي ٢٨ أيلول/سبتمبر ١٩٣٦، سقطت مدينة توليدو بيد العصاة، وتم إطلاق سراح المعتصمين في الحصن.

مطار خيتافه: في الرابع من شهر تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٦، كان العصاة، وفي طليعتهم القوات المغربية، يضربون مطار مدريد في «خيتافه»، ويتغلغلون في حديقة

العاصمة المعروفة باسم «كاسا دل كامبو»، وفي المدينة الجامعية.

وحدث إبان اقتراب المغاربة من أبواب مدريد أن عقدت اللجنة المركزية اجتماعاً طارئاً، وصادف أن كنت في الغرفة، فاعتبر الرفاق وجودي معهم فيه شيء من التطفل، وكان عليهم أن يطلبوا مني ترك الغرفة بصراحة، لأنني لست عضواً في هذه اللجنة. غير أن «فيسنته أوريبه» أومأ إلى الحاجب «أورتيغا» بغمزة عين، فجذبني هذا من ذراعي إلى خارج الغرفة بلطف، وقال: أيها الرفيق مصطفى إن جماعتك!.. (أي المغاربة) قد أصبحوا على أبواب مدريد!..

وفي اليوم التالي التقيت بالرفيق الفرنسي «أندره مارتي»*، وبادرني الحديث قائلاً: ما الذي ستفعله إذا احتل العصاة مدريد؟!..

قلت: ما الذي أستطيع فعله؟..

قال: عليك في حالة دخول الجحافل الفاشستية إلى مدريد أن تلجأ إلى السفارة البريطانية، لأن دولتها تتعاطف مع الجمهورية الإسبانية، ولها كلمة مسموعة لدى الجانب الآخر.. أضف إلى ذلك أنك عربي من مناطق الانتداب، ولا شك في أن سفير المملكة المتحدة** سيعنى بأمرك!»..

رحلة استطلاعية: قيل لي في اللجنة المركزية إن فريقاً من ضباط الفرقة الدولية يتوجهون إلى جبهة قرطبة، وعليّ أن أرافقهم إلى هذه الجبهة بقصد التحدث إلى الأسرى من الجنود المغاربة، ودعوة المحاربين منهم للانضمام إلى صفوف الجمهوريين بواسطة مكبرات الصوت، وإلقاء نشرات عليهم مكتوبة بالعربية المغربية.

ركبنا القطار إلى مدينة «سويداد ريال»، ومن ثم استقلينا سيارات نقل توجهت

---

* «أندره مارتي».. يـاري فرنسي قديم. كان سنة ١٩١٨ ضابطاً بحرياً في سفينة حربية فرنسية، وقد صدرت له الأوامر، إبان التدخل الأجنبي ضد الثورة الروسية، بدخول ميناء أوديسا وقصف القوات الثائرة فيها. غير أنه عصي أوامر قيادة الأسطول الفرنسي، وأعلن هو وبحارته تآخيهم مع الرفاق الروس. عاد مارتي إلى بلاده بعد أن مني التدخل الأجنبي بالفشل، وانضم إلى الحزب الشيوعي الفرنسي.. وفي سنة ١٩٣٦ أوفده حزبه إلى إسبانيا ليمثله لدى الحزب الشيوعي الإسباني، وليتولى الإشراف على المتطوعين الفرنسيين. ومن المستغرب أن أحداً من المؤرخين لم يأت على ذكر أندره مارتي.. أمّا أنا فقد سمعت عنه في موسكو سنة ١٩٢٥، ثم التقيت به في مدريد، وهو رجل متجسم، مديد القامة، وفي طريقه إلى السبعين من عمره.

** أوغيلفي فوربس (Ogilvi Forbes).

إلى بلدة «تشامبس كالاترافا»، وهناك أنزلونا في خان قديم، شبيه بخانات دون كيشوت لا مانشا، وعينوا لنا مكاناً للمنامة في زريبة كبيرة للبهائم، بداعي الحماية من غارة جوية، وما كدنا نلج الزريبة حتى زكمت الروائح الكريهة أنوفنا، وأسرعنا إلى الخروج منها، واللجوء إلى مكان آخر نبيت فيه ليلة واحدة، حتى ولو تعرضنا لغارة جوية.

وفي صبيحة اليوم التالي، أي في ٢٥ أيلول/سبتمبر ١٩٣٦، حملتنا سيارات النقل إلى الخطوط الأمامية من الجبهة. وفيما كنا نعبر جبال «سيرا مورينا»، شاهدنا طائرة معادية، فأمرنا القائد بالاختفاء في السفوح، إلى أن ابتعدت الطائرة، التي لو لمحتنا لكانت أغارت علينا وضربتنا بالرشاشات.

بلغنا خطوط القتال، وانضم من معنا من القوات الدولية إلى المقاتلين الجمهوريين.. ثم تقدم مني أحد الضباط بعد أن عرف أنني عربي وقال لي: هل تريد رؤية المغاربة؟..

قلت: نعم..

فاقتادني إلى حاجز متين وقال: تطلع من هذه الفتحة.. فتطلعت منها ورأيت جماعات من المغاربة يعتمرون العمائم، وهم على أهبة الاستعداد لخوض المعركة.. فرفعت صوتي بواسطة مكبر الصوت وقلت: إسمعوا يا إخوان!..

فارتعشوا وركزوا أنظارهم نحو الحاجز..

وتابعت كلامي قائلاً: «أنا عربي مثلكم، جيت من بلاد العرب البعيدة.. أنا أنصحكم يا إخوان بأن تهربوا من صفوف الجنرالات ديالكم اللي يظلموكم في دياركم.. تعالوا لعندنا إحنا نعززكم ونكرمكم، وندفع لكل واحد منكم مصروفه اليومي.. واللي ما يحب يقاتل نرجعه بعدين إلى أهله وأرضه وعمله.

«فيفا الفرنته بوبولاره.. فيفا الربوبليكا.. فيفا البرزدنته أسانيا.. فيفا الموروك!»..

وما إن أنهيت كلامي، وتمت ترجمته إلى قادة العصاة، حتى اشتعلت الجبهة بجميع أنواع الأسلحة، فجذبني الضابط الإسباني إلى الخلف بشدة وقال: ما هذا؟.. هل ألقيت قذائف من فمك!..

ميخائيل كولتسوف: تعرفت بعد عودتي من جبهة الجنوب إلى مراسل جريدة «البرافدا» الروسية ميخائيل كولتسوف في مدريد، وكان يغطي أخبار المعارك برسائله اليومية، ابتداء من الثالث من شهر آب/أغسطس ١٩٣٦.

تحدثت إليه بالروسية وأطلعته على مهمتي، وكان يستمع إليّ باهتمام بالغ،

ويدون كل ما أحدثه به.. ثم قال: سأخص «البرافدا» بحديث عن مهمتك وعن القضية المغربية.

وفي ٢٠ أيلول/سبتمبر ١٩٣٦، نشرت الصحيفة السوفياتية مقالة كولتسوف (استناداً إلى مذكراته)، يتحدث فيها عن أسيرين مغربيين جريحين، فلا يجد فيهما ما يثير الرعب في القلوب.. ويقول إن عدد الجنود المغاربة الذين يشتركون في القتال يقدر بعشرين ألف نسمة، وأنهم كانوا في الماضي يقاتلون إلى جانب المستعمرين ضد عبد الكريم الخطابي، وهم اليوم يحاربون إلى جانب فرنكو ضد عمال إسبانيا.

ثم يصف مقدرة الجندي المغربي على الدقة في التصويب، والاقتصاد بالرصاص لكثرة ما مارسه من قتال في بلاده الجبلية.. ثم يتحدث عن الأعمال الوحشية التي يرتكبها العصاة من قتل أبرياء، ونهب وسلب واغتصاب، وكيف يلقون التبعة في ذلك كله على «المورو»، أي المغاربة، إلى أن يقول:

«والآن تجري محاولة لتأليف طابور كامل من الأسرى والفارين من المغاربة، ويقوم بهذا العمل شاب عربي مناهض للفاشستية اسمه مصطفى بن جلا (تلفظ بالإسبانية بن خلا، وهو كتبها بالروسية بن كلا). إنه يدعو الريفيين للاستيلاء على أملاك الجنرالات العصاة في مراكش وعلى أراضي رجال الفرقة الأجنبية.

«ويقول بن جلا في ندائه المكتوب: لقد انتزع المستعمرون منكم أخصب أراضيكم، أوليس من الجنون أن تقاتلوا وتسفكوا الدماء من أجل سيادة هؤلاء الأشقياء.

«وفي هذه الأيام يعثرون في جيوب الفارين والقتلى من المغاربة على نشرات مصطفى بن جلا.»

ثم ينتقد كولتسوف حكومة الجبهة الشعبية التي لم تعلن الاستقلال الذاتي للمقاطعات الإفريقية أسوة بالمقاطعات المستقلة ذاتياً في إسبانيا، مثل الباسك وقطالونيا.

لقد سمعت أثناء تجوالي في ميادين القتال شكاوى عديدة من الجنود الإسبان، تنم عن عدم الثقة بالجنود المغاربة.. منها أنهم عندما يقتربون من خنادق القوات المغربية، يدعونهم بالصوت العالي إلى الالتحاق بالقوات الجمهورية، فيرفع المغاربة قبضات أيديهم إلى العلا ويصرخون «يو استار روخو»!.. أي «إنني أيضاً أحمر»!.. فيتقدم الإسبان نحوهم للمصافحة، فيقابلونهم بإلقاء القنابل اليدوية عليهم.. ولمّا عدت إلى مدريد نشرت في صحيفة «بوليتيكا» الجمهورية اليسارية

مقالاً عن المغاربة، رويت فيه هذه الحوادث.. فعمدت هيئة تحرير الصحيفة إلى نشر رسم يظهر فيه المغربي في الجبهة وهو رافع قبضة يده ويصرخ «يو استار روخو»، ويقف من خلفه جنرال إسباني عاص، ويعلق على هذا الكلام متهكماً بقوله: «إذا كنت أنت أحمر فأحرى بي أن أكون أنا أسودا»..

وحدث إبان معركة مدريد أن هاجم المغاربة منطقة المدينة الجامعية في ضواحي مدريد، واقتحم بعضهم جناح كلية الفلسفة، وهناك التقى متطوع فرنسي من القوات الدولية جندياً مغربياً ضخم الجسم واشتبكا معاً بالأيدي، ولم يستطيعا التخلص من بعضهما، فمد الفرنسي يده إلى حزام المغربي، وانتزع منه قنبلة يدوية، على شكل يد الهاون، وقرع بها رأس خصمه فانفجرت وقتلتهما معاً.

قصة سيدي جلول: في صباح أحد أيام كانون الأول/ ديسمبر من سنة ١٩٣٦، جاءني رجل من المليشيا الجمهورية، وأفادني أن زملاءه ألقوا القبض بالمصادفة على بعض الجنود المغاربة، قال: شن العصاة أمس هجوماً عنيفاً، فوصلت طلائعهم إلى محطة سكة الحديد المركزية، ثم تسلل من بينهم أربعة جنود مغاربة، واندفعوا إلى بهو المحطة غير عابئين بالقذائف المتساقطة هنا وهناك، واقتربوا من شباك قطع التذاكر، وسألوا مدير الصندوق أن يصرف لهم بعض الأوراق المالية الأجنبية، وما إن تفحصها حتى تبيّن له أنها ماركات ألمانية استعملت إبان الحرب العالمية (أي الأولى). وقد طبعت عليها أرقام ٢٠ ألف مارك أو ٥٠ ألف مارك، وزعتها قيادة الجنرال فرنكو على المتطوعين من المغاربة العرب، بسبب قلة النقد الإسباني وسقوط قيمته.

ثم طرح رجل المليشيا أمامي هذه الأوراق المالية، فالتقطت لها صوراً، ثم رجوته أن يقودني إلى المكان الذي احتجزوا فيه الأسرى المغاربة الأربعة.

توجهنا إلى ثكنة الحرس الملكي سابقاً، الواقعة بالقرب من تمثال «دون كيشوت وسانشو بانزا» في نهاية «الشارع الكبير» من العاصمة الإسبانية. وفي قاعة واسعة من هذه الثكنة رأيت أربعة رجال مغاربة قد استلقوا على الأرض، مغبرين، مرهقين، جياعاً، فقلت لهم السلام عليكم يا إخوان!.. فانتفضوا، وحاولوا الجلوس، وتطلعوا إليّ بتوسل واستعطاف، وراحوا يتزاحمون للتقرّب مني لعلي أكون رسول خير جاء لينقذهم من ورطة وقعوا فيها مرغمين.

قلت: لا تجزعوا، إنني صحافي عربي قدمت إلى إسبانيا لأطلع على حقيقة الحرب الأهلية، وبوسعكم أن تفضوا إليّ بكل ما جرى لكم منذ غادرتم بلادكم إلى أن وقعتم في الأسر.

ودار بيني وبين أحدهم الحديث التالي:

ـ ما اسمك؟

ـ عبد القادر بن عبد السلام.

ـ كم لك من العمر؟

ـ ثلاثون سنة.

ـ ما اسم بلدتك؟

ـ العرايش.

ـ ما هي مهنتك؟

ـ فاخوري.

ـ لماذا تطوعت في قوات الجنرال فرنكو؟

ـ أنا لم أتطوع مختاراً، بل جاءني أحد أفراد البوليس في العرايش وقال لي إنني مطلوب للمحكمة، ولمّا بلغت دائرة الشرطة وجدت الكثير من أبناء بلدتي ينتظرون!.. وبعد دقائق حملونا في سيارة أقلتنا إلى المطار، حيث وزعونا أقساماً، يتألف كل قسم من ٣٠ نفراً، وأرغمونا على ارتداء الألبسة العسكرية، ولكنهم لم يجهزونا بالسلاح، وساقونا إلى حيث تجثم الطائرات الكبيرة، وطلبوا منا ركوبها. إلاّ إن فريقاً منا أبى ركوب «الطائر الأحمق»، خوفاً من التحليق في الجو.. وكان نصيبه الضرب والسجن، أمّا الفريق الآخر فركبها جاهلاً أنها ستحط به في ميادين القتال الإسبانية.

ـ وبعد ذلك ماذا جرى لكم؟

ـ طارت بنا الطائرة ونحن في جوفها مثل سمك السردين بعضنا فوق بعض، يتقيأ كل منا على رفيقه. وبعد ساعتين من الزمن هبطت بنا الطائرة في «خيرس» الإسبانية، حيث أركبونا القطار إلى «إشبيلية»، ومن ثم نُقلنا إلى «سالامانكا»، ومنها إلى «قـاريـس»، حيث مكثنا ثلاثة أيام تمرّنا في أثنائها على فنون القتال.. ثم انتقلنا إلى «بورغوس» و«سيغوبيا»، ومنها إلى «سانت رفائيل».. وفي مساء يوم وصولنا نقلونا إلى جبهة «بغرينوس».. وفي اليوم التالي هربنا إلى صفوف الجمهوريين، بعد أن مكثنا أربعة أيام بلا أكل، نجتاز الأحراج على غير هدى.

ـ ما هي أنواع الدعاوة التي كانت تبث بينكم ضد الجمهورية؟

ـ كانوا يبعدوننا عن الأمور السياسية ويريدون منا أن نكون جنوداً فقط!.. غير أن الضباط المغاربة كانوا يقولون لنا أحياناً إن «الروخوس» (الحمر) هم سبب شقاء المغرب.. وأن «الخنراليس» (العسكريين) أرسلتهم العناية الإلهية لإنقاذ مراكش والمراكشيين!..

- ما الذي دفعك للهرب من صفوف فرنكو والالتجاء إلى صفوف الجمهوريين؟

تململ محدثي قليلاً وأخذ يفكر، ثم رفع رأسه وقال لي بلهجة تنم عن السذاجة الفطرية، والإيمان التقليدي:

- رأيت في المنام في الليلة التي هربت فيها شبح سيدي جلول* وقال لي: يا ولدي عبد القادر.. عليك أن تنهض حالاً وتنتقل إلى خطوط حكومة «آيات الأربعين»**، على أن تصطحب بعض رفاقك الذين تثق بهم. فنهضت مذعوراً، ونفذت أمر سيدي جلول، وأيقظت هؤلاء الثلاثة الذين تراهم هنا، وولجنا الأحراج، ثم أخذنا نسير بمحاذاة أعمدة التلفون متجهين نحو الأراضي الجمهورية. تهنا في الطريق، وبقينا أربعة أيام ولا غذاء لنا سوى الحشائش البرية. وفي مساء اليوم الرابع اعترضت سبيلنا جماعة من المليشيا الجمهورية، فرمينا بنادقنا، ورفعنا أيدينا مستسلمين.

- وإذا حدث لك ورأيت في المنام سيدي جلول مرة أُخرى وقال لك يا ولدي عبد القادر عد من حيث أتيت، فماذا تفعل؟..

امتقع وجه المسكين، وتلعثم لسانه فلم يدر بماذا يجيب، وبعد ثوان من الحيرة وتبادل النظرات مع رفاقه، قال:

- لن نعود مهما كان الأمر!..

- ولو كان في ذلك مخالفة لسيدي جلول؟..

- ولو كان في ذلك مخالفة له!..

- ما هي أمنيتكم الآن؟.. أتريدون العودة إلى مراكش، أم تفضلون البقاء هنا؟..

- إن عدنا إلى مراكش نرجع إلى إسبانيا ثانية!.. إننا نفضل البقاء هنا في الأسر إلى أن تنتهي الحرب.

تركت هؤلاء البائسين وقد وعدتهم بالتوسط لدى المراجع الإيجابية للعناية بهم.. ولمّا هممت بالخروج من الغرفة صاح عبد القادر:

- يا أستاذ.. يا أستاذ!.. أنظر إلى هذه الكتابة، لقد رمتها علينا الطائرات منذ أسبوع.. فيها الكلام «المزيان بالزاف» (أي الجيد جداً)، وأخرج من عمامته

* «سيدي جلول».. يقع ضريحه بالقرب من بلدة العرائش، يقصده المغاربة للدعاء وطلب الحاجة.

** «آيات الأربعين».. تعني في عرف المغاربة «الجمهورية». ويطلق عليها هذا الاسم لاعتقادهم أن الذين يحكمونها هم أربعون نائباً وليس ملكاً واحداً.

ورقة طويت بعناية، وناولني إياها، ففتحتها فإذا بها منشور بالعربية يقول:

«وزارة الدعاية للجمهورية الإسبانية

«بسم الله الرحمن الرحيم

«أيها الجنود المغاربة المسلمون..

«يأمركم الله ورسوله بأن لا تطيعوا من يدفعكم إلى البغي والضلال، وارتكاب الموبقات.. الأولى بكم أن تهربوا من صفوف الجنرال فرنكو بأسلحتكم الكاملة.. وتعدكم حكومة الجمهورية بأنها تؤمنكم على حياتكم، وتعيدكم إلى بلادكم، حيث نساؤكم وأطفالكم يموتون من الجوع.

«الذي يبقى منكم مع فرنكو يموت غريباً عن دياره وأهله، والذي يأتي إلينا يسلم بروحه، ونتقده عشرة (بسيطات) يومياً.

«والسلام عليكم.»

الجيش النظامي الجمهوري: لقد لمّحت في فصل سابق إلى أن معظم الجيش النظامي كان يؤيد العصاة، وأن معظم الشعب الإسباني يؤيد الجمهوريين، وهؤلاء يفتقرون إلى قوات نظامية، فاضطروا للاعتماد على قوات المليشيا الحزبية، وإلى مساندة المتطوعين الدوليين.

وكانت هذه الفترة عصيبة بالنسبة للجمهورية الإسبانية. فبينما يزحف فرنكو بقوات نظامية لها خبرة في حرب الريف، تساندة قوات مغربية لها خبرة في حرب العصابات، وقوات ألمانية من فرقة «بانزر» المعروفة بعسكريتها، وقوات إيطالية لها خبرة في ليبيا والحبشة، كان الجمهوريون يقابلونهم بقوات متفككة قليلة الخبرة في العمليات العسكرية وما يرافقها من تخطيطات استراتيجية.

وأذكر على سبيل المثل أن الإسباني الشعبي يمقت الاحتماء في الخنادق ويعتبره إهانة لرجولته، ويؤثر القتال من وراء شجرة أو من خلف صخرة أو وجهاً لوجه بالسلاح الأبيض.. غير أن هذا النمط الرومانطيقي من القتال قد أثبت عدم جدواه في حرب الجيوش النظامية، وتقرر تحويل قوات المليشيا الجمهورية والاشتراكية والشيوعية والفوضوية، إلى قوات نظامية ترتدي الزي العسكري الرسمي، وضمها إلى القوات النظامية الموالية، إضافة إلى القوات الأهلية التي تعنى بالأمن الداخلي. وتم هذا الأمر في شهر أيلول/سبتمبر سنة ١٩٣٦، وتحول بالتالي قواد المليشيات إلى أركان حرب نظاميين، ومن أبرزهم: إميل كليبر، وبافل لوكاتش، وإنريك ليستر، وفيسنته روخو، ودوروتي، وأنطونيو ميخه، وخوسيه مياخا، وغيرهم.

الدفاع عن مدريد: اشتدت المعارك الجوية في سماء إسبانيا. فالطيران السوفياتي يقصف مواقع العصاة، والطيران الألماني والإيطالي يقصفان المدن والمواقع الجمهورية، وقد تم لهما تدمير مدينة غرنيكا* تدميراً تاماً. وتعرضت مدريد للقصف من الجو بشراسة، وهاجمتها جحافل العصاة من كل جانب.. وكان شعار الجمهوريين: «القتال في كل شارع وفي كل بيت والصمود مهما كلف الثمن.» كانت مدريد شبه محاصرة منذ شهر تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩٣٦، ثم غدت محاصرة تماماً باستثناء بعض الممرات الشرقية منها، منذ الثالث من آذار/مارس سنة ١٩٣٧. أمّا الحكومة الجمهورية فقد غادرت مدريد في تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٩٣٧ ولجأت إلى فالنسيا، ثم إلى برشلونة، تاركة أمر الدفاع عن العاصمة إلى «الخونته»، أي لجنة الدفاع، بقيادة الجنرال مياخا وإنريك ليستر وغيرهما من القادة، وبالتعاون الوثيق مع القوات الدولية، التي تكبدت خسائر جسيمة في جبهة المدينة الجامعية بصورة خاصة. وفي سنة ١٩٣٨ استولت قوات فرنكو على غرب إسبانيا وشمالها بأكملهما، غير أن قطالونيا ومعظم مقاطعة الأراغون ظلتا بأيدي الجمهوريين. وكان سقوط مدريد في ١٩ أيار/مايو من سنة ١٩٣٩، وبسقوطها طويت آخر صفحة من الحرب الأهلية الإسبانية، بعد أن سقط فيها حوالي مليون قتيل!..

أعلام عالميون: لقد عملت الحرب الأهلية في إسبانيا على اجتذاب العديد من أعلام الفكر والأدب والسياسة، أو الذين باتوا أعلاماً فيما بعد. فتوافدوا إليها في ثلاث حالات: للإسهام في القتال، أو للزيارة العابرة، أو للاشتراك في مؤتمر الكتاب الدولي المنعقد في فالنسيا في الرابع من شهر تموز/يوليو سنة ١٩٣٧، والمنتقل إلى مدريد المقاتلة في السادس منه. ومن أولئك الأعلام:

١ ـ «جوزب بروز تيتو» (١٨٩١ ـ   )**، كان مناضلاً حزبياً في بلاده، حكم عليه بالسجن خمس سنوات، من سنة ١٩٢٨ حتى سنة ١٩٣٣. وفي سنة ١٩٣٦ سافر إلى إسبانيا كمتطوع بسيط لم يلحظه أحد تقريباً، وانضم إلى الفرقة الدولية الأولى وهو في الخامسة والأربعين من عمره، واشترك في معركة مدريد،

---

* «غرنيكا».. مدينة صغيرة في مقاطعة «بسكاي» في شمال إسبانيا، عاصمتها «بلباو»، لها مكانة في تاريخ البلاد، إذ إن الملك فرديناند والملكة إيزابيل القشطاليين، قد أقسما فيها اليمين باحترام حريات شعب الباسك. ومدينة غرنيكا هذه أوحت لبيكاسو رسم لوحة سيريالية تعتبر من أروع أعماله، صور فيها برمزية خشنة فظائع الطيران النازي في تدميرها.

** توفي تيتو سنة ١٩٨٠. (المحرر)

واكتسب خبرة عظيمة أفادته في معارك تحرير يوغسلافيا من الاحتلال الألماني، إبان الحرب العالمية الثانية، ثم غدا رئيساً للدولة اليوغسلافية، وقائداً أعلى لقواتها المسلحة.

٢ ـ «أندره مالرو» (١٩٠١ ـ ١٩٧٦)، سافر إلى الصين في سنة ١٩٢٥، وانضم إلى لجنة الاثني عشر التابعة لحزب «الكومنتانغ» الثوري في كانتون.. وفي سنة ١٩٣٧ سافر إلى إسبانيا والتحق بالقوات الجمهورية، وعمل في تنظيم قوة جوية من المتطوعين الأجانب، وخدم هو شخصياً في سلاح الطيران الجمهوري بصفة «ضارب رشاش» وجرح في المعارك مرتين. وقد أوحت له الحرب الأهلية الإسبانية قصة «أمل الإنسان»، أي «الرجل الذي عبثاً يموت ليحول دون اكتساح الفاشستية لإسبانيا.»

٣ ـ «إرنست همنغواي» (١٨٩٩ ـ ١٩٦١)، جاء إلى إسبانيا في ٢٥ آذار/ مارس سنة ١٩٣٧، وزار جبهة وادي الحجارة، التي أحرز فيها الجمهوريون انتصاراً باهراً على جنود موسوليني، برفقة القائدين ليستر ولوكاتش. وبعد أن تفقد تلك الجبهة قال: «هذه بداية الانتصار على الفاشستية.» وجعل همنغواي مقره في فندق «فلوريدا» في الشارع الكبير من مدريد، ومنه كان ينطلق إلى جبهات القتال باحثاً ودارساً، فيتعرف إلى المقاتلين الإسبان، ورجال الفرقة الدولية، ويحتك بالقرويين الثائرين والمسالمين على حد سواء، ويتزود منهم بمعلومات جمة، أهلته لأن يضع في سنة ١٩٤٠، روايته الشهيرة «لمن تقرع الأجراس»*، وهي رواية تمتاز بعنصر التوتر فيها، وبعنفوان أبطالها، وخاصة المناضلة «بيلار»، وبفكرتها القائلة: «إن التضحية بالحرية في أي مكان، لا بد وأن تسفر عن الشعور بخسارتها في كل مكان».. أي أن تضحية أي طرف، من الإسبان أو غير الإسبان، بحريتهم في أي اقتتال، ومن أجل أية أهداف كانت، ستسفر في النتيجة عن الشعور بخسارة هذه الحرية بالنسبة للجميع!.. فهمنغواي لم يجد في إسبانيا منتصراً ومهزوماً.. فالأجراس في نظره تقرع للجميع!..

٤ ـ «جورج أورويل» الإنكليزي، واسمه الحقيقي «إريك بلاير»، ولد في الهند سنة ١٩٠٣. توجه إلى إسبانيا سنة ١٩٣٧، وقاتل في صفوف الجمهوريين وجرح، وكانت وفاته في لندن سنة ١٩٥٠. وقد أوحت الحرب الأهلية في إسبانيا لأورويل وضع كتاب بعنوان «تحية إلى قطالونيا»، يصف فيه متطوعاً إنكليزياً أصيب

* أخرجت هوليوود قصة «لمن تقرع الأجراس» سنة ١٩٤٣، بطولة إنغريد برغمان وغاري كوبر. وكان دخل المؤلف من هذا الفيلم ١٥٠ ألف دولار.

بجرح بالغ في جبهة القتال، ثم اضطر إلى الهرب والاختفاء عن الأنظار عندما شاهد المناضلين يصفّون خلافاتهم الحزبية في شوارع برشلونة!..

٥ ـ «أرثر كويستلر» الهنغاري، ولد في بودابست سنة ١٩٠٥. عمل في حقل الصحافة سنة ١٩٢٨ في برلين وباريس والقاهرة ولندن.. وفي سنة ١٩٣٦ أوفدته صحيفة «نيوز كرونيكل» إلى إسبانيا لتغطية أنباء الحرب الأهلية، وكانت مقالاته تهاجم العصاة بعنف. ثم صدر له كتاب في لندن بعنوان «إسبانيا الذبيحة» أثار الجنرال العاصي كيبو دليانو، وأقسم بأن يقضي على كويستلر إذا ما وقع في قبضته.. ولم تمض أشهر قليلة حتى قبض العصاة على كويستلر في مالقا، وتعرض للتعذيب، ثم حكموا عليه بالموت، ولم ينقذه من هذا المصير سوى تدخل الحكومة البريطانية. وبعد الإفراج عنه وعودته إلى إنكلترا، وضع كتاباً جديداً بعنوان «حوار مع الموت»، يصف فيه ما لاقاه من صنوف العذاب في سجون الفاشست الإسبان.

الجمعية الإسبانية ـ المغربية: كنت ذات يوم أجلس في مكتبي في شارع «سرانو» حين جاءني أحد رجال المليشيا وقال لي إن في الباب الخارجي فتاة إسبانية حسناء تريد مقابلتك!..

قلت: ما اسمها.. وماذا تريد؟..

قال: اسمها كارمن، وتقول أنها من أصل عربي..

قلت: إنني خارج إليها..

وتركت مكتبي ونزلت الدرج حتى بلغت الباب الخارجي للعمارة، وإذا بي أرى فتاة في العشرين من عمرها، متوسطة القامة، بيضاء البشرة، سوداء العينين والشعر.. فابتسمت لي ومدت يدها مصافحة.. وقالت بالفرنسية اسمي كارمن، وأنا إسبانية ولي من العرب عرق!..

قلت: أهلاً بك، وإنني لسعيد بهذه المعرفة..

قالت: قرأت لك مقالاً عن المغاربة في صحيفة «أنفورماسيونيس»، ويسرني أن أتحدث إليك بصدد هذا المقال إن أمكن..

فتصفحت وجهها ونظراتها وهيأتها فلمحت فيها الصدق والبراءة، وقلت لها: أرجو أن تتصلي بي هاتفياً في الغد لنحدد موعداً للمقابلة. فأبدت ارتياحها، ودونت رقم الهاتف، وشدت على يدي وذهبت في سبيلها.

راجعت الرفاق بصددها فقالوا لي: لقد تعرفتَ بالأمس إلى الطالب المغربي عمر الوزاني، واليوم تتعرف إلى فتاة تتحدر من أصل عربي، وهكذا تنمو الجالية

العربية.. قابلها وتحدث إليها..

وبالفعل كانت كارمن الحسناء واسطة للتعارف بفريق من الشباب الإسباني الجمهوري، الذي يريد خدمة القضية المغربية، والتآخي بين الإسبان والمغاربة. فعقدنا الاجتماعات، واتفقنا على تأسيس «الجمعية الإسبانية ـ المغربية»، وحددنا أهداف هذه الجمعية وهي: تنظيم الدعاية في جبهات القتال في اتجاهين معينين: أولاً، حث الجنود المغاربة على الانضمام إلى صفوف الجمهوريين، وإقناعهم بأن الجمهورية ستترك لهم حرية تقرير المصير.. وثانياً، إفهام الجنود الإسبان أن المغاربة ليسوا فريقاً في الحرب الأهلية الإسبانية، وإنما هم قد غرر بهم، أو استدرجوا للقتال بسبب بؤسهم وسوء أحوالهم المعيشية الناتجة عن سيادة الاستعمار الإسباني.. وشرعت الجمعية في عملها، واتخذنا لها مكتباً، وصنعنا لها خاتماً، وعيّنا لها أمينة سر هي الفتاة كارمن.

لقد تمت بهذا العمل عن قناعة ذاتية بفائدته. ولمّا انتشر خبر الجمعية في الصحف أخذ عليّ الرفاق الإسبان ذلك، قائلين أنهم يخشون قيام جمعية كهذه. فدافعت عن موقفي مؤكداً أنني لا أستطيع القيام بمفردي بأي عمل مثمر، وأن عليّ أن أوجد «حركة» يعاونني فيها المغاربة والإسبان معاً.

وظلت هذه الجمعية تعمل وتتسع إلى أن غادرتُ إسبانيا، ثم انقطعت أخبارها عني.

وأذكر هنا أن الرفاق الإسبان كانوا في موقفهم من المغاربة والقضية المغربية نظريين أكثر منهم عمليين. ولمست فيهم، وخاصة في «فيسنته أوريبه»، عدم ثقة بأي مغربي إطلاقاً. وقد نبهتهم غير مرة إلى حوادث إعدام الأسرى من الجنود المغاربة، وشعرت في قرارة نفسي أن مهمتي تتعثر، وأن عليّ أن أبحث عن طريقة أجدى وأنفع في التأثير على الجنود المغاربة، وعلى الريف المغربي جملة، هي إقامة إذاعة سرية في الجزائر، تبث بالعربية الفصحى وباللهجتين المغربية والقبائلية.

الفصل التاسع

١١ ـ المشروع الجزائري

الإذاعة السرية: في أواخر شهر كانون الأول/ديسمبر من سنة ١٩٣٦، قررت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الإسباني إيفادي، برفقة مسؤول إسباني، وعمر الوزاني إلى مدينة الجزائر لإنشاء محطة إذاعة سرية فيها تبث إلى إفريقيا الشمالية عامة، وإلى المغرب الإسباني خاصة.. وأن تحصر دعايتها ضد العصاة الإسبان، وضد العناصر المغربية المغرر بها والخطرة التي تواكب الزحف الفاشستي، ثم التركيز على دعوة المغرب الإسباني إلى الثورة على حكامه المستعمرين.

توجهنا ثلاثتنا إلى برشلونة، ومنها إلى بلدة «بورت بو» الحدودية. وهناك افترقنا، فالمسؤول الإسباني وعمر الوزاني استقلا الباخرة إلى مدينة الجزائر، واتفقنا على أن نلتقي في مدينة الجزائر في يوم معين وفي فندق معين.

وفي باريس التقيت ثانية بـ «ريشار» الذي أعد لي هوية فرنسية، وزودني بنصيحة قائلاً: «عندما تغادر الباخرة في ميناء الجزائر لا تعر الحرس اهتماماً، فانطلق منها رافع الرأس»!..

لم أمكث في باريس سوى يومين، ثم سافرت إلى مرسيليا ومنها إلى مدينة الجزائر. وعملت بنصيحة ريشار، وتوجهت رأساً إلى الفندق الذي اتفقنا على أن نلتقي فيه.

وكان على المسؤول الإسباني أن يؤمن الجهاز الإذاعي، والمهندس، ومكان البث، بالتعاون مع المنظمة الشيوعية في مدينة الجزائر.. وتعاقبت الأيام وأنا أنتظر نتيجة مساعيه، وكنت أتردد في هذه الأثناء إلى «القصبة»، أي الحي الإسلامي في المدينة، وهي مجموعة بيوت متراصة شيدت على جبل، قد شقت فيه الطرق المدرجة صعداً، عبر ممرات ضيقة، تنتشر فيها الأزقة يميناً ويساراً، وتنتهي في الارتفاع إلى ساحة واسعة يعرض فيها الجزائريون، والقرويون منهم بصورة خاصة، مصنوعاتهم اليدوية، والمواد الغذائية، وسط خليط من قطعان الخراف والماعز وجميع أنواع الماشية.. ويقع نظر المرء هنا وهناك على نفر من العسكريين الفرنسيين، والأجانب، يتجولون في هذه الساحة بقصد التبضع والتمتع.

وأمّا أحياء المدينة الساحلية، التي يسكنها الأوروبيون (الفرنسيون، والإسبان، والطليان) فهي لا تختلف بشيء عن شوارع مرسيليا، بيوت عالية، وطرقات نظيفة، ومخازن ومطاعم على مستوى رفيع، وخواجات بالقبعات المفلطحة، وسيدات أنيقات جذابات لعوبات جمعن بين بياض البشرة وسواد الشعر والعينين الجزائريين. والكل يرطن بلهجات سكان السواحل الفرنسية والإسبانية والإيطالية. وتقوم خلف هذه الأحياء جنوباً أسواق بلدية، يشغلها جزائريون مسلمون، يتكلمون العربية المحلية، ويستعملون الحرف الفرنسي، فيشاهد المرء مثلاً لوحة علقت فوق باب «حمّام»، وكتبت عليها هذه الكلمة العربية بحرف فرنجي مهزوز مهلهل.. فاللغة العربية مندثرة تماماً والقوم ينظرون بشيء من القداسة إلى المطبوعات العربية. والواقع أن احتفاظهم باللغة العربية الدارجة وبالفصحى مرده إلى تمسكهم الشديد بالدين الإسلامي، وبالقرآن الكريم، وبالأحاديث النبوية الشريفة؛ فالإسلام وحده حال دون فقدانهم شخصيتهم العربية.

قمت في هذه الأثناء بزيارة لمدينة وهران ليوم واحد فقط، برفقة عمر الوزاني.. إنها ميناء جزائري، ذات مناظر خلابة وخاصة مطلّها من رأس الخليج. تقع على بعد ٢٦٠ ميلاً غربي العاصمة، فيها جامع، وكاتدرائية، وحصنان، وكلية، ومدرسة، ولها شهرة واسعة في تجارة «نبات البردي»، وخام الحديد، والحبوب، وكانت وقتئذ قاعدة بحرية فرنسية لها أهميتها.

تعرفت في وهران بواسطة عمر الوزاني إلى الأمين العام لجمعية العلماء المسلمين، الشيخ محمد الزاهري، وهو رجل في سبيله إلى الأربعين من عمره، مديد القامة، أبيض البشرة.. وكانت لنا جلسة في مقهى عربي قريب من جامع وهران، حدثنا فيها عن رئيس الجمعية الشيخ عبد الحميد بن باديس (١٨٨٩ - ١٩٤٠)، وما له من مكانة في نفوس الجزائريين، كما حدثنا عن رسالة الجمعية التي «ترمي إلى توحيد صفوف المسلمين في الجزائر، والعناية بشؤونهم الدينية، وأحوالهم الشخصية، وتدريسهم القرآن الكريم واللغة العربية، إضافة إلى ما لها من أهداف وطنية استقلالية غير مدونة في منهجها صراحة، ثم تطرق في حديثه عن ملاحقة السلطات الفرنسية لهذه الجمعية، وما يتعرض له رئيسها من ملاحقات ومضايقات.»

ولما سألته عن رأيه في زج المغرب الإسباني في الحرب الأهلية الإسبانية، قال: «نحن ضد التدخل في هذه الحرب، ونعارض إرسال الجنود إلى جبهة القتال حيث لا ناقة لهم ولا جمل.»

في وهران أفادني عمر الوزاني أنه لا يرغب في العودة إلى مدينة الجزائر ما دام مشروع الإذاعة السرية يتعثر، وأنه قد عقد النية على السفر إلى تطوان لزيارة أهله الذين لم يرهم منذ مدة طويلة. ولم يسعني إلاّ النزول عند رغبته هذه، فهو شاب عربي وجمهوري النزعة، لكن لا سلطة لنا عليه، فودعته على أمل اللقاء به في يوم من الأيام.

وعدت أدراجي إلى مدينة الجزائر، بانتظار إنجاز «المشروع الجزائري». وفي ليلة من ليالي الضجر حضرت حفلة موسيقية أحيتها الفرقة الفيلهارمونية الفرنسية في المسرح الكبير، استمعت فيها إلى السمفونية التاسعة لبتهوفن باشتراك الكورس الكبير. متعت نفسي في سماع هذا العمل الفني الرائع، وعدت إلى الفندق لأكتب مقالاً عن هذه السمفونية، وعكفت على ترجمة «نشيد الحرية» أو «نشيد المسرة» للشاعر والكاتب الألماني جوهان فريدريك شيللر (١٧٥٩ ـ ١٨٠٥)، الذي تنشده المجموعة في نهاية السمفونية.

بقيت في مدينة الجزائر حوالي أسبوعين، والمحطة السرية لم تقم لها قائمة، إلى أن قال لي المسؤول الإسباني: «لقد فشل المشروع الجزائري لأسباب فنية قاهرة، وبوسعك أن تسافر إلى حيث تريد، وفي رأيي أن عودتك إلى إسبانيا لا معنى لها، فالحالة فيها في تدهور مستمر، ومن الأفضل لك أن تعود إلى بلدك»!..

باريس.. باريس: لم أعمل برأي المسؤول الإسباني وآثرت العودة إلى باريس، ليكون تحركي نظامياً.. غير أن قراري هذا قد سبب لي متاعب لم أتوقعها قط.. فالحزب الفرنسي لا يعترف بي ويقول أنت في تصرف الحزب الإسباني، أو في تصرف الكومنترن، وأنا مقتنع تماماً بأن مهمتي في إسبانيا قد انتهت، وأن العودة إليها هي ضرب من المغامرة، وخاصة أن الحكومة الإسبانية ومعظم المنظمات الحزبية ورجال السياسة والأدب قد غادروا مدريد إلى فالنسيا العاصمة الجديدة لإسبانيا الجمهورية.. زد على ذلك أنني التقيت ببعض زعماء الحزب الإسباني في باريس ذاتها، فقال لي أحدهم: ما الذي تفعله هنا؟..

قلت له: لم ينجح مشروع الجزائر..

قال حانقاً: إذاً عد إلى مدريد..

وبعد أيام مر خالد بكداش بباريس في طريقه من موسكو إلى بيروت، وقضينا سهرة عيد الميلاد (١٩٣٦) معاً، فدلفنا أولاً إلى بار أرضي في حي سان ميشيل،

ولم نكن لندري أن رواده من جماعة الكولونيل دي لا روك*. فتقدم منا أحدهم وقال بالفرنسية: «لا أدري هل أمد لكما يداً أم خنجراً»!.. فأفهمناه أننا غرباء تتنقل بين البارات عشية عيد الميلاد المجيد.. فارتاح لدى سماعه هذا الجواب وقال: إذاً أمد لكما يدي.

لقد حاول خالد إقناعي بالعودة إلى إسبانيا بعد أن باتت قوات العصاة تحتل ثلاثة أرباع البلاد، وأفهمته أن لي عقلاً أستنير به، ولا أجد مبرراً لعودتي إلى إسبانيا الحرب الأهلية في فترة النزوح والاندحار.

قال: إنني أدرك مخاوفك، ومع ذلك أقول لك يا رفيق سعدي عد إلى إسبانيا، وإذا قُتلت فيها فثق بأنني لن أنساك، وسأضع عنك كتاباً يخلد ذكراك!..

وبعد لحظة من الصمت قال: إذا لم تسافر إلى إسبانيا ثانية لسبب ما، فلك أن تطلب من الكومنترن نقلك إلى بيروت حيث تكون في تصرفنا.

في هذه الأثناء وفد إلى باريس رياض الصلح، وعبد الحميد كرامي، وروبير خلاط، للتفاوض مع الفرنسيين بصدد عقد معاهدة بين فرنسا والجمهورية اللبنانية. وقمنا بزيارة لرياض الصلح في فندق «كلاريدج» في شارع سان أونوريه، حدثنا فيها عن مهامه السياسية. ثم حضرنا اجتماعاً عقده عبد الحميد كرامي وروبير خلاط في أحد الأندية الباريسية، تحدث فيه الزعيم الطرابلسي عن معاني الاستقلال والوطنية، وكان أثناء كلامه يسدد أنظاره إلى الأفق وكأنه يتطلع إلى الهدف البعيد الذي يرنو إليه.

وعاد خالد إلى لبنان، وما إن استقر في بيروت حتى أوفد رفيق رضا في أواخر شهر كانون الثاني/يناير سنة ١٩٣٧، ليمثل حزبه لدى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي. ولمّا كان رفيق قليل الخبرة في الحياة الباريسية والسياسية فقد آثر أن نقيم معاً في فندق واحد بالقرب من حديقة «اللوكسمبورغ» ريثما يبت في أمري.

وفي باريس نقحت مقالي عن السمفونية التاسعة لبتهوفن، وأرسلته إلى مجلة «الطليعة» الأدبية، التي يشرف عليها الحزب في بيروت، ونشرته في عدد شباط/

* «الكولونيل دي لا روك».. عسكري أرستقراطي فرنسي متقاعد، أسس في الثلاثينات منظمة «الصليب الناري» الفاشستية. وقد بلغ عدد المنتسبين إليها وقتئذ حوالي ٣٠ ألف نسمة، يسندها صناعيون أثرياء. وهي أول منظمة فرنسية سياسية تعلن عداءها للجمهورية وللديمقراطية منذ الثورة الفرنسية الكبرى.. وكانت حافزاً لقيام الجبهة الشعبية، وتأليف مجلس نواب بأكثرية اشتراكية ساحقة، وارتفاع عدد النواب الشيوعيين من ١٠ نواب إلى ٧٢ نائباً.

فبراير ـ آذار/مارس ١٩٣٧ تحت عنوان «الإيقاع الموسيقي التاسع لبتهوفن». ويبدو أن خالد لم ترق له معالجة موضوع فني عالمي، له طابع إنساني وتحرري، فكتب إلى رفيق رضا رسالة، اطلعت عليها في الفندق مصادفة، يقول له فيها:

«لقد أرسل الرفيق سعدي مقالاً إلى مجلة ‹الطليعة›، يعالج فيه موضوع السمفونية التاسعة لبتهوفن. بربك ما هذا ‹القرف›؟!»*..

طالت مدة إقامتي في باريس، والحزب الفرنسي يأبى الاعتراف بوجودي فتعرضت لضيق مالي شديد.. وحدث مرة أن ولجت مطعماً برفقة رفيق رضا، وتناولنا الغداء معاً، وشربنا النبيذ، ولمّا جاء «الكارسون» بفاتورة الحساب قال لي رفيق نتقاسم المبلغ.. هات ستة فرنكات!..

قلت: إنني لا أحمل في جيبي فرنكاً واحداً!..

فتنمر وزمجر وقال: كيف تسمح لنفسك بأن تأكل على حسابي يا رفيق!..

عقدت النية بعد هذه الحادثة على ترك الفندق الذي ينزل فيه رفيق رضا، والابتعاد عنه قدر المستطاع.. ورحت أتعاون مع سيدة فاضلة ألزاسية المولد اسمها «ليوفانر»، رئيسة عصبة مقاومة الاستعمار في باريس، تقيم في شارع «كلوبان» في منطقة «الكردينال ليموان».. لقد تعاطفت هذه السيدة معي، وآزرتني في موقفي، وأسدت لي كل عون، وأعدت لي لقاء مع فريق من عمال شمال إفريقيا المقيمين في باريس، حدثتهم فيه عن الحرب الإسبانية، وما يلاقيه الجنود المغاربة هناك من مصير بائس، ففرنكو يدفعهم إلى المعارك وارتكاب الفظائع دفعاً، والجمهوريون ناقمون عليهم وقلما يرحمونهم إذا ما وقعوا في أيديهم.. وحثثت الحضور على أن يطالبوا في فرنسا وفي الشمال الإفريقي بسحب القوات المغربية من الجبهة الإسبانية.

وعرفتني ليوفانر برجل في الأربعين من عمره، متوسط القامة، حاد النظر، قائلة: أقدم لك السيد الحبيب بورقيبة، رئيس الحزب الدستوري في تونس.. فعرفته بنفسي، وأفدته أنني كنت في إسبانيا، فاهتم للأمر وسألني أن أزوره في بيت «السيكو روج» (أي المساعدة الحمراء) التابع للحزب الشيوعي الفرنسي، والذي يحل فيه ضيفاً، لنتبادل الرأي في القضايا العربية.. غير أن هذه الزيارة لم تتحقق بسبب انهماكي في متاعبي الخاصة.

وتمتد إقامتي في باريس، وتتوتر العلاقات فيما بيني وبين الرفاق الفرنسيين، حتى أن أحدهم من اللجنة المركزية، واسمه «جورج» ـ أعتقد أنه رئيس الحزب

---

* هذا المقال مثبت في آخر الكتاب.

الفرنسي اليوم جورج مارشه ـ قد «أحب» أن يعرف أين أقيم وما هو الأجر الذي أدفعه للفندق. فقلت له إنني أقيم في أوتيل ماركس (Marks)، فأمسك الدليل وراح يفتش عن أوتيل Marx، ولمّا لم يجده قال لي محتداً: «كيف أوجدت لكارل ماركس أوتيلاً في باريس!؟..

فقلت له: «إبحث عن أوتيل ماركس بـ ks لا بـ x».. فعثر عليه، وبلع ريقه والتزم الصمت.

وهكذا تضاعفت الشراسة ضدي في باريس. ويعود السبب الأساسي فيها إلى مجابهتي للنزعات الاستعمارية لدى بعض قادة الحزبين الشيوعيين الفرنسي والإسباني معاً. لقد طالبت بتعريب الحزب الشيوعي الجزائري، وكانت لي مواقف في هذا المضمار أثناء تحريري لصحيفة «الشرق العربي»، كما أبديت استيائي من لامبالاة قادة الحزب الشيوعي الإسباني تجاه تصفيات الجنود المغاربة، والقضية المغربية عامة.

وأخيراً، بعد إقامة في باريس دامت حتى شهر نيسان/أبريل من سنة ١٩٣٧، وردت التعليمات من الكومترن بتسديد كل ديوني في باريس، وبتزويدي ببطاقة سفر إلى لبنان، مع مبلغ معين.

وكانت هذه التعليمات بمثابة صدمة لمن ناصبني العداء في باريس، حتى أن «ريشار» قد حاول إثارتي بحضور رفيق رضا، فرددت عليه، فقال: «إذا تكلمت أكثر أدفعك إلى الخارج»!..

فتمالكت نفسي وأدركت للتو أنه يستفزني بوقاحته ليسبب لي متاعب جديدة..

وما هي إلاّ أيام حتى كنت في طريقي إلى مرسيليا، ومنها أبحرت إلى إستنبول، ومن محطة «حيدر باشا» ركبت القطار إلى حلب.

الفصل العاشر

١٢ ـ ختام المطاف

العمل في دمشق: أقمت في حلب ليلة واحدة. وفي صباح اليوم التالي توجهت إلى دمشق، وحللت في بيت خالد بكداش في حي الأكراد مؤقتاً، ثم استأجرت غرفة مؤثثة في شارع الحلبوني، تخص امرأة أرمنية أرملة، تعرف باسم مدام زوهراب، تعيش من تأجيرها الغرفة للطلاب الأغراب. أمّا مكتب الحزب فكان في بادئ الأمر في بيت قديم، وفي حي من أحياء دمشق القديمة، تجري في جنباته مياه عين الفيجة، وتنتصف باحته نافورة ماء، فكان في الواقع شبه ناد يتردد إليه الرفاق، بعد انصرافهم من أعمالهم أو من مدارسهم.

ثم انتقل المكتب إلى بيت حديث البناء، يقع في صالحية البرلمان يتلاءم مع علانية الحزب الشيوعي السوري، في عهد الجبهة الشعبية الفرنسية، وفي ولاية أول حكومة وطنية سورية منبثقة عن المعاهدة الفرنسية ـ السورية (تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٩٣٦).

فأول ما فعله خالد حين حللت في دمشق أن توجه بي إلى السراي لمقابلة شكري القوتلي، بوصفه زعيم الكتلة الوطنية ووزير المالية، فقدمني قائلاً: أرجو أن أقدم إلى معاليكم رفيقنا نجاتي صدقي، أو الرفيق سعدي؛ فهو كاتب وصحافي، كان مؤخراً في مدريد في خضم الحرب الأهلية الإسبانية وها هو اليوم يقيم في دمشق ليتعاون معنا لما فيه خير الوطن.

فأجابه القوتلي: أهلاً به وسهلاً، ونأمل أن نستفيد من خبرته وعليك يا خالد أن تعنى به..

وفي اليوم ذاته توجه بي خالد إلى وزير الاقتصاد فايز الخوري، وقدمني له قائلاً: أقدم لكم يا معالي الوزير رفيقنا نجاتي صدقي، خريج جامعة موسكو، تولى تحرير جريدة «الشرق العربي» التي كانت تصدر في باريس، وهو عائد الآن من إسبانيا الحرب الأهلية، ويضع نفسه في تصرف الحركة الوطنية السورية.

فسدد فايز الخوري نظره إليّ وأمارات التعجب مرتسمة على وجهه، ثم خاطب خالد قائلاً: «على الرحب والسعة برفيقك.. ولو أنه كثير علينا.. إحنا

جماعة بنشتغل عالبسيط.. وين إحنا ووين الحرب الأهلية في إسبانيا!».

ثم قمنا بزيارة إلى لطفي الحفار صاحب جريدة «الإنشاء» لسان حال الكتلة الوطنية، ورئيس تحريرها رشيد الملوحي.. وتلا ذلك تعارف مع معظم العاملين في الحقول السياسية، والأدبية، والصحافية في دمشق.. كنا نزورهم في مكاتبهم، أو نلتقي بهم في مقاهي دمشق، ونتبادل الآراء معهم في المعاهدة السورية ـ الفرنسية ومدى فعاليتها، وحكومة الجبهة الشعبية في فرنسا وأثرها في الشرق العربي، والمعارك ضد البريطانيين والصهيونيين في فلسطين، والغزو الفاشستي الإيطالي في الحبشة، والنازية الألمانية واحتمالات وقوع حرب عالمية ثانية يؤجج نارها هتلر وموسوليني، وصراع ستالين ضد المعارضين في الاتحاد السوفياتي. وكانت وجهات النظر متضاربة في مواضيع الساعة السياسية هذه.. غير أن الكل مجمع على مبدأ الاستقلال والتحرر من السيطرة الفرنسية بأية وسيلة ممكنة، بل إن هناك من كان يتمنى الخلاص عبر حرب عالمية ثانية، وغزو نازي فاشستي للمنطقة العربية..

فالنادي العربي في دمشق، ومعظم أعضائه تثقفوا في ألمانيا، كان يبدي تحمساً ملحوظاً للنازية الألمانية، والحزب القومي السوري كان يرى في التحالف مع إيطاليا موسوليني السبيل الوحيد للحرية والاستقلال.

وكانت هناك تيارات أُخرى تقول بالوحدة العربية، والوحدة الإسلامية، والاشتراكية العربية، والشيوعية العربية، يعبّر أتباعها عن مبادئهم وعواطفهم بحركتين من اليد، مقلدين لتيارين عالميين. فاليمين الأقصى يبسط الأذرع ويرفعها إلى العلا بتوتر وإصرار محيياً على الطريقة الرومانية، ومنهم من يرتدون «القمصان الحديدية» ـ قمصان مصنوعة من قماش محلي الصنع لونه رصاصي، ويستعمل في صنع القنابيز الشعبية ـ.. واليسار يؤثر ضم قبضات الأيدي بشدة ورفعها إلى العلا، إشارة إلى الاتحاد والمطارق الضاربة!

وبعد انقضاء أسبوع على إقامتي في دمشق أفادني خالد بكداش أن اللجنة المركزية للحزب قررت إسناد منظمة دمشق الحزبية إليّ، وبإشراف خالد بالذات، باعتبار دمشق قاعدته الأساسية، فهي مسقط رأسه، وفيها نشأ وترعرع.

أمّا الرفاق الذين تعاونت معهم في دمشق فهم:

نجاة قصاب حسن.. كان في تلك الأيام تلميذاً نجيباً، شديد النباهة، وقد أصبح فيما بعد محامياً، ويتولى اليوم حل المشاكل القضائية والشرعية في إذاعة دمشق.

نشأت المرتيني.. أصله من بلدة الباب بالقرب من حلب، جاء إلى دمشق

بقصد طلب العلم، وكان محباً للأدب، وله خواطر أدبية نشرت في مجلة «الطليعة». كما كان يتسم بقوة الملاحظة والجرأة، بل المغامرة. وانتقل نشأت بعد الحرب العالمية الثانية إلى فرنسا، وعمل في حقل الملاهي في حي «البيغال»، وتعاقد مع جماعة من الفرنسيين المغامرين ونقلوا فريقاً من الفنانات الباريسيات إلى نيويورك. ثم عاد نشأت إلى باريس ليسيطر على عدد كبير من ملاهيها، ويصبح «المسيو مارتيني» السيد المطاع الرهيب الجانب!.. وفي سنة ١٩٦٠، وبينما كان يدفع سيارته بجسمه الضخم، وبعضلاته القوية في شارع الشانزيليزيه، تعرض لانفجار في القلب أدى إلى وفاته، ودفن في باريس.

أحمد الشهابي.. شاب أُعجب بالحركة الشيوعية بدوافع وطنية.

أحمد العشي.. ابن صاحب مقهى في ساحة المرجة، طالب علم، وكان من أصدقاء صحيفة «الشرق العربي».

فوزي الزعيم.. عامل شعبي، من قبضايات الأحياء، وكان شديد التحمس للحركة ويعتمد عليه.

الدكتور عزت الجندي.. طبيب أسنان في حي الصالحية، رجل دمث الأخلاق، طيب المعشر، رومانطيقي الاتجاه، معجب بالحركة الشيوعية بوصفها «جمعية سرية»..

وهناك عدد آخر من الأعضاء المسؤولين، منهم أدباء، وطلاب، وأساتذة، وعمال، يؤلفون اللجان المحلية لمنظمة دمشق الحزبية في ساحة الشهداء، والسنجقدار، والصالحية، والحلبوني، وباب توما، وسوق الحميدية، وحي الأكراد.

الأعمال الحزبية: انحصرت أعمالي الحزبية في دمشق في الناحيتين التثقيفية والأدبية. أمّا الأعمال التنظيمية والمسؤولة فكان يتمسك بها خالد كلياً، باعتبار أن زعامة الحزب السياسية فيها تعود إليه فقط، فهو شديد الحساسية في أمر الانفراد بالزعامة، على الطريقة الستالينية، التي تتلاءم مع عقلية حب السيطرة والزعامة في بلاد الشرق.. وقد أدخل خالد بكداش «تعديلات شرقية» في بعض المفاهيم الحزبية منها:

أولاً ـ استبدل عبارة «أمين عام الحزب» بـ «رئيس الحزب»، لأن هذه التسمية مفهومة أكثر في الأوساط الشعبية، ولها أثر أعمق في النفوس.

ثانياً ـ طلب من الأعضاء حين دخوله إلى المكتب أن يتصبوا واقفين باحترام وإجلال، باعتبار أن العربي لا يزال يخنع لعادات «بطريارخالية»، أي الخنوع للآباء والشيوخ.

ثالثاً ـ طلب من الأعضاء الأكراد أن يعتزوا بكرديتهم، وأن يتعلموا اللغة الكردية، ويتحدثوا بها في الحزب، وكان هو كلما اجتمع بهم قال لهم «شاوه!».. أي مرحى بالكردية.

كانت علاقة خالد بي تتأرجح بين الثقة والغيرة. فالثقة قائمة على رصيدي العلمي والعملي الكبيرين، والغيرة غريزة لا تتحكم فيها إلاّ الثقافة بأشمل معانيها.

فكان مثلاً إذا «نرفز» في اجتماع، وكنت أنا في غرفة ثانية، صاح بأعلى صوته غاضباً: «أين أنت يا سعدي.. يا رفيق سعدي تعال حالاً!»..

فيدرك الرفاق أنه هو الرئيس الأعلى، وما أنا إلاّ مساعد بسيط له.

حادث عند الأرمنية: تأزمت العلاقات بين السلطات في دمشق والحزب، كنتيجة لمحاولات الحزب المتواصلة «للدخول في الجماهير» على حساب الكتلة الوطنية، ولحملات النقد الموجهة إلى الحكم الوطني لعدم مسايرته الجبهة الشعبية الفرنسية في قضيتي المعاهدة والإسكندرون. فكان أن اتخذت الحكومة الوطنية في ٢٩ أيار/مايو سنة ١٩٣٧ بعض الإجراءات ضد منظمات الحزب.

في هذه الأثناء زارني خالد في غرفتي في الحلبوني، عند مدام زوهراب (وكانت هذه الغرفة تدخل في إطار السريات)، فلمحه مخبر كان يتعقبه، وبعد نصف ساعة على وجه التقريب، طرق باب الدار، فتطلع خالد من شق النافذة فشاهد تحرياً يعرفه، وإلى جانبه المخبر.. فارتبك وهرع إلى الأرمنية يرجوها أن تخفيه، فأصعدته إلى علية المطبخ وغطته بالأكياس.. أمّا أنا فقد التزمت جانب الهدوء وفتحت الباب وقلت: أمر!..

قال رجل الأمن: من يقيم هنا؟..

قلت: أنا أقيم في غرفة عند صاحبة البيت الأرمنية..

قال: وما هي مهنتك؟..

قلت: طالب علم من بيروت..

قال: من في البيت غيرك؟..

قلت: لا أحد غيري..

وتقدمت زوهراب من الباب، وتولت الإجابة على أسئلة رجل الأمن، فاعتذر لها، وابتعد وهو يوبخ المخبر.. أمّا خالد فنزل من العلية وهو يلهج بالشكر والثناء.

وكان عليّ بعد أن غادر خالد الدار أن أوضح لمدام زوهراب ما حدث وأن أزيل الشكوك من نفسها، بأن اختلقت لها قصة وهي أن زميلي اشترك في تظاهرة طلابية، والشرطة تتعقبه، وليس في الأمر من خطورة.. ودفعت لها أجرة الغرفة عن ثلاثة أشهر مقدماً.

ويعرف هذا الحادث على بساطته بـ «عِلّية مدام زوهراب»!..

يوم ميسلون: في العشرين من شهر تموز/يوليو سنة ١٩٣٧، عقدنا اجتماعاً في دار الحزب، بحثنا فيه موضوع الاشتراك في ذكرى معركة ميسلون (٢٤ تموز/يوليو ١٩٢٠)، التي حاول فيها الجيش السوري الناشئ، بقيادة يوسف العظمة، صد القوات الفرنسية الزاحفة على دمشق. وقد لاقى هذا القائد العربي مصرعه في ميسلون، ثم أقامت له الدولة السورية ضريحاً في ذلك المكان على شكل طائرة.

وقررنا الاشتراك في تلك الذكرى، واستأجرنا أربع شاحنات، ملأناها بالرفاق والأصدقاء، وتوجهنا إلى ميسلون في الرابع والعشرين من شهر تموز/يوليو ١٩٣٧. فوجدنا هناك جمعاً غفيراً من الوطنيين وأهل الفقيد، وبينهم فريق من الشباب يرتدون «القمصان الحديدية» ويعتمرون طاقية (البيريه)، وقد احتلوا الجانب الأيمن من الضريح، أمّا نحن فقد تجمعنا في الجانب الأيسر منه. وأخذ الخطباء، وكان أولهم والد الفقيد، يلقون الخطب الوطنية الحماسية، وكلما انتهى خطيب من كلامه يمد فريق اليمين الأذرع بالتحية الرومانية، فنرد عليهم برفع قبضات الأيدي في الهواء بالتحية البروليتارية.

فمثل هذا المشهد لا أستغربه في فرنسا أو إسبانيا أو ألمانيا، أمّا أن يكون بين التلال على طريق بيروت ـ دمشق، فهذا هو العجب العجاب بعينه.

وعدنا من هذه الرحلة الممتعة، ونحن نهزج بالأناشيد الحماسية، أذكر منها: «سورية يا ذات المجد».. و«موطني الجلال والجمال».. و«يا رفاق الجبال» للشاعر اللبناني قبلان مكرزل.

بالدور فون شيراخ: في يوم من أيام خريف سنة ١٩٣٧، حطت في مطار دمشق طائرة «لوفتهانزا»، وعلى متنها فريق من النازيين الألمان، وفي طليعتهم «فوهرر» الشباب النازي «بالدور فون شيراخ».. وقد هرع لاستقبالهم جماعة «النادي العربي»، وبعض المعجبين بالنازية، وغيرهم من المتفرجين والفضوليين.

وفي اليوم التالي التقيت في مطعم بكداش للعائلات في الصالحية الآنسة ماري عفلق، شقيقة ميشيل عفلق، وكانت تبدي اهتماماً في السياسات المحلية

والعامة، وقالت لي بلهفة: كنت بالأمس في عداد من استقبل زعيم الشباب الهتلري في مطار دمشق!..

قلت: وما هي مهمته؟..

قالت: إنه وزملاؤه يقومون بجولة تعارف مع الشباب العربي القومي في الشرق الأوسط.. غير أن السلطات لم تسمح لهم بمغادرة المطار، وتابعوا سفرهم إلى بغداد..

والواقع لقد أحدثت زيارة النازيين المفاجئة إلى دمشق وقتئذ ضجة كبيرة، وسببت إحراجاً للحكومة الوطنية، ولدوائر الانتداب الفرنسي.

وتنقضي ثماني سنوات على تلك الزيارة، وتمنى النازية بالهزيمة في الحرب العالمية الثانية، ويقبض على بالدور فون شيراخ، ويمثل أمام محكمة نورمبرغ (١٩٤٥ ـ ١٩٤٦)، ويحكم عليه بالسجن المؤبد، يقضي منه خمس عشرة سنة، ثم يطلق سراحه وهو في الستين من عمره.

بكداش وعفلق: جلسنا في عصر يوم من شهر أيلول/سبتمبر من سنة ١٩٣٧، في مقهى «الشرق» في ساحة المرجة، وقد جمعت طاولة الزهر عفلق وبكداش وبيطار والمحايري، وغيرهم. وأثناء تبادل الأحاديث أثار بكداش موضوع صحيفة «الشرق العربي»، التي كنت أصدرها في باريس، فتوقف عفلق عن اللعب، وقد أراد معرفة اسم محررها الحقيقي بطريقة لا تخلو من إثارة..

فالتفت خالد نحوي وقال له: «هيو»!..

فارتبك عفلق واعتذر قائلاً أنه لم يرد الإساءة وإنما النقد..

فقلت له ربما كانت «الشرق العربي» مقصرة في ناحية ما، غير أنها كانت الصحيفة الوحيدة في تلك الفترة من الزمن التي تقارع الاستعمار، وتنادي بحرية العرب في جميع أقطارهم، بجرأة وموضوعية، وكنت أنفرد في تحريرها وتصحيحها، وتوضيبها، وشحنها، في جو من الملاحقة البوليسية المتواصلة.

وبعد أن تركنا المقهى سألت خالد ما الذي قصدته من «هيو»؟

قال: أردت وضعك في الجو الدمشقي!..

ابن مراد: من أطرف ما حدث لي في دمشق أنني كنت أعرف أن لي قريباً من آل مراد يقيم في حي الصالحية، فرغبت في البحث عنه والاهتداء إلى بيته.. ورحت أجوب متفرعات الصالحية وأنا أسأل عن بيت مراد، إلى أن قال صاحب حانوت إن بيت مراد الذي تبحث عنه والوحيد في هذه المنطقة تجده في آخر ذلك

«الزاروب»، فاطرقه ولعله يكون بغيتك..

طرقت الباب.. فأطل منه شاب في الخامسة والثلاثين على وجه التقريب..

قلت: إنني أبحث عن بيت مراد اليافي الأصل.

قال: أنت في بيت مراد..

قلت: أريد بيت مراد اليافي..

قال: أعتقد أن لنا أقرباء في يافا.. هل من خدمة أقدمها لك؟..

قلت: كل ما في الأمر إنني أريد الاهتداء إلى الأهل.. هل تعرف فلان.. وهل تعرف فلان؟..

قال: فلنفترض يا سيدي أنك لم تهتد إلى من تريد.. فلنتعارف، تفضل، أهلاً وسهلاً..

ودلفت إلى بيت مراد الغريب هذا، وسألني عما أفعله في دمشق، فقلت له إنني أطلب العلم.. وعلمت منه أنه يمارس الصحافة والأدب، فتطرقنا إلى الحديث عن الصحافة الدمشقية والبيروتية، ثم عرجنا على السياسة والحزبيات، وكان كل منا يراعي جانب الحذر في إبداء آرائه ووجهات نظره.

وبعد أن استأنس بي، وأدرك أنني طالب علم قال: هلا سمحت لي بأن أزودك ببعض الكتب التي تفيدك كطالب علم، وتوسع مداركك الاجتماعية!..

وقام إلى خزانته، وأخرج منها مجموعة من الكتب والنشرات، ولفها في صحيفة وقدمها لي.. ونهضت مودعاً، فرافقني إلى باب الدار وقال: أرجو أن نراك ثانية..

قلت: ما اسمك الكريم بالضبط؟..

قال: فلان مراد.. الأمين العام لمنظمة الحزب القومي السوري في دمشق!..

فأسرعت الخطى مبتعداً عن البيت، وأنا أسخر من هذه الزيارة العجيبة، وما انطوت عليه من مفارقات، ثم تخلصت من «الهدية» بأن ألقيتها في مجرى مياه سريع يخترق جانباً من أحياء الصالحية القديمة.. ومن ثم عدلت عن البحث عن الأهل والأقارب في دمشق، كيلا أقع في ورطة أدهى وأمرّ.

السيل: في شتاء سنة ١٩٣٧ هطلت أمطار غزيرة في سورية سرعان ما تحولت إلى سيول جارفة. فاكتسح أحد هذه السيول في طريقه بعض القرى المجاورة للعاصمة، جارفاً البيوت والماشية والناس والحجارة.. وكانت الكارثة مروعة ومؤثرة. فأسرعت منظمة دمشق الحزبية إلى عقد اجتماع طارئ، اتخذت فيه قراراً بنجدة القرى المنكوبة، فجندنا فريقاً من الرفاق، واستقللنا سيارة شحن كبيرة، حاملين المعاول والمجارف وتوجهنا إلى مكان الكارثة، ورحنا نعمل في هدم البيوت المتصدعة.

وقلت لخالد ونحن نراقب سير العمل: الحق يقال إن الشيوعي هدام مجيد!..

فأعجبته هذه الملاحظة وأوقف الرفاق عن العمل، ورواها لهم، ثم علق عليها، وبيّن لهم الفارق بين الهدم من أجل الهدم، والهدم من أجل البناء والتعمير!..

لم نستطع إيقاف السيل.. كما أننا لم نستطع فعل شيء يذكر في أعمال الإنقاذ.. غير أننا أسهمنا بواجب وطني وإنساني في آن معاً، وإن كان يحمل في طياته رغبة ملحة في كسب عطف المنكوبين وغير المنكوبين..

«صوت الشعب»: صدر العدد الأول من صحيفة «صوت الشعب»، لسان حال الحزب، في دمشق بتاريخ ١٥ أيار/مايو سنة ١٩٣٧. وقد نشرت في طليعة أعدادها مقالاً عن الحرب الأهلية في إسبانيا، وزينته بصورة كبيرة أحضرتها معي من إسبانيا، تمثل جندياً مغربياً ضخماً ومديداً، يعانق جندياً إسبانياً نحيلاً، دليلاً على التآخي والتصافي بين الشعبين.

وما إن وصل هذا العدد من الصحيفة إلى رفيق رضا، مندوب الحزب في باريس، حتى عرضه على قادة الحزب الفرنسي، فأبدوا استياءهم الشديد من الصورة، وبعثوا بكتاب احتجاج إلى خالد بكداش يقولون فيه: «هذه صورة مغايرة لواقع الحرب الإسبانية، فالحقيقة تقضي بأن يكون الرجل العملاق هو الجندي الإسباني، وأن يكون الرجل النحيل هو الجندي المغربي»!..

فأي اعتراض هذا؟.. لقد جئت بتلك الصورة من مصادر الدعاية الإسبانية، ولم أكن مخرجاً مصوراً لها.. ثم إن القضية ليست في ضخامة هذا الجندي أو ذاك، وإنما في المغزى الإنساني الذي تعبّر عنه تلك الصورة بحد ذاتها.

وتوقفت عن نشر المقالات عن إسبانيا في «صوت الشعب»، كي لا أثير حساسيات الفرنسيين والإسبان، وآثرت إخراجها كلها في كتاب واحد. وحدث بعدئذ أن اعتزمت مجلة «الطليعة» نشر مخطوطة «ثورة وفتنة في لبنان» ليوسف يزبك، غير أن المرض أقعد الكاتب اللبناني عن دفع تلك المخطوطة للنشر، فطلب مني رئيس تحرير المجلة، رجا حوراني، أن أشرع في نشر فصول كتابي عن إسبانيا في المجلة عوضاً عن مخطوطة يزبك، ففعلت ونشر القسم الأول منها في عدد حزيران/يونيو سنة ١٩٣٨.

وبعد أيام من صدور هذا البحث قال لي خالد بكداش: «أليس من الأفضل أن تقدم لي ما تود نشره عن إسبانيا الحرب الأهلية وأنا أصدره باسمي في كتاب»!؟..

قلت: ولكنني أنشر البحث في «الطليعة» تباعاً..

قال: إنك تنشر مقالاتك هذه وأنت مضطر إلى إخفاء اسمك، وهذا ما يفقدها «الميزة الذاتية»، وأمّا أنا فإنني أنشر الكتاب باسمي الصريح على لسان شخص غائب، فتكون المعلومات التي أسردها ذات طابع شخصي بليغ الأثر.

وزودته بقدر يسير من المعلومات ـ وهي غير ما نشر في هذا الكتاب ـ وصدر كتاب خالد بعنوان: «عربي حارب في إسبانيا». فظن بعض القراء أن خالد هو ذلك العربي، وقد استعمل صيغة الغائب تواضعاً ثورياً منه.

واستمرت صحيفة «صوت الشعب» في الصدور، وقد استفاد منها خالد في الدعاية لشخصه، وهو عمل تحظره الأحزاب الشيوعية في العالم. غير أن ما أثار النقد الشديد ضده، هو إقدامه على إصدار عدد خاص من الصحيفة، لمناسبة وفاة والده، بداعي أنه «أحد قادة ثوار غوطة دمشق في محاربة الاستعمار الفرنسي سنة ١٩٢٥.»

وقال المعترضون وقتئذ: «جدير بخالد أن يصدر عدداً خاصاً من صحيفة الحزب عن الثورة السورية، وأن يأتي على ذكر والده بين المقاتلين فيها، أمّا أن يخص والده بعدد خاص من صحيفة الحزب، وأن يخلع على الصحيفة طابعاً عائلياً، فهو أمر يتنافى مع العقيدة الحزبية تماماً.. وإذا أراد أن يختار شخصاً معيناً من رجال الثورة السورية، فحري به أن يختار سلطان باشا الأطرش، بوصفه قائد هذه الثورة، ورمزها.»

مجلة «الطليعة»: كان الحزب قد أصدر سنة ١٩٣٥ مجلة أدبية سياسية في بيروت، أطلق عليها اسم «الطليعة»، يترأس تحريرها عمر فاخوري، ويوسف يزبك، وقدري قلعجي.

وفي سنة ١٩٣٧، وبعد الانفتاح على الحركة الوطنية السورية، نقل الحزب مقر مجلة «الطليعة» إلى دمشق، وأسند رئاسة تحريرها إلى رجا حوراني.. والواقع أن هذه المجلة، مع كونها حزبية المنتمى، فهي عربية المشاعر، ووطنية المنهج، وتقدمية الأهداف. وقد أدت خدمات جلى للفكر العربي، وللحركة الأدبية العربية في الثلاثينات.. فمواضيعها رصينة وقوية، وكتّابها نخبة من البلاد العربية قاطبة، وتعتبر مرجعاً هاماً لمتبعي النشاط الفكري والأدبي في فترة النضال ضد الاستعماري الفرنسي والإنكليزي والصهيونية، التي سبقت الحرب العالمية الثانية.

ولقد نشرتُ فيها سلسلة من الأبحاث، منها أطروحتي الجامعية «آراء مادية في الحركة الوطنية العربية، من الانقلاب الاتحادي إلى عهد الكتلة الوطنية»، في الأعداد من تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٩٣٧، حتى نيسان/أبريل سنة ١٩٣٨.

وقدم لها رجا حوراني بكلمة قال فيها: «في هذا المقال وفيما يليه من الأعداد المقبلة، يحاول الأستاذ نجاتي صدقي درس وعرض التطورات التاريخية للحركة الوطنية العربية، من وجهتها المادية.. ولعله في دراسته هذه يلقي نوراً جديداً على الحركة التي ـ على ما نعرف ـ لم يتعرض كاتب لدرسها من هذه الناحية بعد.

«ومما لا شك فيه أن درس التاريخ مادياً هو أبلغ وأصدق درس لتاريخ أي بلاد أو حركة ذات شأن. و'الطليعة' تشكر للأستاذ صدقي جهوده، ونرجو أن يجد القراء الفائدة المتوخاة من هذه الدروس.».

أما المواضيع الأُخرى التي نشرتها في «الطليعة» فهي:

١) «الإيقاع الموسيقي التاسع لبتهوفن مع ترجمة نشيد شللر».

٢) «ابن خلدون ضد المثالية».

٣) «عبد الرحمن بن خلدون والتفسير المادي للتاريخ».

٤) «شارل روبرت داروين ـ حياته، نظرياته، وآراء خصومه».

٥) «رينه ديكارت والمادية الميكانيكية».

٦) «خمسة أشهر في إسبانيا الجمهورية» ـ فصل واحد فقط.

٧) «اضطهاد العلم والعلماء إبان انحلال الدولة العربية العباسية».

وكان لهذا الموضوع الأخير تتمة، إلاّ إن خالد بكداش طلب من رجا حوراني عدم نشرها، لأن الموضوع يثير «حساسيات تاريخية»، مع أن البحث علمي وتاريخي بحت، وقد اضطررت إلى نشر تتمة هذا البحث في صحيفة «المكشوف» الأسبوعية الصادرة في بيروت، سنة ١٩٣٨.

والواقع أن إيعاز خالد بالكف عن نشر هذا البحث في «الطليعة» كان بداية لنهاية حياة المجلة، إذ تراءى لخالد أن هذه المجلة قد أفلتت من يده، ولا سلطان له عليها، وباتت مجلة «عربية تحررية»، في حين أنه يريدها أن تكون «حزبية متزمتة»، تدور في فلك الجبهة الشعبية الفرنسية، وتنغمس في المناظرات الستالينية ضد الانحرافات اليمينية واليسارية.. ثم قضى بتوقيفها عن الصدور، إلى أن استبدلها فيما بعد بمجلة «الطريق»، وقد أسند رئاسة تحريرها إلى المهندس أنطوان تابت*.

وكانت النتيجة اختفاء أسماء كتّاب عرب تحرريين غير حزبيين، وبروز أسماء

* «أنطوان تابت» من أسرة مارونية عريقة في بيروت، انضم إلى الحزب الشيوعي اللبناني في الأربعينات، ثم مرض في الستينات وأرسل إلى موسكو للمعالجة وهناك وافته المنية. فعمد اتحاد المهندسين السوفياتي إلى وضع جثمانه في اتحاد النقابات، كما هي العادة مع الشخصيات السوفياتية المتوفاة، وجاء من يعرفه ومن لا يعرفه ليلقي عليه النظرة الأخيرة، ثم نقل جثمانه إلى بيروت بالطائرة.

كتّاب يعالجون مواضيع عسيرة الهضم بالنسبة للقارئ العربي.

العمل في بيروت: قررت اللجنة المركزية الدائمة للحزب، المؤلفة من خالد بكداش وفرج الله الحلو ونقولا الشاوي، نقل ثقل النشاط الحزبي إلى بيروت، لكونها أكثر ملاءمة للعمل السياسي، بعد اندلاع الاضطرابات في سورية، الناجمة عن الموقف الفرنسي المتعنت والمتردد بصدد التصديق على المعاهدة، واتخذت مقراً لها ولإدارة صحيفة «صوت الشعب» في بناية تقع أمام «التياترو الكبير»، في مطلع شارع المعرض، وهي اليوم «الفندق الكبير».

وفيما يتعلق بي فقد استأجرت غرفة عند رفيق أرمني حلاق، في أحد منعطفات شارع المعرض، وبت أواظب على الحضور إلى مكتب الحزب في الصباح، وبعد الظهر، وأسهم في تحرير زاوية يومية انتقادية في «صوت الشعب»، وأشترك في بعض أعمال اللجنة المركزية للحزب.. وفي هذه الفترة تعرفت إلى رئيف خوري، بعد عودته من فلسطين حيث كان يدرّس الأدب العربي في مدرسة صهيون في القدس، وإلى عمر فاخوري مدير الدوائر العقارية في بيروت، وقدري قلعجي، ويوسف يزبك، وغيرهم من الكتّاب «أنصار الحزب». وغالباً ما كنا نجتمع أيضاً في مكاتب صحيفة «المكشوف» الأسبوعية لصاحبها الشيخ فؤاد حبيش، والتي تقع في الطابق الأول من البناية ذاتها التي تقوم فيها مكاتب الحزب، وإدارة صحيفة «صوت الشعب».

وفي أول أيار/مايو سنة ١٩٣٨، عقدت اللجنة المركزية اجتماعاً في بيروت قررت فيه توجيه برقية شكر وامتنان إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي تتضمن تحية حارة لمناسبة عيد العمال، وشكراً وامتناناً لما يبذله الحزب من مجهود محمود من أجل التصديق على المعاهدتين السورية واللبنانية، وعبارات أخرى عن التلاحم الأخوي بين الحزبين.. وقد حملت البرقية تواقيع خالد بكداش، وفرج الله الحلو، ونقولا الشاوي، وسعدي، أي توقيعي أيضاً.

وما إن تلقى الرفاق في باريس هذه البرقية ووقع نظرهم على اسمي حتى قامت قيامتهم، فأسرعوا وأرسلوا كتاباً إلى الرفاق في بيروت، يعلنون فيه سخطهم على تعاون الحزب معي، ويطلبون منهم أن يعملوا على «تجميدي»، أي لا طرد ولا تعاون.

والذي حدث أن انصاع بكداش وزملاؤه لهذه الوصاية الشيوعية الفرنسية، وراحوا يناصبونني العداء. وكان عليّ أن أتحمل عبء المتاعب المالية، بعد انقطاعي عن العمل في «صوت الشعب»، وأن أسعى إلى تدبير معاشي، وكسب

قوتي عن طريق العمل الحر في الصحافة اللبنانية، دون أن أصطدم بـ «الرفاق».

والتقيت ذات يوم بالكاتب والروائي توفيق يوسف عواد، وكان يومئذ يترأس تحرير صحيفة «النهار». التقيت به في ساحة السمك (وهي اليوم ساحة رياض الصلح)، فراح يثني على بحثي الطويل في الحركة الوطنية العربية، وقال لي: «لقد وضحت في بحثك هذا الأسباب الحقيقية للقضية العربية، وكشفت الغطاء عن العوامل المادية لهذه القضية، وفسرت جوانب كانت غامضة ومبهمة.. ثم قال: وما الذي تفعله اليوم؟..

قلت: أبحث عن عمل في حقل الصحافة..

قال: إنك محلل مادي، فلماذا لا تستلم الصفحة الاقتصادية في جريدة «النهار»؟..

وهكذا كان.. انضممت إلى أُسرة «النهار» لصاحبها جبران تويني، وقت أن كانت مكاتبها فوق «مطعم العجمي»، عند مدخل سوق فخري بك. وكانت هذه الأُسرة مؤلفة من الزملاء توفيق يوسف عواد رئيس التحرير، ولويس الحاج سكرتير التحرير، وكامل مروّة محرر السياسة الخارجية، وحنا غصن محرر السياسة الداخلية، وأنا محرر الصفحة الاقتصادية الأسبوعية، ثم أضفت إلى عملي هذا الإشراف على تحرير مجلة «الجمهور»، وقت أن كانت في بناية فندق «سافوي» في ساحة البرج، لصاحبها ميشال أبي شهلا.

وبعد اندلاع الحرب العالمية الثانية انضممت إلى أُسرة مجلة «المراحل المصورة»، التابعة لجريدة «الأوريان» الفرنسية لصاحبها غبرييل خباز. وكانت هذه المجلة الأولى من نوعها في التحرير والإخراج، وقد تألفت أُسرتها من الزملاء الذين ظهرت صورهم في صدر العدد الأول الصادر بتاريخ ٢٢ كانون الثاني/يناير سنة ١٩٤٠، وهم: يوسف يزبك؛ الدكتور نقولا فياض؛ عبد الله صالح؛ عمر فاخوري؛ ميشال طراد؛ قدري قلعجي؛ فؤاد حداد؛ نجاتي صدقي؛ فاضل سعيد عقل؛ محمد النقاش؛ روبير أبيلا.

وكان عليّ في هذه المرحلة أن أحدد موقفي السياسي من الأحداث الجارية، دون التقيد برأي أحد غيري. وتبين لي أن اتفاقية عدم الاعتداء المعقودة بين هتلر وستالين في ٢١ آب/أغسطس ١٩٣٩ هي اتفاقية زائفة، والقصد منها كسب الوقت، فهاجمتها بينما الرفاق رحبوا بها واعتبروها خطوة حاسمة في التقارب بين الشيوعية الدولية والاشتراكية الوطنية الألمانية.

ثم رحت أنشر في مجلة «المراحل المصورة» مقالات في موضوع الإسلام والنازية، بقصد تأليب العالم الإسلامي على النازية والفاشستية، وجمعتها فيما بعد

في كتاب بعنوان: «النازية والتقاليد الإسلامية»، دار الكشاف، بيروت سنة ١٩٤٠.

وما إن انتهيت من نشر هذه المقالات حتى اتصل بي عزمي النشاشيبي، الملحق الصحافي في السفارة البريطانية في بيروت، وقال لي: إن بحثك هذا يخدم قضية الحلفاء، ويسهم في دفع الأخطار النازية عن البلاد العربية، إضافة إلى دفاعه عن الحريات الديمقراطية، فما رأيك في ترجمته إلى الإنكليزية، وإصداره في كتاب؟..

قلت: ليس لديّ أي مانع في ذلك، ولكن من سيتولى ترجمته؟..

قال: أعتقد أن أفضل من يترجمه إلى الإنكليزية هو أمين الريحاني..

قلت: لا ريب بأن قبول أمين الريحاني ترجمة الكتاب يضفي عليه أهمية خاصة، غير أن تكليف الكاتب اللبناني الكبير ترجمة الكتاب يتطلب نفقات غير قليلة..

قال: نحن نتولى الإنفاق على الترجمة وطبعها، مع الاحتفاظ بحقوقك كاملة.

قلت: إذاً.. سأكاشف أمين الريحاني في الموضوع..

واغتنمت فرصة زيارة الريحاني لميشال أبي شهلا، في مكتب مجلة «الجمهور»، وكانا قد عادا مع الوفد الصحافي اللبناني من زيارة المغرب الإسباني، بدعوة من الجنرال فرنكو، وأطلعته على النسخة العربية من كتابي، وعرضت عليه ترجمته نيابة عن عزمي النشاشيبي. فقال، بعد أن تفحص الكتاب جيداً، إنه لكتاب حري بالترجمة، غير أنني لا أستطيع القيام بهذا العمل لأنني متعب من السفر، ثم إنني في وضع صحي يتطلب مني الركون إلى الراحة.

وبعد قليل من الصمت ابتسم وقال: ما الذي تنتظره من وضعك هذا الكتاب بالعربية وترجمته إلى الإنكليزية؟..

قلت مداعباً: الحصول على وسام!..

قال ضاحكاً: إي إنت بحاجة إلى أوسمة!.. ثم لا تنس أن نداء «هايل هتلر» عند الألمان يوازي نداء «الله أكبر» عند المسلمين!..

وعلمت فيما بعد أن الكتاب ترجم إلى الإنكليزية وطبع في لندن، وقد تولى ترجمته السير حسن سهروردي، مندوب الهند لدى البلاط الملكي البريطاني، وإنني أحتفظ بنسخة واحدة عن الطبعة الإنكليزية. أمّا الطبعة العربية، فهي محفوظة في مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت في خانة «صدقي، نجاتي».

وأذكر بهذه المناسبة أنني تلقيت إثر صدور كتابي هذا، بطاقة من المفوض السامي الفرنسي المسيو غبريل بيو، يقول فيها: «إلى السيد نجاتي صدقي.. مع الشكر والتهنئة على كتابه الذي يمني النفس بالسعادة والأمل»، بيروت في ١٥

حزيران/ يونيو ١٩٤٠.

كما تلقيت بطاقة من السفير البريطاني في بيروت يقول فيها: «مستر ج. هافارد يشكر السيد نجاتي صدقي على النسخة الهدية من كتابه الذي يحمل الالتزام الكبير في عرض إهدائه!..»، بيروت في ٥ أيار/ مايو سنة ١٩٤٠.

ونشرت صحيفة «الأوريان»، بتاريخ ٧/٧/١٩٤٠، مقالاً تحدثت فيه عن الكتاب، وقيمته بالنسبة لموضوعه، وطريقة معالجته العلمية والموضوعية.

فموقفي من النازية هذا قد أثار الرفاق في لبنان، واعتبروا اعتمادي على النصوص الإسلامية في مجابهة النازية، خروجاً على سياسة الحزب وقرروا «طردي» من صفوفه، ونشروا هذا القرار في صحيفة حزبية سرية مطبوعة على الجلاتين.

فالسياسة التي اتبعها الحزب من الحرب العالمية الثانية كانت بداية مأساة له ولأعضائه وقادته، إذ اعتبرتهم سلطات الانتداب أعداء للحلفاء وللديمقراطية العالمية، فعطلت صحيفته «صوت الشعب»، وطاردتها وحملتهم على الاختفاء، وزجت بمن قبضت عليهم منهم في السجون، وفي معتقل «المية ومية» في صيدا. ولم يدركوا الخطأ الكبير الذي وقعوا فيه إلاّ في وقت متأخر، أي بعد أن اكتسحت القوات النازية الحدود السوفياتية سنة ١٩٤١، وأعلنوا أنهم على استعداد للانخراط في الجيش الفرنسي دفاعاً عن الحرية والديمقراطية.

لقد كتمت هذه المرحلة من حياتي السياسية مدة سبع وثلاثين سنة على وجه التقريب، وأسقطتها من البحث الذي كتبه عني المرحوم (البدوي الملثم) يعقوب العودات، والمنشور في مجلة «الأديب» بتاريخ أول (مايو) أيار سنة ١٩٦٨.

أمّا المرحلة الثانية من حياتي الفكرية، فتصل بالأدب، والتأليف، والترجمة، والعمل الإذاعي، وكتابة البرامج والتمثيليات الإذاعية، والقصة القصيرة.. وقد نشرت قسماً منها في ثلاثة عشر كتاباً محفوظة في مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت.

بيروت في

أول كانون الثاني/ يناير سنة ١٩٧٦

الحواشي

(١) «البلشفية»:

عن الكلمة الروسية «بولْشِنْسْفو»، ومعناها الغالبية أو الأكثرية. في انتخاب الهيئات المركزية في المؤتمر الثاني للحزب الاشتراكي الروسي، سنة ١٩٠٣، فاز الجناح الذي قاده لينين بالأكثرية، فتبنّى هذه التسمية، وأُلحقت باسم الحزب الشيوعي الروسي ثم السوفياتي. وأصبحت البلشفية تعني الشيوعية بالرؤية التي تبناها الحزب الشيوعي السوفياتي.

أمّا كلمة «منشسفو» فتعني الأقلية، وهكذا سمّي ذلك الجناح، الذي قاده مارتوف، «المنشفيك». واتهمه البلاشفة بالانتهازية. وقد شارك «المنشفيك» في الحكومة الموقتة التي أقامها كيرنسكي بعد ثورة آذار/مارس (شباط بالتقويم الغريغوري) سنة ١٩١٧. إلاّ إن تلك الحكومة لم تعمر أكثر من بضعة شهور، إذ انطلقت ثورة تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩١٧ بقيادة لينين ـ وقد قاومها المنشفيك ـ وكانت تلك الثورة منطلق إنشاء الاتحاد السوفياتي.

(٢) الفوضوية (الأنارخية):

حركة فكرية لا تعترف بالسلطة والمجتمع والدولة، باعتبار أن هذه كلها تقوم على القوة وعلى فرض القانون.

منطلق رؤيتها أن الإنسان صالح في جوهره، وأن التواصل الإرادي والمساعدة المتبادلة هما من الصفات الإنسانية الطبيعية. أمّا الأعمال الشريرة التي يرتكبها أفراد أو جماعات فمصدرها الاغتصاب الذي ترتكبه القوانين السائدة والعسف السياسي. بوسع الناس الأحرار أن يحققوا حاجاتهم الشخصية والمشتركة باتفاق حر وليس بالغصب والاضطهاد والخوف. وترى الحركة وجوب إلغاء الدولة وإقامة المجتمع من خلايا حرة، كل خلية تبنى على أساس إدارة ذاتية. فالحكم بطبيعته يقوم على اللاأخلاقية.

في العصور الوسطى، ظهرت الأنارخية في أوروبا في طوائف مسيحية عارضت سلطة الدولة، كما عارضت سيادة البابا. واكتسبت فكرة الأنارخية دفعة على يد بيير جوزف برودون الذي نشر سنة ١٨٤٠ كرّاساً يرد فيه على السؤال: ما هو المُلْك الخاص؟ فكان جوابه: المُلْك الخاص هو سرقة.

ثم ظهر في الأنارخية تياران داعياهما نبيلان روسيان هما ميخائيل باكونين (١٨١٤ ـ ١٨٧٦) والأمير بيتر كروبوتكين (١٨٤٢ ـ ١٩٢١). ثم ظهر تيار ثالث دعا إليه الألماني ماكس شتيرنر الذي عرض رؤيته في كتابه «الفرد ومُلكه» سنة ١٨٤٥.

شاركت جماعات أنارخية في تأسيس «الدولية (الأممية) الأولى» سنة ١٨٤٦. وقد اشترك باكونين مع ماركس في إطار «الأممية» ضد الجماعة البرودونية.

سنة ١٨٨٣ أنشأ الأنارخيون إطاراً دولياً خاصاً شاركت فيه منظمات من إيطاليا وإسبانيا وبلجيكا وسويسرا.

(٣) ماركس، كارل (١٨١٨ ـ ١٨٨٣):

ولد في مدينة ترير بألمانيا. درس في جامعة بون ثم التحق بجامعة برلين حيث درس التاريخ والقانون والفلسفة، وأعجب بمنهج هيغل الجدلي قارناً إياه برؤية مادية. واشتهر في ذلك العهد كمفكر ثوري جريء في معالجاته. حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة يينا. وعمل بعد ذلك في الصحافة الثورية إلى أن أغلقت السلطة الصحيفة التي تولى تحريرها.

سنة ١٨٤٣، تزوج وانتقل مع زوجته إلى باريس ليحرر في مجلة «فرانكو ـ جرمان أنالز»، لكنه لم يصدر سوى عدد واحد من تلك المجلة. فقد دانت الحكومة البروسية ماركس وزملاءه بتهمة الخيانة العظمى. فانفض من حوله زملاؤه وانعدم دعمهم. ومضى يدرس الاقتصاد السياسي، واتسعت صلاته بالمفكرين الثوريين.

سنة ١٨٤٥، التقى فردريك إنغلز، وقد نشأت بين الاثنين صداقة متينة قائمة على المشاركة الفكرية دامت إلى نهاية العمر.

أقام في بروكسل حيث تابع أبحاثه واشترك مع إنغلز في تأليف كتاب «الأيديولوجيا الألمانية».

انضم إلى الجمعية السرية الألمانية ـ «عصبة العادلين»، التي أصبحت فيما بعد «العصبة الشيوعية».

زار لندن سنة ١٨٤٧ مشاركاً في مؤتمر الديمقراطيين الأخويين البريطانيين، كما شارك إنغلز في ذلك المؤتمر. وهناك أعدّا «البيان الشيوعي» الذي نشر هناك سنة ١٨٤٨، وهي سنة الثورات أشعلتها في أوروبا شرارة الحرب الأهلية في سويسرا سنة ١٨٤٧.

انتخب رئيساً للجنة المركزية للعصبة الشيوعية الإنكليزية ـ الفرنسية ـ الألمانية.

عاد إلى كولون في ألمانيا حيث ساهم في إنشاء اتحاد ديمقراطي وصحيفة، لكن الحكومة المحلية عادت فانقلبت على القوى المناضلة في سبيل دستور. فدعا ماركس في صحيفته إلى الامتناع عن دفع الضرائب ومقاومة الجيش بالسلاح، لكن الظروف لم تكن مهيأة لذلك.

طرد من البلاد فسافر إلى باريس، لكن سرعان ما صدر أمر بأن يغادر فرنسا.

سافر مع عائلته إلى إنكلترا حيث أقام بقية عمره في ضائقة اقتصادية خانقة، لكنه استمر في صلاته مع الحركات العمالية والثورية، وفي أبحاثه فأتم الجزء الأول من أهم كتبه «رأس المال». وأسهم في إنشاء الاتحاد الدولي للعمال الذي عرف باسم الأممية الاشتراكية (الأولى).

شن ماركس هجمات شديدة على الأفكار التي اعتبرها معوّقة، أو حارفة عن المسيرة الاشتراكية كما رآها.

وصاغ مع إنغلز رؤية ـ مستمدة من دراسة معمقة للاقتصاد ونهج المادية الديالكتيكية ـ أصبحت تعرف باسم «الماركسية»، اختلف المجتهدون في تأويلها وتطويرها، لكنها تقوم على رؤية تطور المجتمع نتيجة للصراع الطبقي وتطور وسائل الإنتاج والسعي إلى بناء المجتمع اللاطبقي.

أشهر كتب ماركس: «رأس المال» (١٨٦٧ ـ ١٨٩٤)؛ «الصراع الطبقي في فرنسا» (١٨٥٠)؛ «الحرب الأهلية في فرنسا» (١٨٧١)؛ «مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي» (١٨٥٩)؛ «العمل المأجور ورأس المال»؛ «بؤس الفلسفة» (١٨٤٤)؛ «بيان الحزب الشيوعي» (١٨٤٨).. إلخ.

(٤) لينين، فلاديمير إيلتش (١٨٧٠ ـ ١٩٢٤):

قائد الثورة السوفياتية سنة ١٩١٧. اعتمد الماركسية في تنظيره للثورة، ونظّر لبناء الحزب الشيوعي الروسي ثم السوفياتي. له دراسات عديدة اعتنقتها الحركة الشيوعية.

درس القانون في جامعة كازان. أُعدم أخوه بتهمة الاشتراك في مؤامرة لاغتيال القيصر. وفصل من الجامعة لنشاطه الثوري. وتابع دراسته في جامعة بطرسبورغ.

سنة ١٨٩٥ وحّد عدة مجموعات ماركسية في إطار «عصبة النضال لتحرير الطبقة العاملة».. وهذه كانت البداية لنشوء الحزب الشيوعي الروسي.

نفي إلى سيبيريا سنة ١٨٩٧. وأفرج عنه سنة ١٩٠٠، فذهب إلى سويسرا حيث التقى بلخانوف وغيره من الثوريين المنفيين، ثم إلى إنكلترا.

كان أحد مؤسسي جريدة «إسكرا» (الشرارة).

سنة ١٩١٢ أنشأ حزباً منفصلاً للبلشفيك (دون المنشفيك) خطط للثورة وقادها.

أسس الأممية الشيوعية الثالثة ـ الكومنترن سنة ١٩١٩.

(٥) تروتسكي، ليون (١٨٧٩ ـ ١٩٤٠):

من قادة الحزب الشيوعي البلشفي. برز في ثورة ١٩٠٥ ضد القيصرية. كان اليد اليمنى للينين في ثورة تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩١٧. وفي الحرب الأهلية (١٩١٨ ـ ١٩٢٠) كان قوميسار الحربية ومنظم الجيش الأحمر.

وصفه لينين في وصيته بأنه «أقدر رجل في الحزب»، ولكنه لاحظ أيضاً ثقته البالغة بنفسه.

كان بعيداً عن موسكو يقضي نقاهة في القوقاس حينما مات لينين.

اشتد الخلاف بينه وبين ستالين حول القرى التعاونية، والموقف من «الكولاك»، والثورة العالمية، والصين والتصنيع.. وكان لذلك الخلاف أثره على الأحداث في الاتحاد السوفياتي آنذاك.

في مطلع سنة ١٩٢٨ اعتقل ونفي إلى ألما آتا في تركستان، ثم أبعد إلى تركيا. ورحل بعدها إلى فرنسا ثم إلى النرويج حيث رضخت الحكومة للضغط السوفياتي فاضطرته إلى مغادرة البلاد. فرحل إلى المكسيك واغتيل هناك سنة ١٩٤٠، وقد اتهم جهاز ستالين بمقتله.

له كتاب في جزأين عنوانه «١٩١٧»، كما نشر كتباً وآثاراً أُخرى تعرض رؤيته الثورية. وقد نشأ تيار اشتراكي يعرف بالتروتسكية، وهناك منظمة عالمية اشتراكية لهذا التيار هي «الأممية الرابعة» التي أنشئت في باريس سنة ١٩٣٨.

(٦) **هيرتسل، تيودور (١٨٦٠ ـ ١٩٠٤):**

أبو الصهيونية السياسية، ومؤسس المنظمة الصهيونية العالمية. ولد في بِسْت بهنغاريا. درس الحقوق في فيينا. كتب عدداً من المسرحيات وعمل في الصحافة.

سنة ١٨٩٦ أصدر بالألمانية كتابه «دولة اليهود ـ محاولة لحل حديث للقضية اليهودية». وفي تلك السنة صدرت ترجمات لهذا الكتاب بالعبرية والإنكليزية والفرنسية والروسية والرومانية.

وفي تلك السنة أيضاً قام بسلسلة مقابلات لزعماء العديد من الدول، ومنها ألمانيا وتركيا، لإقناعهم بتأييد مشروعه. كما دعا إلى عقد مؤتمر صهيوني عالمي، وتحقق ذلك سنة ١٨٩٧. وتبنى ذلك المؤتمر البرنامج الصهيوني المعروف ببرنامج بازل. وتابع هيرتسل نشاطه بمقابلة زعماء الدول الأوروبية. وبتأييد من اللجنة الصهيونية التنفيذية قدم هيرتسل «اقتراح أوغندا» للمؤتمر الصهيوني السادس (١٩٠٣). لكن البرنامج لقي معارضة، خاصة من المندوبين عن يهود روسيا. وفي نهاية المؤتمر عاد وأكّد على الاستيطان في فلسطين. وتابع نشاطه لدى زعماء أوروبا.

توفي في النمسا سنة ١٩٠٤.

(٧) **بوعالي تسيون (عمال صهيون):**

حركة عمالية يهودية مزجت الصهيونية بالاشتراكية، كما سعت إلى ربط الصهيونية بالبروليتاريا اليهودية في العالم وفلسطين.

بدأت في روسيا في أواخر القرن التاسع عشر، وانتشرت في النمسا وإنكلترا والأرجنتين والولايات المتحدة، ثم في فلسطين سنة ١٩٠٥.

سنة ١٩١٩، نشأ في الحركة شق شيوعي طالب بتأييد الحركة للبلشفية، وتأجيل النشاط في فلسطين إلى ما بعد تحقيق ثورة اشتراكية.

سنة ١٩٢٠، انقسمت الحركة إلى «يسار» و«يمين» على خلفية الموقف من «الأممية الاشتراكية»، ومن «الاتحاد الصهيوني». أمّا شق اليمين فاتحد سنة ١٩٢٥ مع «الصهيونيين الاشتراكيين».

وكان بين زعماء اليمين بن ـ غوريون، ويتسحاق بن ـ تسفي، وي. طبنكين.

(٨) **الكيبوتس:**

اسم أطلق على شكل من المستوطنات اليهودية التعاونية. وكانت تلك المستوطنات في الغالب زراعية إلاّ إن كثيراً منها أصبح يجمع بين الزراعة والصناعة.

الأراضي تملكها مؤسسات صهيونية عامة، ويعمل أعضاء الكيبوتس بحيث يؤمَّن للفرد المسكن والطعام (في مطعم عام) والتعليم.. إلخ.

أول كيبوتس ـ دغانيا ـ أقيم سنة ١٩١٠. وهناك صيغ مختلفة لتعامل أعضاء الكيبوتس، حسب الانتماء العقائدي؛ فهناك إطار الكيبوتس القطري وإطارات لكيبوتسات أحزاب دينية.

(٩) ثورة ١٩٢٠:

رأى الشعب العربي الفلسطيني خطراً يتهدده نتيجة الهجرة الصهيونية ووعد بلفور بإقامة وطن قومي يهودي، كما أن الظروف الاقتصادية والإدارية تحت الانتداب البريطاني كانت خانقة. فقامت مظاهرات عديدة تحتج على الهجرة والاستيطان، ونشبت ثورة ١٩٢٠ التي بدأت شرارتها في احتفالات النبي موسى والأعمال الاستفزازية التي قام بها بعض الصهيونيين. وقد ساندت قوات الانتداب الفئات الصهيونية، وسقط العديد من القتلى والجرحى من العرب واليهود.

وفي أول أيار/مايو ١٩٢١، جرت احتفالات بعيد العمال في تل أبيب، وقام المتظاهرون من حزب أحدوت «عفودا» بالهجوم على مظاهرة في يافا. وهناك حسب العرب أن الهجوم يُشن عليهم، فجرى صدام عنيف، قتل فيه ٤٨ عربياً و٤٧ يهودياً وجرح ٧٣ عربياً وضعفهم من اليهود. وعلى أثر ذلك قامت السلطات البريطانية بنفي ١٥ شيوعياً من البلاد.

(١٠) الأمميات الاشتراكية:

الأممية الأولى: تأسست سنة ١٨٦٤ في لندن، وكان اسمها «الرابطة الدولية للعمال». تكونت اللجنة، التي انبثقت عن الاجتماع التأسيسي، من ٢١ إنكليزياً و١٠ ألمان و٩ فرنسيين و١٠ إيطاليين، وبولونيين وسويسريين. وقد أعد ماركس النص الأساسي، وكان الروح الموجهة.

سنة ١٨٧٢ انتقلت «الرابطة» إلى نيويورك.

عرفت الرابطة تيارات مختلفة أبرزها الخلاف بين الماركسيين والفوضويين.

الأممية الثانية: نشأت في باريس بين سنتي ١٨٨٩ و١٨٩١. واتسع نشاطها في أوروبا، وهيمن عليها كارل كاوتسكي، زعيم الحزب الاشتراكي الألماني.

عشية الحرب العالمية الأولى اشتد الخلاف، وتبلور تيار يميني تزعمه جل المندوبين الألمان، وتيار يساري تزعمه لينين وروزا لوكسمبرغ. وخرج التيار اليساري ليؤلف الأممية الثالثة بعد انتصار الثورة في روسيا.

الأممية الثالثة: الشيوعية (الكومنترن). رأى لينين أن «الأممية الثانية» أفلست، وانكشفت مواقفها في الحرب العالمية الأولى. فقد كان موقف لينين أن على الاشتراكيين في كل بلد أن ينقلبوا على حكومات بلادهم في ثورات طبقية لا أن يؤيدوها في تلك الحرب الإمبريالية.

أُنشئت الأممية الثالثة في موسكو سنة ١٩١٩. وفي مؤتمرها الثاني سنة ١٩٢٠ وضعت شروط الانتساب إليها. وترأسها زينوفييف، ثم بوخارين، وبعده ديميتروف.

صدرت عن هذه المنظمة مجلة «الأممية الشيوعية» وجريدة «الصحافة الدولية». ووطدت الصلة بالأحزاب الشيوعية في الأقطار المختلفة.

في أيار/مايو ١٩٤٣، قررت رئاسة الاتحاد السوفياتي، دون مراجعة اللجنة المركزية «للأممية»، إلغاء المنظمة.

بعد الحرب العالمية الثانية أنشئ «الكومنفورم»، وهو مكتب تنسيق بين الأحزاب الشيوعية، وكان يصدر صحيفة «من أجل سلام دائم، من أجل ديمقراطية الشعب».

وفي سنة ١٩٥٣، تقرر حل «الكومنفورم» وإقامة «لجنة ثقافية» ـ في براغ ـ أصدرت مجلة «قضايا السلم والاشتراكية» بتسع لغات، منها العربية.

الأممية الرابعة: وهي المنظمة العالمية للحركة التروتسكية. أنشئت سنة ١٩٣٨.

(١١) جابوتنسكي، زئيف (١٨٨٠ ـ ١٩٤٠):

كاتب وقائد صهيوني.

ولد في أوديسا. درس الحقوق في سويسرا وإيطاليا.

كان مندوب أوديسا في المؤتمر الصهيوني السادس في بازل سنة ١٩٠٣. عمل على إقامة كتيبة يهودية تحارب مع الحلفاء ضد تركيا سنة ١٩١٧، وتجنّد فيها.

سنة ١٩٢٠، حكمت عليه محكمة عسكرية بريطانية بالسجن ١٥ سنة، لكن الحملات اليهودية في العالم أدت إلى إطلاق سراحه بعد شهور.

سنة ١٩٢٥، أقام الجناح الرفزيونستي (الإصلاحي) في الحركة الصهيونية. وقد توترت العلاقة بين هذا الحزب والأحزاب الصهيونية الاشتراكية.

رسم الخطة الرئيسية للمنظمة الإرهابية «الإتسل».

سنة ١٩٣٩، اقترح على «الإتسل» القيام بتمرد واحتلال موقت للأبنية المركزية لحكومة الانتداب، ورفع العلم العبري عليها والإعلان عن إقامة حكومة موقتة للدولة العبرية ـ كحكومة في المنفى.

في شباط/فبراير ١٩٤٠ سافر إلى الولايات المتحدة، وتوفي هناك.

(١٢) تل حاي:

مستوطنة زراعية يهودية في الجليل الأعلى. سنة ١٩٢٠، نشبت معركة فيها على ملكية الأرض قتل فيها ترومبلدور وآخرون، وهجر اليهود المستوطنة، لكنهم عادوا إليها في آخر السنة، بعد أن خرج الجليل الشرقي من النفوذ الفرنسي ودخل في نطاق النفوذ البريطاني.

(١٣) لورنس، توماس إدوارد (١٨٨٨ ـ ١٩٣٥):

بريطاني. درس التاريخ والآثار في جامعة أكسفورد. سنة ١٩١١ اشترك في بعثة آثار في العراق، وبقي في البلدان العربية يتعلم اللهجات العامية.

عمل مع المخابرات البريطانية أثناء الحرب العالمية الأولى. وفي سنة ١٩١٦ انضم إلى القوات العربية المحاربة ضد الدولة العثمانية بقيادة فيصل (ابن الشريف حسين). قطع الخط الحديدي الفاصل بين دمشق والمدينة، وقاد الجيش العربي في احتلال مدينة العقبة، ودخل دمشق مع الجيش العربي سنة ١٩١٨.

نشر مذكراته «ثورة في الصحراء» (١٩٢٧)، و«أعمدة الحكمة السبعة»، ثم «دار سك النقود».

(١٤) الحسين بن علي (١٨٥٤ ـ ١٩٣١):

ملك الحجاز ومؤسس الأُسرة الهاشمية التي تملك في الأردن، وملكت في العراق حتى سنة ١٩٥٨.

ولد في إستنبول حيث كان أبوه منفياً، وانتقل إلى مكة طفلاً.

أعلن الثورة على العثمانيين سنة ١٩١٦ (الثورة العربية الكبرى)، ووجّه ابنه فيصل إلى الشام وانضم إليه الضباط الأحرار والقوميون.

نكث البريطانيون عهدهم له بمساندة استقلال العرب وإقامة دولة عربية واحدة تضم الحجاز والمشرق العربي.

تخلّى عن العرش لابنه علي سنة ١٩٢٤.

نفاه الإنكليز إلى قبرص حيث أقام ست سنوات أذنوا له بعدها بالعودة إلى عمان، وتوفي بعد ٦ شهور من عودته، ودفن في القدس.

(١٥) كروبوتكين، بيتر ألكسيفيتش (١٨٤٢ ـ ١٩٢١):

منظّر الفوضوية. كاتب وعالم جغرافي روسي.

انتسب إلى الأممية الأولى، لكنه انحاز إلى الفوضويين بزعامة باكونين.

اعتقل سنة ١٨٧٤ وتمكن من الفرار. التجأ إلى سويسرا، وشارك في تحرير صحيفة «المتمرد» التي أصبحت من أبرز صحف الفوضوية الأوروبية.

من مؤلفاته: «مذكرات ثوري» (١٩٠٦)؛ «التعاضد ـ عامل في التطور» (١٩٠٦)؛ «الأخلاق» (١٩٢١)؛ «العلم الحديث والفوضى»؛ «الفوضوية: فلسفتها ومثلها الأعلى».

(١٦) عيد النبي روبين:

مقام النبي روبين على الشاطئ الجنوبي لنهر روبين، على بعد ٣ كلم من الساحل وعلى بعد ٢٠ كلم جنوبي يافا، وموسم الاحتفال به في شهر أيلول/ سبتمبر. كانت تؤمّه جماهير كبيرة من لواءي يافا وغزة، وتجرى فيه احتفالات دينية تشارك فيها الفرق الصوفية، واحتفالات شعبية، وأسواق، وفرق موسيقى وغناء.

(١٧) أتاتورك، مصطفى كمال (١٨٨١ ـ ١٩٣٨):

أسس حزب «تركيا الفتاة». قاد حركة المقاومة العسكرية التركية ضد معاهدة سيفر المعقودة سنة ١٩٢٠ والتي سلخت عن تركيا كثيراً من الأراضي وقيّدت سيادتها.

طرد القوات اليونانية من الأراضي التركية التي احتلتها في أعقاب الحرب العالمية الأولى.

ألغى الخلافة العثمانية وجعل تركيا جمهورية كان أول رؤسائها.

(١٨) كيرنسكي، ألكسندر (١٨٨١ ـ ١٩٧٠):

سياسي روسي. انضم إلى الحزب الاشتراكي وانتخب عضواً في «الدوما» (البرلمان) سنة ١٩١٢. أجبر القيصر نيقولا الثاني على التنازل عن العرش في آذار/مارس ١٩١٧. لكن البلاشفة بقيادة لينين أطاحوا بنظام كيرنسكي في ثورة ٧ تشرين الثاني/ نوفمبر (المسمّاة

ثورة تشرين الأول حسب التقويم الغريغوري).

فشل في استعادة العاصمة بتروغراد من أيدي البلاشفة.

(١٩) الثورة العربية الكبرى (١٩١٦):

هي الثورة التي أُعلنت بزعامة الشريف حسين بن علي، أمير مكة، في حزيران/يونيو ١٩١٦ ضد الدولة العثمانية لإقامة دولة عربية تشمل الجزيرة العربية وبلاد المشرق العربي. وقد ساند الثورة عدد من الجمعيات العربية الوطنية السرية التي اتصلت بفيصل - ابن الحسين - وفاوضته.

سبقت الثورة اتصالات مع بريطانيا (التي حاربت ضد تركيا). وقد تعهدت بريطانيا بالاعتراف بالاستقلال العربي، إلاّ إنها راوغت وتنكرت للوعود، التي تتعارض واتفاقية سايكس - بيكو.

بدأت المعارك الحربية في جدة في ١٣ حزيران/يونيو ١٩١٦ فانهزمت الحامية التركية. وفي تموز/يوليو ١٩١٧ سقط ميناء العقبة بأيدي الثوار.. ودخلوا دمشق في تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٨. وكانت تلك الثورة حليفة للبريطانيين أعانتهم على الانتصار عسكرياً، إلا إنهم تنكروا حتى للشريف حسين شخصياً.

(٢٠) نهرو، جواهر لال (١٨٨٩ - ١٩٦٤):

أول رئيس وزراء لجمهورية الهند المستقلة.

من أقطاب سياسة «عدم الانحياز».

درس القانون في جامعة كمبردج (بريطانيا)، وعاد ليمارس المحاماة. كان مقرباً إلى المهاتما غاندي.

دخل السجن أثناء الحكم البريطاني للهند ٨ مرات في الفترة ١٩٢٠ - ١٩٢٧.

انتخب زعيماً لحزب المؤتمر الهندي.

سنة ١٩٥٤، أصدر مع شو إن لاي المبادئ الخمسة للتعايش السلمي.

(٢١) تشانغ كاي تشك (١٨٨٧ - ١٩٧٥):

زعيم سياسي صيني. التحق بالحزب الوطني الصيني، «الكومتانغ».

تعاون مع الشيوعيين الصينيين بدعم من الاتحاد السوفياتي (١٩٢٣ - ١٩٢٧)، لكنه انقلب على الشيوعيين.

خلال الحرب العالمية الثانية عقد صلحاً مع الشيوعيين لمقاومة الاحتلال الياباني. وعاد بعد الحرب فشن الحملة على الشيوعيين (بتأييد من أميركا). عندما انتصرت الثورة الشيوعية التي قادها ماو تسي تونغ لجأ تشانغ كاي تشك مع أنصاره إلى جزيرة فورموزا، وأنشأ حكمه هناك.

(٢٢) كاوتسكي، كارل (١٨٥٤ - ١٩٣٨):

مفكر ثوري وسياسي ألماني أعمى. تلميذ ماركس وصديق إنغلز. اختلف مع لينين حول ديكتاتورية البروليتاريا.

أبرز من حاول التأليف بين الماركسية والاشتراكية الديمقراطية. رأى أنه يمكن تحقيق الثورة الاشتراكية بالأساليب الديمقراطية، وأن وظيفة الثورة هي تحقيق الديمقراطية الكاملة لا ديكتاتورية البروليتاريا.

مات في أمستردام سنة ١٩٣٨.

(٢٣) ستالين ـ يوسف فيساريونوفتش دجوغاشفيلي (١٨٧٩ ـ ١٩٥٣):

أمّا ستالين فهو اسم حركي اتخذه، ومعناه «الحديدي».

ولد سنة ١٨٧٩ في مدينة غوري البعيدة خمسين ميلاً عن تفليس عاصمة جورجيا (غروزيا).

تابع دراسته في معهد اللاهوت الأورثوذكسي. ومنذ السنة الأولى فيه التحق بالحركة الثورية السرية. بقي في المعهد ٥ سنوات. وقد ارتكب مخالفات كثيرة، منها ضبطه وهو يقرأ كتباً غير مرضي عنها من الإدارة، فطرد من المعهد سنة ١٨٩٩.

كان عضواً في الحزب الاشتراكي الديمقراطي الذي انقسم فيما بعد إلى قسمين: «المنشفيك» (ومعناها: «الأقلية») و«البلشفيك» (ومعناها: «الأكثرية»)، فكان مع البلشفيك.

اعتقل مرات عديدة إبان الحكم القيصري ونفي إلى سيبيريا ست مرات (خلال ١٩٠٢ ـ ١٩١٣). اعتقل مرة أخرى سنة ١٩١٣ ونفي إلى ما وراء الدائرة القطبية حيث بقي حتى سنة ١٩١٦.

بعد ثورة كيرنسكي سنة ١٩١٧، عاد إلى بتروغراد وأصبح محرراً في جريدة «برافدا» ـ لسان الحزب البلشفي.

تسلّم السلطة في الاتحاد السوفياتي بعد موت لينين. وشهدت بدايات سلطته صراعاً مع القادة الشيوعيين من حوله حول السياسة التي يجب انتهاجها لبناء الدولة الاشتراكية، فاستطاع أن يطرد تروتسكي من الحزب، ومن البلاد، كما عرفت علاقاته بزينوفييف وكامينيف مراحل من الجزر والمد انتهت بتصفيتهما.

في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي الذي عقد سنة ١٩٥٦ (بعد وفاة ستالين بثلاث سنوات) قدّم خروتشيف تقريراً اتهم فيه ستالين بانتهاج سياسة بطش وتصفية للآلاف من الشيوعيين السوفياتيين، كما صدرت تبرئات لساحة الكثيرين ممن حوكموا في أيامه وأعدموا بتهمة الخيانة.

(٢٤) بوخارين، نيكولاي إيفانوفتش (١٨٨٨ ـ ١٩٣٨):

منظّر شيوعي روسي. كان عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي والمكتب السياسي.

دافع عن موقف ستالين في الخلاف حول إمكانية «تحقيق الاشتراكية في بلد واحد»، لكنه اختلف معه حين دعا إلى توفيق وانسجام في المجال الزراعي.

أعدمه ستالين رمياً بالرصاص بتهمة الخيانة والتآمر سنة ١٩٣٨، إلاّ إنه أعيد إليه اعتباره بعد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي (١٩٥٦).

(٢٥) كولخوز، سوفخوز:

قانون الإصلاح الزراعي السوفياتي الذي صدر سنة ١٩٢٢، رسم شكلين للملكية الجماعية للإنتاج الزراعي: ١) السوفخوز: وحدة إنتاجية (قرية تعاونية) تسيّرها الدولة مباشرة؛ ٢) الكولخوز: مزرعة تعاونية، وتأتي بعد السوفخوز في التنظيم التعاوني حيث ملكية وسائل الإنتاج تعاونية. بعد قانون ١٩٦٩ أصبح العامل الكولخوزي يملك بيته، وماشيته (حتى ٥ بقرات)، و٤٠ رأساً من الأغنام، وعدداً من الدواجن، ومساحة زراعية.

(٢٦) صن يات صن (١٨٦٦ ـ ١٩٢٥):

مؤسس الجمهورية الصينية. استطاع أن يوحد القوى الثورية في الصين للإطاحة بالنظام الإمبراطوري سنة ١٩١١.

(٢٧) كامل، مصطفى (١٨٧٤ ـ ١٩٠٨):

زعيم وطني مصري، طالب بجلاء الإنكليز عن مصر. أصدر صحيفة «اللواء» سنة ١٩٠٠، وأسس الحزب الوطني سنة ١٩٠٧.

(٢٨) غوركي، مكسيم (١٨٦٨ ـ ١٩٣٦):

روائي ومسرحي روسي، من أقطاب مدرسة «الواقعية الاشتراكية». من أشهر رواياته «الأم» (١٩٠٧) التي تعتبر مثلاً بارزاً لتلك المدرسة. ومن مسرحياته «الأعماق السفلى» (١٩٠٢). وله سيرة ذاتية في ثلاثة أجزاء: «الطفولة» (١٩١٣ ـ ١٩١٤)؛ «في العالم» (١٩١٥ ـ ١٩١٦)؛ «جامعاتي» (١٩٢٣).

(٢٩) ماياكوفسكي، فلاديمير (١٨٩٣ ـ ١٩٣٠):

يعتبر أشهر شعراء الثورة الاشتراكية السوفياتية. مجّد الثورة ولينين في شعره، وسعى إلى التعامل مع اللغة اليومية في الشعر. وله تجديدات تقنية جريئة. توفي منتحراً.

(٣٠) إنغلز، فردريك (١٨٢٠ ـ ١٨٩٥):

فيلسوف اشتراكي ألماني، صديق ماركس وشريكه في التنظير الماركسي. أسهم في صياغة «البيان الشيوعي». انتقل إلى إنكلترا ودرس ظروف العمال هناك. نشر كتابين: «مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي» (١٨٤٤)، و«أحوال الطبقة العاملة في إنكلترا» (١٨٤٥). في تلك الفترة تعرف إلى ماركس فعملا على تأليف كتاب «العائلة المقدسة» و«الأيديولوجيا الألمانية».

دعم ماركس الذي كان يعاني مع عائلته ظروفاً مالية صعبة.

من كتبه الهامة: «الرد على دهرنغ» (١٨٧٨)، و«أصل العائلة»، و«الملكية الخاصة والدولة» (١٨٤٤)، و«فيورباخ وتهافت الفلسفة الألمانية» (١٨٤٤).

(٣١) الجوزي، بندلي صليبا (١٨٧١ ـ ١٩٤٢):

ولد في القدس. تعلم في كلية المصلبة الأورثوذكسية هناك، ثم في مدرسة «كفتين» في لبنان.

سنة ١٩٠٤ سافر إلى روسيا والتحق بجامعة قازان. بعد تخرجه علّم في السمنار الروحي هناك.

بعد زوال الحكم القيصري انتقل إلى مدينة باكو، وعُيِّنَ أستاذاً للأدب العربي في جامعتها.

زار فلسطين ثلاث مرات (١٩٠٨، ١٩٢٧، ١٩٣٠) وألقى العديد من المحاضرات في الأندية الثقافية.

له العديد من المؤلفات، منها: «الحركات الفكرية في الإسلام»، وهو أطروحته لنيل الدكتوراه؛ «علم الأصول عند الإسلام»؛ «أصل الكتابة عند العرب»؛ «جبل لبنان ـ تاريخه وحالته الحاضرة»، إلخ.

(٣٢) عوده، كلثوم (١٨٩٢ ـ ١٩٦٥):

ولدت في الناصرة. درست في دار المعلمات الروسية في بيت جالا، وعلمت في الناصرة. تزوجت من طبيب روسي سنة ١٩١٤ وسافرت معه إلى روسيا. توفي زوجها وترك لها ثلاث بنات.

عملت مع المستشرق كراتشكوفسكي في تدريس اللغة العربية في كلية اللغات الشرقية في لينينغراد.

ألّفت عدداً من كتب تدريس العربية، وترجمت عدداً من الكتب العربية إلى الروسية ومن الروسية إلى العربية. تتلمذ على يديها الكثيرون من المستشرقين.

سنة ١٩٢٨، زارت فلسطين لتدرس حال النهضة النسائية في فلسطين وسورية ومصر، لكن السلطات لم تسمح لها بدخول مصر وسورية.

منحتها الدولة السوفياتية الميدالية الذهبية مرتين تقديراً، كما أقيم احتفال رسمي في عيد ميلادها السبعين منحت فيه وسام الشرف.

(٣٣) كراتشكوفسكي، إغناطيوس (١٨٨٣ ـ ١٩٥١):

أبرز المستشرقين الروس المختصين بالدراسات العربية. ولد في فلنا (عاصمة لتوانيا). انتقل والده إلى طشقند فتعلم هناك اللغة الأوزبكية، ومن هناك كان تأثره بالثقافة الشرقية والحضارة الإسلامية.

درس اللغتين الكلاسيكيتين اليونانية واللاتينية، ثم بدأ بدراسة اللغة العربية. التحق بكلية اللغات الشرقية في جامعة سان بطرسبورغ، فدرس العبرية والحبشية، كما حضر دروساً في الفارسية والتركية التتارية.

كتب عدداً من الأبحاث مثل: «خلافة المهدي العباسي وفقاً لمصادر عربية»؛ «الخمر في قصائد الأخطل»؛ «أبو الفرج الوأواء الدمشقي». واتجه إلى دراسة المتنبي وشرح المعري له.

سنة ١٩٠٨، زار تركيا وسورية ولبنان ومصر. ونشأت صلات صداقة بينه وبين الكثيرين من الكتّاب العرب.

درّس في جامعة لينينغراد، ثم أصبح سكرتيراً لكلية اللغات الشرقية في الجامعة.

يقسم إنتاج كراتشكوفسكي الاستشراقي إلى: أ) نشر النصوص العربية القديمة؛ ب) ترجمات لنصوص عربية قديمة؛ ج) دراسات للأدب العربي المعاصر وترجمات منه؛ د) دراسة للأحوال المعاصرة في العالم العربي.

(٣٤) زينوفييف، غريغوري (١٨٨٣ ـ ١٩٣٦):

من قادة الحزب الشيوعي السوفياتي. التقى لينين وبليخانوف سنة ١٩٠٣، ووقف إلى جانب البلشفيك ضد المنشفيك.

سنة ١٩٠٧، انتخب عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي. وتنقل مع لينين في أوروبا قبل الحرب العالمية الأولى، وفي سنة ١٩١٧ عاد معه إلى روسيا.

اختلف مع لينين حيناً، وتجاوزا الخلاف في ثورة تشرين الأول/أكتوبر.

أصبح رئيساً للكومنترن سنة ١٩٢٢.

بعد موت لينين سنة ١٩٢٤ كانت علاقته بستالين في جزر ومدّ.

تحالف مع تروتسكي حيناً، وفصل من المكتب السياسي سنة ١٩٢٦. اقترن اسمه بكامينيف في كثير من المواقف.

سنة ١٩٣٢، طردهما ستالين من الحزب، وأعادهما في السنة التالية بعد أن قدما انتقاداً ذاتياً.

سنة ١٩٣٦، حكم عليه بالإعدام بتهمة المشاركة مع إرهابيين متحالفين مع الغستابو الألماني.

(٣٥) ليرمنتوف، ميخائيل (١٨١٤ ـ ١٨٤١):

من أبرز الشعراء الروس الرومانطيقيين.

من أشهر أعماله روايته «بطل من هذا الزمان» (١٨٤٠)، وتعتبر أول رواية واقعية سيكولوجية. وقد تأثر بإبداعه الكثيرون من أعلام الأدب الروسي بعده.

(٣٦) هارلم: حي الزنوج في نيويورك.

(٣٧) تشيخوف، أنطون (١٨٦٠ ـ ١٩٠٤):

قاصّ وكاتب مسرحي روسي. يعتبر من أعلام كتّاب القصة القصيرة. أشهر مسرحياته: «الخال فانيا» (١٨٩٧)، و«الشقيقات الثلاث» (١٩٠١)، و«بستان الكرز» (١٩٠٣).

(٣٨) ماكدونالد، جيمس رامزي (١٨٦٦ ـ ١٩٣٧):

اشتراكي بريطاني. أصبح أول رئيس وزارة عن حزب العمال سنة ١٩٢٤. عارض اشتراك بريطانيا في الحرب العالمية الأولى. كما عارض التدخل البريطاني في الحرب الأهلية الروسية، وأثناء رئاسته اعترفت بريطانيا بالاتحاد السوفياتي.

اتهم بخيانة مبادئ حزبه عندما شكل الوزارة المشتركة بأغلبية حزب المحافظين سنة ١٩٣١.

له عدة مؤلفات منها: «الاشتراكية والحلم»؛ «الحركة الاشتراكية»؛ «البرلمان والثورة».

(٣٩) النحاس، مصطفى (١٨٧٦ ـ ١٩٦٥):

زعيم حزب الوفد المصري. اتصل بسعد زغلول أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨). وفي سنة ١٩١٩ ضمه سعد إليه وساهم في الثورة آنذاك مشرفاً على الإضرابات والنشاط الطلابي.

عُيِّنَ وزيراً للمواصلات سنة ١٩٢٤، ثم رئيساً للمجلس النيابي سنة ١٩٢٦. وفي سنة ١٩٢٨ أصبح رئيساً للوزارة. ترأس وفد المفاوضات الذي عقد مع الإنكليز معاهدة سنة ١٩٣٦.

سنة ١٩٥٠ عاد إلى رئاسة الوزارة وما لبث أن ألغى معاهدة سنة ١٩٣٦.

اعتزل السياسة بعد ثورة ١٩٥٢.

(٤٠) ثورة ١٩٢٩:

وتسمّى أيضاً «ثورة البراق» و«انتفاضة آب». إن ظروف الصراع القومي والقمع الاستعماري وخطر قيام الوطن اليهودي على حساب إلغاء الكيان الفلسطيني ـ هذه كلها كانت قد تراكمت بعد ما كان من مصادمات سنة ١٩٢٠ وسنة ١٩٢١، فاشتعلت بشرارة ذات أبعاد دينية. ففي ١٥ آب/أغسطس ١٩٢٩، قامت مظاهرة صهيونية بالتوجه إلى حائط المبكى حيث رفع المتظاهرون العلم الصهيوني وأنشدوا «هتكفا»، فقامت في اليوم التالي مظاهرة عربية توجهت إلى ذلك المكان باعتباره حائط البراق، وأزالت الرموز اليهودية عنه.

اتسع مدى الصدامات من القدس إلى الخليل ونابلس وبيسان ويافا وحيفا، إلخ.

وكانت نتيجة الصدامات أن قتل ١٣٣ من اليهود وجرح ٣٣٩، وقتل ٨٧ من العرب وجرح ١٨١.

لمزيد من التفاصيل ـ الأسباب والظروف، وموقف الحزب الشيوعي الفلسطيني والكومنترن، راجع: سميح سماره، «العمل الشيوعي في فلسطين» (بيروت، ١٩٧٩)، الفصل الخامس.

(٤١) «التعريب»:

هناك مراجع كثيرة عن «التعريب» في الحزب الشيوعي الفلسطيني، منها: سليمان بشير، «المشرق العربي في النظرية والممارسة الشيوعية (١٩١٨ ـ ١٩٢٨)» (القدس، ١٩٧٧)؛ سميح سماره، «العمل الشيوعي في فلسطين» (بيروت، ١٩٧٩)؛ بولس فرح، «من العثمانية إلى الدولة العبرية» (الناصرة، ١٩٨٥).

(٤٢) نويهض، عجاج (١٨٩٦ ـ ١٩٨٢):

ولد بلبنان. التحق بالحركة القومية في دمشق إثر قيام الحكم العربي فيها. اختاره الحاج أمين الحسيني سكرتيراً للمجلس الإسلامي الأعلى ثم مساعداً لمفتش المحاكم الشرعية.

سنة ١٩٣٢ ساهم في إنشاء حزب الاستقلال، وأنشأ مجلة «العرب» السياسية الأسبوعية (القدس، ١٩٣٢ ـ ١٩٣٤). اعتقل أثناء ثورة ١٩٣٦.

عمل مراقباً للبرامج العربية في دار الإذاعة في القدس. وبعد سنة ١٩٤٨ عمل

مساعداً لرئيس الديوان الملكي الهاشمي (١٩٤٩ ـ ١٩٥٠)، ثم مديراً للإذاعة الأردنية، فمديراً عاماً للمطبوعات والنشر.

سنة ١٩٥٩، عاد إلى لبنان ونشر عدداً من الكتب.

(٤٣) نقولا، جبرا (١٩١٤ ـ ١٩٧٤):

اشتراكي فلسطيني، مفكر وباحث ثوري ولد في الناصرة. كان عضواً في الحزب الشيوعي الفلسطيني. مال إلى مواقف «الأممية الرابعة» (التروتسكية).

له عدد من الكتب، منها: «في العالم اليهودي» (١٩٣٥)؛ «التنظيم المهني» (١٩٣٥)؛ ترجمة كتاب «لينين» لبالم دط (١٩٣٥)؛ «أبو العلاء المعري» (١٩٥٩)؛ ترجمة رواية «سوناتا كروتيــر» لتولستوي (١٩٦٠).

من مؤسسي مجلة «الجديد» (١٩٥١) وسلسلة «الكتب المختارة».

بادر إلى إنشاء حركة «ماتسبين» (البوصلة) الاشتراكية.

توفي في لندن سنة ١٩٧٤.

(٤٤) ديميتروف، جورجي (١٨٨٢ ـ ١٩٤٧):

زعيم شيوعي بلغاري. انتخب سنة ١٩١٣ نائباً في المجلس الوطني البلغاري. وساهم في بناء الحزب الشيوعي البلغاري سنة ١٩١٩.

سجن سنة ١٩١٨ ثم غادر البلاد. اشترك سنة ١٩٢١ في المؤتمر الثالث للكومترن، ثم أصبح سكرتيراً تنفيذياً للمنظمة من سنة ١٩٣٤ حتى حُلّت سنة ١٩٤٣.

سنة ١٩٣٣، اتهم بحرق الرايخستاغ (البرلمان الألماني)، ولكنه برع في الدفاع عن نفسه وبعد تبرئته رحل إلى روسيا ومنح الجنسية السوفياتية.

سنة ١٩٤٥، عاد إلى بلغاريا واستعاد جنسية وطنه وأشرف على مشروع دستور الجمهورية البلغارية الشعبية.

(٤٥) القوتلي، شكري (١٨٩١ ـ ١٩٦٧):

ولد بدمشق، ودرس في الكلية الشاهانية في إستنبول، وشارك في التنظيم القومي. اعتقل في الحرب العالمية الأولى.

سنة ١٩٢٠، كلفه الملك فيصل تشكيل ولاية دمشق.

اشترك في المؤتمر العربي القومي الذي عقد في القدس سنة ١٩٣١، ووقع على الميثاق الذي صاغه المؤتمر. انتخب نائباً عن دمشق سنة ١٩٣٦، وتولى في أول حكومة وطنية وزارتي المالية والدفاع.

انتخب رئيساً للجمهورية السورية، وفي رئاسته تم جلاء الفرنسيين عن سورية.

تنازل عن رئاسته للجمهورية لصالح الوحدة بين مصر وسورية وانتخاب جمال عبد الناصر رئيساً.

(٤٦) «البروفنترن» (أممية النقابات الحمراء):

تنظيم نقابي عالمي أنشئ في موسكو سنة ١٩٢١، يجمع بين العمال من الاتحاد السوفياتي

ومختلف أقطار العالم. شارك في إنشائه ٣٨١ مندوباً مثّلوا ١٧ مليوناً من النقابيين في ٤١ بلداً، منها: الاتحاد السوفياتي؛ فرنسا؛ ألمانيا؛ هولندا؛ كندا؛ الصين؛ إندونيسيا؛ تشيلي؛ كوبا؛ اليابان؛ إلخ.

في أواسط الثلاثينات سعت هذه المنظمة إلى إنشاء جبهة موحدة من العمال للنضال ضد الفاشية.

الحركة الوطنية العربية
من الانقلاب الاتحادي حتى عهد الكتلة الوطنية*

أنهيت دراستي في جامعة الشعوب الشرقية في شهر شباط [فبراير] سنة ١٩٢٩، وكان موضوع أطروحتي «الحركة الوطنية العربية من الانقلاب الاتحادي حتى عهد الكتلة الوطنية»، أثبتها هنا لاتصالها الوثيق بموضوع الكتاب من حيث التسلسل الزمني، والتقييم الفكري.

* لم يتوفر النص الكامل لهذه الأطروحة في ملحق المذكرات التي خلّفها المؤلف، فكان لا بد من بحث مضن للحصول على بقية المادة امتد إلى الكثير من الأقطار. ونثبت هنا ما أمكن جمعه. (المحرر)

المستهل

«إن تاريخ الحركة الوطنية العربية لا يدرَّس في المعاهد العربية كموضوع قائم بذاته، لأن الدول المستعمرة لا تعترف به، ولأن المكتبة العربية تفتقر إلى مؤلفات تحليلية لذلك التاريخ.

«لدينا مؤلفات عديدة عن الحركة الوطنية العربية، ومنها القدر الكبير من المواد الأولية، والتحليلات العابرة، غير أنها لا تفي بالغرض، ولا تؤدي المطلوب العلمي، وعلى ذلك فإننا نستهدف من هذه الدراسة تقديم بعض الآراء المادية في شرح الحركة الوطنية العربية، لما قبل الحرب العالمية الأولى وأثناءها والفترة التي أعقبتها، جاعلين رائدنا تصنيف المراحل، وتحديد البرامج، وتفسير العوامل، وتعيين المصالح والأهداف.»

القضية العربية في مرحلتها الأولى

عاش العرب في أوائل القرن العشرين في محيط يختلف كل الاختلاف عن المحيط الذي يعيشون فيه حالياً، فسياسياً كانوا خاضعين للسيادة التركية، وهي تختلف عن الاستعمار الحديث بحيث أنها كانت تمثل مصالح إقطاعيي الأناضول وتجار الآستانة، بينما الاستعمار الحديث، الذي نخضع له اليوم، يمثل مصالح أصحاب المصارف المالية وما يتبعها من شركات صناعية وبيوتات احتكارية.

واقتصادياً خضع العرب إلى أنظمة تفوقت فيها طرق الاستثمار الإقطاعي الاستبدادي المطلق، فأخصب أراضيهم كانت بيد الحكام الأتراك، ومجموع هذه الأراضي كانت ملكاً للسلطان، يمنحها لمن يشاء ويحرمها عمّن يشاء، فإن قام أحد الحكام الأتراك بعمل بارز يستحق المكافأة منحه الوالي مساحة ما من الأراضي مع فلاحيها، فجاء أبناؤه و(طوبوها) بأسمائهم، وهكذا بقيت في حوزتهم وأصبحت فيما بعد ملكاً لهم.

ونتج عن هذا الوضع أن وجد العرب أنفسهم في حالة جمود وتأخر، فإذا

كانت تركيا نفسها تنوء تحت الحكم الإقطاعي الجائر الممثل في شخص السلطان عبد الحميد، فكيف بالعرب المسلوبي السيادة القومية والمقومات الاقتصادية والثقافية؟..

وبما أنه يتخلل التطور التاريخي البطيء تطور بـ «القفزات»، وانتقال عاصف من حالة إلى حالة، شرع العرب والأتراك وفقاً لهذا الناموس يتذمرون من القيود الإقطاعية التي تقيد تطورهم التاريخي وراحوا يعدون العدة للانقلاب الكبير بعد أن تهيأت الأسباب ونضجت المقدمات.

عرفنا من التاريخ أن العرب والأتراك كانوا، قبل الانقلاب الاتحادي، على اتفاق تام في اتجاهاتهم الفكرية، ومشاربهم النفسية، وأهدافهم السياسية، غير أننا في بحثنا عن سبب ذلك الاتفاق نجد أن المؤرخين المثاليين قد لخصوه بعبارة واحدة وهي «الخلافة والرابطة الدينية». والواقع أن هناك أسباباً أعمق من السبب الديني، فما دفعهم للتقارب إلاّ رغبتهم في تحطيم الحكم الحميدي، ممثل الإقطاعية الاستبدادية المطلقة. فالأتراك رغبوا في تحطيمه مدفوعين بعامل الانقلاب البورجوازي الديمقراطي الرامي إلى كسر شوكة السلطان المستبد، وتمكين العناصر التقدمية التركية من السير بالبلاد نحو الهدف الذي تسعى هي إليه.. والعرب رغبوا في تحطيمه مدفوعين بعامل التحرر الوطني الرامي في هدفه التاريخي إلى الانفصال عن الأتراك، وإيجاد مقومات خاصة بالشعوب العربية تضمن لها سيادتها القومية السياسية والاقتصادية. وهكذا اجتمعت الرغبتان، وكانت الوحدة العثمانية والجامعة الإسلامية مظهراً خارجياً فقط لاجتماع المصالح والرغبات.

من هنا يتضح لنا أيضاً سبب انفصام عرى الاتحاد العربي التركي على أثر حدوث الانقلاب الاتحادي. فبعد أن تم إسقاط الحكم الحميدي الإقطاعي في داخل تركيا فقط، ومالت الكفة إلى جانب الاتجاه البورجوازي، تمسك الاتحاديون المتصرون (أصحاب ذلك الاتجاه) بنظام السلطنة الإمبراطوري، لأنهم رأوا فيه نظاماً حيوياً للنهب والاستثمار، فنتج عن ذلك فقدان التقارب التركي العربي، وحل النضال القومي محل «المبدأ العثماني»، وتبين للعرب أن اضطهادهم كأمة انتقل من يد السلطان، ممثل الاستبداد الإقطاعي المطلق، إلى يد العناصر البورجوازية التركية، وهذا ما حدا بهم إلى مكافحة كل أشكال السيطرة التركية، جاعلين لذاتهم أهدافاً تتناسب ومختلف الأوضاع التاريخية.

متى كانت بداية الحركة الوطنية العربية؟..

سؤال يتعذر الإجابة عليه بذكر اليوم والسنة، وإنما يستطاع القول إن اليوم الذي وقع فيه أول اصطدام مع الحكام الأتراك كان بداية الحركة الوطنية العربية،

فالثورة اليمانية، والنجدية، والدرزية، واللبنانية كلها كانت مظاهر مختلفة من مظاهر الحركة الوطنية العربية.

إلاّ إن الذي يهمنا في هذا الصدد هو تحديد التاريخ الذي أخذت فيه تلك الحركة شكلاً منظماً واعياً، ونحن نحدده بالسنة التي ثار فيها الشعب بقيادة حزب الاتحاد والترقي على السلطان عبد الحميد، وإعلان الدستور العثماني وذلك في ٢٣ يوليو (تموز) سنة ١٩٠٨، إذ سقط السلطان الإقطاعي التجاري المستبد، وانتقل الحكم إلى أيدي زمرة من القادة والزعماء الأتراك الذين تأثروا بالمدنية الغربية، وأرادوا أن تقتفي تركيا أثر هذه المدنية بالتسلح بسلاح النعرة القومية، واضطهاد الشعوب الخاضعة للإمبراطورية التركية.. فالانقلاب الاتحادي، طبقاً لهذا المعنى، قد وضع حجر الزاوية للانقلاب الكمالي البورجوازي الذي أنجز ما لم تستطع إنجازه ثورة الاتحاديين.

أمّا الشعار الذي اتخذه الاتحاديون لهم فهو حرية، عدالة، مساواة، مقتبسين ذلك من شعار الثورة الافرنسية البورجوازية الكبرى حرية، مساواة، إخاء.. واتخاذهم الشعار المذكور يدل على قدر تأثرهم بالانقلابات البورجوازية الغربية، وما أدت إليه من أنظمة حزبية وثقافية وحكومية.

وإن ذكرنا العوامل الخارجية التي أثرت على الانقلاب الاتحادي فلا بد من ذكر الثورة الروسية الأولى سنة ١٩٠٥، فهذه الثورة الشعبية الروسية كانت موجهة ضد الحكم القيصري الإقطاعي المستبد، وفي سبيل إقامة نظام دستوري ديمقراطي يعبر عن مطامح البورجوازية (الأعيان) في شكله وجوهره، ومع أن هذه الثورة لم تفز بمبتغاها لكن مفعولها بقي سارياً لا في داخل روسيا فحسب، بل وفي كل الأقطار الشرقية المجاورة لروسيا، الخاضعة أيضاً للأنظمة الإقطاعية.

رأى الأتراك أن الشعب الروسي ثار على القيصر وعلى حاشيته الإقطاعية بالرغم من تقديس الروس للقيصر واعتبارهم إياه ممثل الله على الأرض، فتحفز الأتراك بدورهم للانقضاض على السلطان ممثل الإقطاعية، وأسقطوه بالرغم من (قدسيته) كخليفة للمسلمين.

فالعرب، كغيرهم من الشعوب التي خضعت للسلطنة التركية، تفاءلوا خيراً بالانقلاب الاتحادي، اعتقاداً منهم أن الاستبداد الحميدي الإقطاعي سيرتفع عن كواهل الشعوب «العثمانية» بأسرها لا عن الأتراك فحسب.

لقد اهتز العرب طرباً لوقوع الانقلاب الاتحادي وإعلان الدستور، فأقاموا الزينات والمهرجانات، وأقبل الشباب العرب يساعدون الاتحاديين بعد الانقلاب، كما كانوا يساعدونهم قبله، فاستغلهم الاتحاديون، وعلى رأسهم الباشاوات جمال،

أنور، وطلعت، وقد منوهم بالوعود الخلابة، حتى إنهم أدخلوا في مجلس المبعوثان التركي الجديد ٧٠ مبعوثاً عربياً من مجموع ٢٧٣ مبعوثاً، وكان للألبان، واليونان، والبلغار أيضاً ممثلون، فلم يبق للأتراك سوى ١٤٣ مبعوثاً.

لم ينل العرب مبتغاهم من الانقلاب الاتحادي، البورجوازي الديمقراطي في أهدافه، لأن العناصر البورجوازية التركية، التابعة إلى بلاد تتحكم برقاب غيرها من الشعوب، تمتعت بقدر معلوم من التحرر من قيود الإقطاعية، فجلبت معها نعرة جديدة، هي غير النعرات التي كان يعمل بها قبل الانقلاب، جلبت معها نعرة القومية العدائية بالنسبة لغيرها من الأقوام، أي الانكماش القومي، والاستهتار ببقية الشعوب المحكومة.. وهكذا حلت القومية «الطورانية»* للوضع التركي الجديد، محل العثمانية الجامعة الاسمية للإقطاعية التركية.

كانت حياة العرب الاجتماعية جد بسيطة في ذاك الزمان. إنتاجهم بسيط لا يتعدى الزراعة، والحرف اليدوية الصغيرة، والتجارة الأهلية.. ٧٠ بالمئة منهم قرويون مزارعون، و٢٠ بالمئة حضريون حرفيون ومتعلمون، و١٠ بالمئة وجهاء، وأعيان، وفقهاء، وموظفون.

ووفقاً لهذه العلاقات الإنتاجية البسيطة، كانوا يعيشون في وسط اجتماعي غير معقد، تسوده الفطرية والتأخر، لكنه ضمن سبل العيش للجميع، على درجات متفاوتة طبعاً، وكانت الأوقاف وغيرها من المؤسسات الدينية المصدر الأساسي لمساعدة البؤساء من سكان المدن والقرى، وإن وقعت في ما بينهم الخلافات والحزازات فغالباً ما كانت تحل بواسطة «كبار» العائلات، أو مشيخات الأحياء، فلا تصل إلى القضاء الشرعي أو القضاء المدني.

أمّا علاقاتهم بمن جاورهم من القوميات والطوائف فكانت على الإجمال ودية، وإن ظهرت خصومات فيما بينهم فكانت تظهر بشكل نزاع شخصي نفعي يؤدي أحياناً إلى نزاع عابر بين «الكفار» و«المؤمنين» لا أكثر.

قلة من العرب كانت تدرك في تلك الأيام أن «أمة» تركية تتحكم بـ «أمة» عربية. وكان الاعتقاد السائد أن السلطان يظلم رعاياه العثمانيين فلمّا أخذ الاتحاديون الأتراك يحلون النعرة القومية الطورانية محل النعرة العثمانية، ولمّا أخذوا يصبغون كل ناحية من نواحي حياتهم، حتى الدين أيضاً، بالصبغة التركية الطورانية، استفزوا بذلك الشعور القومي في الشعوب الخاضعة لإمبراطوريتهم، ونبهوا فيهم

* ظهرت في ذلك الحين حركة تدّعي أن الأتراك يتمون إلى قبيلة طوران لا إلى التتر، واتخذوا القومية الطورانية حافزاً لحركتهم القومية الجديدة.

الوعي الوطني، وكانت الشعوب العربية في عداد «الشعوب العثمانية» التي تأثرت بهذا الاستفزاز.

طبعاً لم يكن الاستفزاز القومي التركي هو العامل الأصلي لظهور الحركة الوطنية العربية، بل كان سبباً مباشراً للكشف عن وضع قد اختمر وتهيأت شروطه لدرجة ما. فالعامل الأصلي يكمن في بذور الرأسمالية التي بدأت تذر في التربة العربية. كانت فاتحة القرن العشرين فاتحة لعصر ازدهار الاستعمار الغربي وتغلغله في الأقطار العربية، وإدخاله أسواق هذه الأقطار في معامع النضال الرأسمالي، فتأسست في العواصم العربية البنوك الأجنبية بكثرة مثل «أوتومان بانك»، و«ديتشه الغيمينه بانك»، و«الكريدي ليونه» وغيرها، ونشبت مخالبها في الاقتصاديات العربية، وأخذ العرب يهتمون بحركات البورصة والكامبيو، واتصلوا بالشركات التجارية الرأسمالية الأجنبية، وتعاظم فيما بينهم التداول النقدي بعد أن أخذت تتلاشى معالم المقايضة بالمحصولات الطبيعية، فنتج عن هذا كله بروز جماعات شبه رأسمالية عربية، أخذت تعمل، متأثرة بالرأسمال الأجنبي، ومحاولة تتبع خطاه، على تحطيم الحواجز التي أقامها الحكام الأتراك في سبيل تطور اقتصاديات العرب ووسائل إنتاجهم.

هذه بعض النواحي الاقتصادية في شرح ظهور الحركة الوطنية العربية، ومتى أضفناها إلى سخط العرب على الاستبداد التركي، وحبهم لقوميتهم التاريخية، وللغتهم الحية، ولثقافتهم الشهيرة، ولمدنيتهم الضائعة، وحنينهم إلى مجدهم الغابر، متى أضفنا هذه العوامل الجوهرية إلى العامل الاقتصادي المذكور تجلت أمام أنظارنا الحركة الوطنية العربية في بدء نموها وترعرعها.

أخذت المسألة العربية تخرج من معقلها شيئاً فشيئاً إلى أن برزت بشكل أولي بسيط، فعمدت إلى اتخاذ خطوات تنظيمية وطنية، بعد أن ظهرت نوايا البورجوازية التركية التحكمية، فانسحب العرب من عموم نوادي الاتحاديين، وأخذوا يؤلفون لذاتهم النوادي والجمعيات والأحزاب، واضعين أمامهم شعاراً واحداً لا غير وهو «المساواة بالأتراك»!.. إنه شعار المرحلة الأولى من تطور الحركة الوطنية العربية أي من سنة ١٩٠٨ حتى سنة ١٩١٢. أمّا شعار المرحلة الثانية، أي من سنة ١٩١٢ حتى سنة ١٩١٤، فكان «الاستقلال الذاتي أو اللامركزية الإدارية»!.. وكان شعار المرحلة الثالثة، أي من سنة ١٩١٤ حتى نهاية الحرب الكبرى، «الاستقلال التام»!.. وسنتناول فيما بعد شرح المرحلتين الأخيرتين بإسهاب.

قلنا إن الأتراك أعلنوا انفصالهم عن العرب لغرض تنظيم استعمارهم والعرب ابتدأوا ينفصلون عن الأتراك لغرض الدفاع عن مصيرهم وتنظيم صفوفهم، وإصلاح

شؤونهم.. فأخذت الجمعيات السياسية العربية تظهر إلى الوجود للمرة الأولى، وهي جمعيات المرحلة الأولى من تطور الحركة الوطنية العربية المنظمة، وكانت تطالب بالعدل والمساواة مع الأتراك..

جمعيات المرحلة الأولى ومطاليبها

«جمعية الإخاء العربي».. هي أول جمعية عربية تأسست في الآستانة بعد إعلان الدستور العثماني في سنة ١٩٠٨.

مقاصدها: (١) تأييد مبادئ العدل والمساواة مع الأتراك. (٢) إصلاح الشؤون المختلفة في الدولة. (٣) تأسيس معامل وشركات زراعية وتجارية وصناعية. (٤) تحضير البدو في الأراضي وتعليمهم الحرف. (٥) ترقية الثقافة العربية. (٦) تنظيم الطلاب العرب واستقبال الوفود العربية.

مؤسسو الجمعية: عارف بك المارديني، صادق باشا العظم، شفيق بك المؤيد، يوسف بك شنوان، شكري باشا الأيوبي، شكري بك الحسيني.

«المنتدى العربي».. أنشئ في سنة ١٩٠٩، ثم أغلقه الأتراك في سنة ١٩١٥.

مقاصده: (١) مساعدة الطلاب العرب. (٢) بث الدعاية العربية. (٣) التفاهم بين الزعماء الأتراك والعرب على أساس المساواة في الحقوق والواجبات.

مؤسسو النادي*: عبد الكريم قاسم الخليل، جميل الحسيني، رفيق رزق سلوم، سيف الدين الخطيب، يوسف سليمان حيدر.

«الجمعية العربية الفتاة».. تأسست في باريس، سرية ومنظمة تنظيماً محكماً على نمط الجمعيات الأوروبية.

مقاصدها: (١) العمل للنهوض بالأمة العربية إلى مصاف الأمم الحية. (٢) المساواة بالأتراك وعدم الانفصال عنهم (بعد إعلان الحرب تعدل البرنامج، واتجهت النية نحو العمل لاستقلال بلاد العرب، وتحريرها، أي التمسك بشعار المرحلة الثالثة).. وفي سنة ١٩١٢ انتقل مركز هذه الجمعية إلى سورية، واتخذت بيروت مقراً لها.

مؤسسوها: الدكتور أحمد قدري، عوني عبد الهادي، رفيق التميمي، محمد

---

* كذا في الأصل، والمقصود: المنتدى. (المحرر)

المحمصاني، عبد الغني العريسي، جميل مردم بك. ومن الأعضاء العاملين في هذه الجمعية رستم حيدر، الأمير عارف الشهابي، توفيق الناطور، محمد الشريف، عمر حمد، توفيق البساط، رفيق رزق سلوم، سيف الدين الخطيب، صالح حيدر، إبراهيم حيدر، الشيخ كامل القصاب، فخري البارودي، وعلي رضا باشا الركابي.. وقد انضم إليها أيضاً الأمير فيصل بن الحسين، وياسين الهاشمي، ونسيب البكري.

«الجمعية القحطانية».. أنشئت في الآستانة في أواخر سنة ١٩٠٩.

مقاصدها: (١) بث الفكرة العربية. (٢) التساوي بالحقوق مع الأمة التركية.

مؤسسوها ـ ومعظمهم من الضباط العرب المنخرطين في الجيش العثماني ـ عبد الكريم الخليل، عادل أرسلان، الدكتور عزت الجندي، حسن حمادة، علي النشاشيبي، وأمين لطفي الحافظ، وغيرهم. وقد عاشت هذه الجمعية حتى الحرب العظمى.

«جمعية العلم الأخضر».. تأسست في الآستانة سنة ١٩١٢.

مقاصدها: (١) تقوية الروابط الوطنية بين الطلاب العرب. (٢) العدل والمساواة مع الأتراك.. عاشت هذه الجمعية حتى الحرب العظمى.

مؤسسوها: الدكتور إسماعيل الصفار، الدكتور فائق شاكر، الدكتور داود الديواني، أحمد عزت الأعظمي، عاصم بسيسو، مسلم العطار، علي رضا الغزالي، عبد الغفور البلدي، مصطفى الحسيني، وشكري غوش.

هذه هي الجمعيات العربية السياسية الخمس التي أُسست من سنة ١٩٠٨ حتى سنة ١٩١٢.. والملاحظ أن برامجها السياسية لم تتعد المطالبة بالمساواة مع الأتراك ضمن الإمبراطورية التركية، هذا بالنسبة لعلاقة العرب بالأتراك، أمّا بالنسبة للعرب أنفسهم فالجمعيات المذكورة كانت تمثل البعث الوطني العربي المنظم، وتدرج الرأسمال العربي الحديث في المطالبة بتأسيس المعامل والشركات الزراعية والتجارية والصناعية، وتحضير البدو في الأراضي، وتعليمهم الحرف التي تؤهلهم ولوج أبواب المصانع المقبلة.

كانت هذه المرحلة حتمية وضرورية لتطور الحركة الوطنية العربية، واكتفاء العرب بالمطالبة بالمساواة مع الأتراك كان يتلاءم مع وضعهم الاقتصادي والاجتماعي، ويتفق مع مستوى وعيهم الوطني.

من الخطأ الظن أن البلاد العربية لم تقع في شبكة الاستعمار المعروف بـ «الإمبرياليزم» إلاّ على أثر انتصار الحلفاء في الحرب العالمية عام (١٩١٤)، فالاستعمار الحديث القائم على تصدير رؤوس الأموال، واحتكار مصادر المواد الخام في المستعمرات، وجعل هذه المستعمرات أسواقاً تباع فيها بضائع البلاد الرأسمالية، واستثمار أيدي أبناء الشعوب المضطهدة بأجور زهيدة، أجل، هذا الاستعمار تعرفه البلاد العربية من غير أن تدرك كنهه منذ مئة عام أو أكثر.

إن تركيا لم تكن دولة استعمارية بالمعنى المذكور، ولم تصل إليه حتى بعد الانقلاب الاتحادي، والسبب في ذلك أن تركيا لم تَسُدْها الرأسمالية الصناعية، ولم تصدر إلى بلادنا رؤوس الأموال والمنتوجات الصناعية بل كانت تستغل أخصب أراضينا الزراعية بواسطة الحكام الإقطاعيين الذين استوطنوا هذه الديار، وتأخذ منا الأموال الطائلة بشتى الطرق، منها ما هو للخليفة، ومنها ما هو للشؤون الدينية، ومنها ما هو لازم لمساعدة صندوق السلطنة العام.

وبعبارة أُخرى إن تركيا لم تكن سوى وكيل تجاري للدول الرأسمالية الأوروبية ونخص منها بالذكر ألمانيا، النمسا، فرنسا، إنكلترا، إيطاليا، وروسيا القيصرية.

فإن قلنا إن تركيا عرقلت تطور البلاد العربية الاقتصادي خلال خمسة قرون، فذلك لأنها سيطرت على حياتها الزراعية، وكانت وسيطاً بين المنتج الصناعي الأوروبي والمستهلك العربي.. أي أن تركيا لم تكن دولة استعمارية بالمعنى الصناعي الرأسمالي، بل كانت عميلة لمختلف الدول الاستعمارية، تعيش مما كانت تتقاضاه من عمولات على المنتوجات الغربية الداخلة إلى أسواق البلاد العربية.. وهذا ما يفسر تهاونها واستهتارها بمختلف أجزاء هذه البلاد، ومساومتها الدول الاستعمارية على احتلال مصر عام (١٨٨٢) وطرابلس الغرب عام (١٩١٢).

فلو كانت تركيا قبل الانقلاب الاتحادي وبعده دولة رأسمالية صناعية من طراز الدول الاستعمارية الحديثة، لما كانت ضعيفة، خائرة، تنعت بـ «الرجل المريض»، وتفتح أبواب بلادنا أمام تيار الاستعمار الغربي الجارف، بل عملت ما في وسعها كي تستأثر هي بهذه البلاد وتستغل أسواقها كما يستغلها حكامنا اليوم.

وعليه فإن النضال الاقتصادي الذي قام بين العرب والأتراك كان نضالاً زراعياً، موجهاً ضد الإقطاعيين الأتراك الذين كانوا يشغلون في ذات الآونة مراتب الحكام، والموظفين الرسميين.. وكان نضالاً تجارياً باعتبار الحكام الأتراك عملاء

للشركات الرأسمالية الغربية في البلاد العربية.

تغلغل الاستعمار الغربي إبان الحكم التركي.. لم تكن سيطرة الأتراك على مقدرات هذه البلاد هي العامل الأساسي الذي غيّر معالم الحياة العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين، فكل ما كان باستطاعة الإقطاعية التركية فعله هو عرقلة تطور العرب لا أكثر، أمّا دهورة كيانهم الاجتماعي وتشويه حياتهم القومية، فيرجع السبب فيه إلى الاستعمار الغربي، الحائز على درجة اجتماعية من التطور هي أعلى بكثير من درجة الأتراك.

أجل، لقد أدى تغلغل الاستعمار الغربي الاقتصادي، والديني، والثقافي، والتقليدي، في البلاد العربية إلى نشر ألوية الفوضى والاضطراب في سائر أرجائها.. فالغربيون المسلحون بأنظمة إنتاجية تفوق أنظمة الأتراك والعرب في الإنتاج، انسابوا بالتدرج في مختلف نواحي حياة العرب، وكان لانسيابهم هذا مفعول شديد الوطأة، دمر الحياة المشاعية القروية القديمة، ودهور أسس المجتمع العربي الاقتصادية، ولم يدخل من الأساليب الحياتية الجديدة إلاّ ما هو في صالح التجارة والصناعة الغربية.

فالخطوط الحديدية لم تمد لإنهاض قوى العرب الإنتاجية، فتسبب من ذلك القضاء على طرق المواصلات الأهلية، والموانئ لم تُشَدْ للأساطيل التجارية والحربية العربية، إنما هي للتجارة الغربية التي اقتضت تشييدها، والمدارس ودور التبشير لم تؤسس لتأخذ بيد الثقافة العربية، وتقوي العرب في ثقافتهم ومعتقداتهم، بل أسست لمكافحة هذه الثقافة والمعتقدات، فكانت النتيجة أن تزعزعت التربة تحت أقدام العرب، فانهارت اقتصادياتهم، وانتشرت الفوضى الفكرية في أوساطهم.

ولعل أصدق تحليل لهذا الوضع الذي اجتازته البلاد العربية ـ وما زالت تتأثر به حتى هذا اليوم ـ نجده في ما كتبه الفيلسوف الألماني الكبير فردريك إنغلز عن المجتمع الهندي قال: «لا يرجع سبب انحلال المشاعيات الصغيرة التي يتألف منها الجهاز الاجتماعي الهندي إلى الأعمال المروعة التي اقترفها الجنود وجامعو الضرائب من الإنكليز فحسب، بل وبالدرجة الأولى إلى مفعول البخار الإنكليزي، إلى حرية التجارة الإنكليزية.. كانت العائلات المشاعية تتماس ببعضها بعضاً، بما تنتجه من غزل يدوي، وحياكة يدوية، فجاء الاحتلال الإنكليزي وجعل الحائك في لانكشير والغزّال في البنغال، أو قضى على الغزال والحائك الهنديين معاً وجعل عملهما في لانكشير فقط، فشلّ بعمله هذا الحياة المشاعية بالقضاء على حقيقتها الاقتصادية، وهو «انقلاب اجتماعي» لم تعهده الدولة الآسيوية في ماضيها.

«حقاً إن إنكلترا سببت هذا 'الانقلاب الاجتماعي' في الهند، مدفوعة بمصالح نفعية، وكانت غير متعقلة في تدعيم هذه المصالح بالقوة، وهي أداة غير واعية للتاريخ. والسؤال القائم هو أيستطيع الناس أن يبلغوا أمانيهم العليا دون إحداث انقلاب سياسي في كيان آسيا الاجتماعي؟» («نيويورك تريبيون»، ٢٥ يونيه [حزيران] ١٨٥٣).

ووفقاً لهذا التحليل النفيس نقول بأن الغزوة الاستعمارية الغربية أحدثت «انقلاباً» مصطنعاً في حياة العرب، فضعضعت حياتهم الإنتاجية والاجتماعية، وعرقلت انقلابهم الأساسي، وبذلك أبعدتهم عن بلوغ أمانيهم الوطنية التحررية، التي هي جزء من الأماني الإنسانية السامية. هذه هي جناية «البخار» على العرب، جناية عمل على تنفيذها الأتراك الحميديون، والاتحاديون فيما بعد.

المقدمات السياسية للمرحلة الثانية.. ذكرت فيما سبق أن شعار المرحلة الثانية للحركة الوطنية هو «الاستقلال الذاتي أو اللامركزية الإدارية».. فتخلي العرب عن شعار «المساواة بالأتراك». وتمسكهم بالشعار الجديد كان نتيجة نضال قومي عنيف دام أربع سنوات بين العرب والأتراك، رأى الأولون أثناءه أن من العبث المطالبة بمساواة الحاكم والمحكوم، ما دامت النزعة الاستغلالية التحكمية هي التي تقود السياسة التركية في البلاد العربية.

لقد يئس العرب تماماً من الحصول على أي تحسن في حياتهم الاجتماعية بعد اعتلاء الاتحاديين منصة الحكم، فطالبوا باعتدال، وتوددوا إلى جمال وأنور وطلعت، فكانت مساعيهم تذهب أدراج الرياح.

وفي هذه الآونة نشبت الحرب البلقانية (١٩١٢ ـ ١٩١٣)، فانكسر فيها الأتراك شر كسرة، وفقدوا نفوذهم عليها بسبب «تأييد» الدول الغربية الكبرى للشعوب البلقانية، في نضالها ضد السيطرة التركية.. وما كادت الحرب البلقانية تنتهي حتى أعلنت إيطاليا الاستعمارية الحرب على الأتراك في طرابلس الغرب، فاستولت عليها بمساعدة الأتراك أنفسهم، ثم تلا ذلك ضربُ البوارج الإيطالية مدينةَ بيروت بالقنابل، واحتلال الجنود الإيطاليين لجمرك المدينة، إلى أن أجيبت مطاليب الاستعمار الإيطالي كلها.

فانكسار الأتراك في الحرب البلقانية، وانفصال ألبانيا عن الإمبراطورية التركية، واحتلال الإيطاليين لطرابلس الغرب، وانخذال الأتراك أمام البحرية الإيطالية في بيروت، كل هذه الحوادث ذهبت بهيبة الدولة التركية وكسرت شوكتها ورأى العرب

أنه إذا أتيح للألبان أن ينالوا استقلالهم الذاتي فحري بهم أن يكونوا هم البادئون لا اللاحقون. هذا من ناحية ومن ناحية أُخرى شرع العرب يتخوفون على مصيرهم من أن يصبح كمصير طرابلس الغرب أو أن يصيبهم ما أصاب بيروت على الأقل! فهبوا يبحثون عن أنجع الطرق التي تحقق لهم الحكم القومي الذاتي والدفاع عن بلادهم بأنفسهم من غارة الدول الاستعمارية الغربية عليهم.

ومن جديد بُعثت «المسألة الشرقية».. وحقيقة المسألة الشرقية هذه هي أن الدول الغربية الاستعمارية كألمانيا وفرنسا وإنكلترا وإيطاليا وروسيا القيصرية كانت بحاجة إلى مستعمرات لتصرف فيها أموالها وبضائعها وتستثمر خيراتها؛ فتطلعت نحو الإمبراطورية التركية المتداعية الأركان وصارت كل من هذه الدول تدّعي الأولوية في اقتسام تركة «الرجل المريض».

فروسيا القيصرية كانت تحلم بالاستيلاء على الآستانة وبوغاز الدردنيل وقد أقسم نيقولا الثاني أنه سوف يشن الغارة على الأراضي التركية والخاضعة لها إلى أن يدق حربته في أراضي بيت المقدس.

وفرنسا ادّعت بأن دفاعها عن المسيحيين اللبنانيين في سنة ١٨٦١، وإنشاء الكثير من المشاريع الاقتصادية والتبشيرية في هذه البلاد كاف لأن تقول على لسان وزير خارجيتها يومئذ «إن لنا في سورية ولبنان مصالح تقليدية نريد أن نجعلها محترمة.»

وإنكلترا أصبحت تصر على ضرورة تعبيد الطريق للهند بجعل كل قطر يقع في هذا الطريق ملكاً من أملاكها.. أمّا أين هو طريق الهند هذا فهو عقدة عجز عن حلها أكبر ساسة العالم.. فلك أن تقول عن طريق رأس الرجاء الصالح، أو عن طريق قناة السويس، أو عن طريق فلسطين، أو عن طريق العراق.. حسبما تقتضي الظروف.

وإيطاليا تذوقت حلاوة الانتصار في طرابلس الغرب ومرارة القتال مع الطرابلسيين فأخذت تدعي أيضاً بأنه ليس من العدل أن لا تجد لها مكاناً طليقاً تحت الشمس في آسيا الوسطى.

وألمانيا الاستعمارية، المزاحم الرئيسي في ذلك الزمن للإنكليز، كانت لا تألو جهداً في التقرب من الأتراك لتحقيق مشروعها الاستعماري الهائل: ضرب الاستعمار الإنكليزي في الهند عن طريق برلين ـ حلب ـ بغداد!

وبالفعل تم الاقتسام السري بين الدول الاستعمارية المذكورة فكان العراق وفلسطين من حصة الإنكليز، وسورية ولبنان للافرنسيين، والآستانة وولايات الأناضول الشرقية للروس، وازمير وشواطئ الأناضول الغربية للإيطاليين، أمّا الألمان

فأرادوا كل هذه المقاطعات معاً.

وفي مثل هذه الظروف دخلت الحركة الوطنية في مرحلتها الثانية وخصائصها: المطالبة بالاستقلال الذاتي، وإصلاح الحالة الاقتصادية في البلاد العربية، وتهيئة وسائل الدفاع في حالة هجوم الدول الاستعمارية الغربية على هذه البلاد.

ولتحقيق هذه الرغبات ظهرت إلى حيز الوجود أحزاب وجمعيات تختلف في البرنامج والهدف عن تلك التي تأسست إبان المرحلة الأولى.

«جمعيات المرحلة الثانية ومطاليبها»

١ ـ حزب اللامركزية الإدارية

تأسس في مصر سنة ١٩١٢ من أفراد الجالية السورية النازلة في ذلك القطر أو اللاجئة إليه.

مقاصده: تأليف حكومات مؤسسة على قواعد اللامركزية الإدارية في البلاد العربية. أي غير خاضعة في كل شيء للآستانة المركز.. على نمط الاستقلال الداخلي (أوتونومي).

مؤسسو الحزب: عبد الحميد الزهراوي (وكان في الآستانة)، رفيق العظم، محمد رشيد رضا، الدكتور شبلي شميل، إسكندر عمون، الجريدني حقي العظم*، محب الدين الخطيب.

نظم هذا الحزب تنظيماً متيناً ولعب دوراً خطيراً سنذكره في حينه.

٢ ـ جمعية بيروت الإصلاحية

تأسست في بيروت «درة تاج الإمبراطورية التركية» بأغلبية إسلامية، ومؤسسوها هم سليم علي سلام، أحمد مختار بيهم، أحمد حسن طباره، والدكتور أيوب ثابت وغيرهم من وجهاء بيروت تخوفوا من نوايا فرنسا في لبنان فأسرعوا إلى تلبية نداء اللامركزية الإدارية الصادر من مصر اعتقاداً منهم بأنه الوسيلة الوحيدة لإصلاح البلاد ودفع خطر الاحتلال الجديد.

عقدت هذه الجمعية اجتماعها الأول في بيروت في نوفمبر (تشرين ثاني) سنة ١٩١٢ وقررت أن تطالب الوالي العثماني بإدخال الإصلاحات العاجلة. ثم عقدت اجتماعاً ثانياً بتاريخ ٣١ يناير (كانون ثاني) سنة ١٩١٣ في دار بلدية بيروت وقد

---

* كذا في الأصل، والمقصود: سامي الجريديني وحقي العظم. (المحرر)

حضره ٩٠ مندوباً واتخذت فيه القرارات الآتية:ـ

أولاً ـ جعل الشؤون الخارجية والعسكرية والجمارك والبريد والتلغراف وسن القوانين العامة منوطاً بالحكومة المركزية وإبقاء كل ما تبقى من الدوائر تحت تصرف الحكومة المحلية.

ثانياً ـ تشكيل «مجلس» من ٣٠ نائباً منهم ١٥ مسلماً و١٥ مسيحياً.

ثالثاً ـ على الوالي أن ينفذ مقررات المجلس العمومي.

رابعاً ـ يجري تعيين المتصرفين والقائمقامين والمديرين وفقاً لنظام يضعه المجلس العمومي.

خامساً ـ يحق للمجلس العمومي أن يسن قوانين محلية على أن لا تمس شؤون السلطة الأساسية.

سادساً ـ عقد قروض وإعطاء رخص لتأليف شركات مساهمة على شرط أن لا تتضمن امتيازات للأجانب.

سابعاً ـ على الموظفين الأتراك أن يحسنوا اللغة العربية.

ثامناً ـ يعزل الوالي بناء على قرار المجلس العمومي بأكثرية ثلثي مجموع أعضائه.

تاسعاً ـ تعين الحكومة المركزية ـ أي التركية ـ مستشارين من الأجانب للجندرمه والمالية، والبوسته والتلغراف، والجمارك؛ ومفتشاً أجنبياً عاماً لكل لواء من الألوية.

عاشراً ـ حق التقرير بشأن ميزانية الولاية.

حادي عشر ـ تسليم الأرض الأميرية إلى المجلس العمومي.

ثاني عشر ـ استقلال البلديات عن الحكومة المركزية.

ثالث عشر ـ اعتبار اللغة العربية لغة رسمية داخل الولاية وفي مجلسي النواب والأعيان.

٣ ـ جمعية بعث لبنان

تأسست سنة ١٩١٢ في بيروت.

مقاصدها: أولاً ـ حكم ذاتي واسع يخول العرب حق إشغال المراكز الإدارية والسياسية. ثانياً ـ جعل اللغة العربية اللغة الرسمية في البلاد. ثالثاً ـ أن تكون الخدمة العسكرية محلية بمعنى أن لا يؤخذ الجنود العرب خارج ولاياتهم وأن تكون قيادتهم بيد الضباط العرب.

٤ ـ جمعية البصرة الإصلاحية

أنشئت في الزوراء سنة ١٩١٢.

مقاصدها: الحكم اللامركزي والإصلاح مع الإشراف التركي.

مؤسسها: السيد طالب النقيب نائب البصرة في مجلس النواب العثماني. ولسان حالها جريدة «النهضة» العراقية.

٥ ـ النادي العلمي الوطني في بغداد

أنشئ في الزوراء سنة ١٩١٣ على أثر تأسيس حزب اللامركزية في مصر ليكون فرعاً له ورئيسه هو مزاحم الباجه جي. وكان يعمل تحت إمرة جمعية البصرة الإصلاحية وبتأييدها.

٦ ـ جمعية العهد

أنشأها في الآستانة البكباشي عزيز علي المصري في ٢٨ أكتوبر (تشرين أول) ١٩١٣.

أعضاؤها المسؤولون: عزيز علي المصري، محمد إسماعيل الطباخ، مصطفى وصفي، سليم الجزائري، نوري السعيد، يحيى كاظم أبو الشرف، عارف التوام، محيي الدين الجبّان، علي النشاشيبي، ياسين الهاشمي، طه الهاشمي، جميل المدفعي، تحسين علي، إسماعيل الصفار، علي رضا الغزالي، مولود مخلص، أمين لطفي الحافظ، علي جودت الأيوبي، عبد الله الدليمي، الدكتور عبد القادر سري. وجميعهم من الضباط العرب.

مقاصدها: أولاً ـ الاستقلال الداخلي بالاتحاد مع تركيا. ثانياً ـ بقاء الخلافة بيد الأتراك: ثالثاً ـ المحافظة على سلامة تركيا لتمثيلها خلال ٦٠٠ سنة دور المخافر الأمامية للشرق أمام الغرب!.. رابعاً ـ بث الدعوة للتمسك بالأخلاق القويمة الفاضلة.

وقد أنشئ لهذه الجمعية فروع في بغداد والموصل وغيرهما من مدن العراق وسورية. في هذه الجمعيات والهيئات الوطنية العربية تمثلت الحركة اللامركزية المطالبة بالاستقلال الداخلي للولايات العربية عوضاً عن المطالبة بالمساواة مع الأتراك، وبعد أن تقدمت شوطاً بعيداً في أعمالها السياسية عقدت مؤتمراً وطنياً عاماً في باريس سجل في تاريخ بلادنا باسم «مؤتمر باريس العربي».

ملاحظة: إننا نقر ونعترف بأن المواد الموجودة لدينا غير كافية لتعطينا الإحصاءات

الدقيقة عن الشخصيات المؤسسة للأحزاب والجمعيات العربية القديمة، من هذا نذكر بأننا لم نشر في مقالنا السابق إلى اسم فخري البارودي عندما كان عضواً في الجمعية العربية الفتاة. فالسيد المذكور دخل هذه الجمعية سنة ١٩١٢ على يدي عارف الشهابي وأحمد قدري وهما اللذان حلفاه قسم الجمعية في داره.

ثم فاتنا أن نذكر أن يوسف سليمان حيدر كان من عداد الذين أسسوا المنتدى العربي وأن رستم حيدر، والأمير عارف الشهابي، وتوفيق الناطور، ومحمد الشريقي، وعمر حمد، وتوفيق البساط، ورفيق رزق سلوم، وسيف الدين الخطيب، وصالح حيدر، وإبراهيم حيدر، والشيخ كامل القصاب، وأخيراً علي رضا الركابي كانوا أيضاً أعضاء عاملين في الجمعية العربية الفتاة.

وأن حسن حماده، وعلي النشاشيبي، وأمين لطفي حافظ هم من مؤسسي الجمعية القحطانية.

وأن الدكتور إسماعيل الصفار، والدكتور فائق شاكر، والدكتور داود الديواني، وعلي رضا الغزالي، وعبد الغفور البدري، وأحمد عزت الأعظمي، وعاصم بسيسو، ومسلم العطار، ومصطفى الحسيني، وشكري غوش هم الذين أسسوا جمعية العلم الأخضر.

هذا ما تمكنا من الحصول عليه من أسماء رجالات العرب الذين خدموا قضية بلادهم الوطنية في مرحلتها الأولى والثانية ونحن نعتقد بأننا لم نأت على ذكرهم كلهم؛ فهنالك الكثير من الرجال الذين رافقوا الحركة الوطنية العربية منذ نشأتها لم ننوه إليهم بسبب قلة المواد عنهم فرجاؤنا من عموم قراء «الطليعة» وأصدقائها وخاصة من الرجال الذين اشتركوا في الجمعيات العربية التي وجدت قبل الحرب العامة وبعدها، أن يوافونا بما عندهم من أسماء ومعلومات لكي يكون عملنا هذا مطابقاً للحقيقة والواقع ويرتاح له الضمير.

* * *

«يختلف الاستعمار الحديث عن القديم بأمرين:

«أولاً ـ إنه لا يقول بإيجاد إمبراطورية كبرى وحيدة، بل وضع النظريات والتطبيقات لإيجاد عدة إمبراطوريات متنافسة تقود كلاً منها الرغبة في التوسع السياسي والحصول على الفائدة التجارية.

«ثانياً ـ إنه يقول بتفوق المصلحة المالية وما يتصل بها من بيوتات رأسمالية على المصلحة التجارية.»

للاقتصادي الإنكليزي «هوبسون» في كتابه
«الإمبرياليزم» الصادر في سنة ١٩٠٢

كتب «أوجين يونغ» أيضاً في كتابه «استعباد الإسلام» في فصل «البلاد العربية الشرقية» صفحة تنم عن تخبط في فهم المسألة العربية لكنها تفضح في الوقت نفسه الروح الاستعمارية الاستغلالية التي كانت تتغلغل في صدور الدول الغربية منذ أواخر القرن الماضي حتى قبيل الحرب العامة. قال:

من عشرين سنة أودعنا كتابنا الأول عن البلاد العربية المعنون «الدول والفتنة العربية والمعضلة العالمية المستقبلية» ما يكشف الغطاء عن المنهاج الذي تتحداه بريطانيا بمدها خطاً حديدياً من بور سعيد إلى العريش فواحة الجوف فالكويت، وبذلنا الجهود للفت نظر القابضين بأيديهم على أزمة الأحكام عندنا إلى تلك المسائل الخطيرة. ولا بد من القول إن السادة شارل دوبوي، ورييو، ودومر، وجيرو رئيس الغرفة التجارية الافرنسية في الآستانة جادوا علينا بمساعدتهم الأدبية لتنظيم بعثة اقتصادية تنطوي على غاية سياسية مكتومة، إلاّ إن أرباب الصناعة الذين يهمهم هذا الأمر بنوع خاص لم يوافقونا على ذلك المشروع، ولم يكن بالطبع لدى وزارة خارجيتنا اعتمادات أو أموال سرية لهذا العمل المفيد وقد بلغنا، كتابة، أن العالم العربي طرأ كان ميالاً إلى خطب ولائنا.

وكانت فرنسا مقتنعة بمركزها الأدبي القديم وقد خولها إياه لقب «حامية النصرانية»، وكنا أيضاً راضين بما مُنحناه من الأعمال بموجب امتيازات في البلاد العثمانية وبسكك الحديد التي نلنا امتيازها وبالتجارة المحصورة التي كنا نزاولها. وكانت قد راجت في البلاد سوق تجارة مناظرينا كألمانيا والنمسا وبريطانيا وإيطاليا.

وكان من وراء دخول ألمانيا في الشؤون الشرقية تغيير في كثير من التدابير وقد عرضت بعض دول التحالف واسطة لتثبيط تقدمها، فأنشئت عصبة عربية وطنية من سنة ١٩٠٨ وقد بدت طلائعها في البلاد العربية نفسها واجتمعت كلمة أعيان المسلمين والمسيحيين على تقاضي الإصلاح؛ وكان الضباط العرب في الجيش التركي منتظمين في سلك تلك الجمعيات السرية، فكان يكفي لإشعال النار مساعدة جزئية مهما كانت تافهة.

وكان من اليسير في سنة ١٩١١ ـ الحرب الإيطالية التركية، وسنة ١٩١٢ ـ الحرب البلقانية ـ فتح باب الفتنة على مصراعيه وضمان مناصرة الجنود العرب وهم من العراق إلى البحر الرومي متحفزون لإعلان الاستقلال. وكان في نيتهم إقامة خليفة جديد في مكة بحيث تكون له السيادة في الحجاز. وكان العالم العربي قد أصبح حليفنا وضمن التفوق الاقتصادي والسياسي لدول الحلفاء (أو للدولة التي تمدّه بالمال لإضرام الثورة) على طريق آسيا.

لم يفقه المؤرخ الاستعماري «يونغ» من الحركة الوطنية العربية سوى أنها حركة

ثورية ترمي إلى طرد الأتراك «لتضمن التفوق الاقتصادي والسياسي لدول الحلفاء»!...

لقد رأى المؤرخ المذكور نضال العرب من أجل حريتهم واستقلالهم ممزوجاً بالخطوط الحديدية، بالمصارف والامتيازات، وبالشركات التجارية. وهل باستطاعته أو باستطاعة غيره من المؤرخين الاستعماريين أن يروا غير ذلك.

هكذا كان الشعور الاستعماري الغربي نحو العرب وهم على عتبة المرحلة الثالثة من حركتهم الوطنية التحريرية.

بدء المعركة بين اللامركزيين والاتحاديين

انتشرت الحركة اللامركزية بسرعة البرق في البلاد العربية، واقتصرت كما أسلفنا على المطالبة بالاستقلال الداخلي، واقتصارها هذا لا يعني أن أحداً من العرب لم يفكر بالاستقلال التام، أو بوحدة العرب الشاملة، فكثيرون هم أولئك القواد العسكريون، والزعماء، والكتّاب، والشعراء، الذين كانوا يطمحون إلى إيجاد دولة عربية مستقلة عن أية سيطرة أجنبية. غير أننا لا نأخذ القضية العربية في بحثنا هذا من وجهة أماني بعض الأفراد بل من وجهة عامة تشمل القضية في مجموعها وفي سيرها التاريخي. فمطالبة العرب بنظام الاستقلال الداخلي (الأوتونومي) في أيام المرحلة الثانية لم تكن طلباً هيناً وبسيطاً، فقد ناضلت الجمعيات العربية في سبيله نضال الأبطال وتحملت من أجله كل أنواع المطاردة والأذى.

لم يستسغ الاتحاديون شعار الاستقلال الداخلي، لم يستسيغوه لا لأنهم كانوا فقط عاجزين عن تحقيقه بسبب عقليتهم الاستغلالية الاستبدادية وخنوعهم للاستعمار الألماني، بل لأنهم رأوا فيه أيضاً خطوة أولى تخطوها الشعوب العربية نحو حكم ذاتي واسع المدى وبعيد المرمى.

تخوف الاتحاديون من حركة العرب اللامركزية ووضعوها على بساط بحثهم بصورة جدية، فانقسموا على بعضهم ثلاثة أقسام شكلية، أي في مظهر الخطة الواجب اتباعها لتجنب أخطار الحركة الوطنية العربية. فكانت وجهة نظر أنور باشا: منح العرب الاستقلال الداخلي ضمن الإمبراطورية التركية على أن يكونوا خاضعين قومياً للأتراك. وكانت وجهة نظر جمال باشا: أخذ العرب بالشدة وتتريكهم والتنكيل بزعمائهم ومفكريهم. وكانت وجهة نظر طلعت باشا: التساهل مع العرب بإدخال بعض الإصلاحات في ديارهم.

ثلاثة آراء في رأي واحد!... فهي لم تكن مخلصة في معالجتها المسألة

العربية وانتهت بالموافقة على فكرة جمال باشا.

الموجة الإرهابية الأولى

وبتاريخ ٢٤ كانون الثاني [يناير] سنة ١٩١٤ بينما كان العالم الاستعماري يتمخض بالحرب اجتمع أقطاب تركيا الاتحادية وأعلنوا بدء الهجوم على اللامركزيين وقد قرروا ما يلي:

أولاً ـ إقصاء الضباط العرب المقيمين في الآستانة وعددهم ٤٩٠ ضابطاً ينتمي ٣١٥ منهم إلى حزب العهد ـ إلى المناطق التركية.

ثانياً ـ تولية القيادة في البلاد العربية إلى الضباط الترك.

ثالثاً ـ الإسراع في تتريك العناصر غير التركية.

رابعاً ـ مقاومة الحركات الإصلاحية في البلاد العربية.

خامساً ـ إلغاء الأحزاب العربية كلها وتأليف شعبة سياسية في وزارة الداخلية لمقاومة دعاة الاستقلال الداخلي.

سادساً ـ تعزيز نفوذ جمعية الاتحاد والترقي في البلاد العربية.

وعلى أثر صدور هذه القرارات أعطيت الأوامر بتوزيع الضباط العرب الموجودين في الآستانة إلى مختلف المناطق النائية، وألقي القبض على عزيز علي بك المصري (عزيز علي باشا المصري حالياً)* رئيس جمعية العهد وحكم عليه بالإعدام بتهمة لفقوها ضده وهي أنه أساء التصرف بـ ٣٠ ألف ليرة ذهبية لمّا كان في طرابلس الغرب مع أنور باشا، ولم ينقذ عنقه من حبل المشنقة سوى صرخة البلاد العربية الداوية فتراجع الاتحاديون عن حكمهم وأطلقوا سراحه وأبعدوه إلى بلده مصر.

ثم حلت الحكومة التركية الاتحادية كل الجمعيات العربية الموجودة في الآستانة وأمرت والي بيروت بحل «جمعية بيروت الإصلاحية» وأخذت تستعين ببعض الرجعيين والذين كانوا يسعون إلى مكافحة إنكلترا وفرنسا بمعونة ألمانيا فأسسوا في دمشق حزباً أطلقوا عليه اسم «حزب الإصلاح الحقيقي» وجعلوا برنامجه: مقاومة الخونة الذين يمهدون السبيل أمام الأجانب للاستيلاء على بلادهم!.. ونصبوا في رئاسة هذا الحزب فوزي باشا العظم، أمّا أعضاؤه المؤسسون فهم: عبد الرحمن اليوسف ـ وقد ذكرنا عنه شيئاً في المقال الماضي ـ

---

* سنة ١٩٣٨ ـ تاريخ نشر المقال. (المحرر)

والأمير شكيب أرسلان، والشيخ أسعد الشقيري، والشيخ عبد العزيز شاويش، وعبد العزيز الثعالبي.

ولقد لعب هذا الحزب دوراً خائناً قبيل الحرب العامة؛ فباسم مقاومة الأجانب ناوأ الحركة الوطنية العربية، وباسم الدفاع عن البلاد كان عوناً للاستعمار الألماني. ويلاحظ أن من بين أعضائه المؤسسين اثنين أحدهما مصري وهو عبد العزيز شاويش، والثاني تونسي وهو عبد العزيز الثعالبي، وكلاهما كان طريداً من بلاده ساخطاً على الإنكليز وعلى الافرنسيين فجعلا همهما تأييد كل حركة سياسية أو عسكرية تقاوم الدولتين المحتلتين لبلادهما ولو كان في ذلك إلحاق الضرر بمجموع الحركة الوطنية العربية.

وعمد الاتحاديون أيضاً في حملتهم المنظمة على العرب إلى إخراج نوابهم من مجلس المبعوثان التركي وعينوا بدلاً منهم أتراكاً، وأرسلوا أحد رجالهم المعادين للحركة العربية وهو وهيب بك الأرناؤوطي إلى مكة وذلك في شباط [فبراير] ١٩١٤ ليلغي ما للشريف حسين بن علي من سلطة محلية في الحجاز؛ وليحول الحجاز إلى ولاية عادية تحكم مباشرة بواسطة الموظفين الأتراك؛ وليمد سكة حديد عسكرية بين المدينة ومكة؛ وليفرض الضرائب والخدمة العسكرية على الحجازيين الذين كانوا في حلّ منها وفقاً للتقاليد المرعية آنئذ.

ثم أرسل الاتحاديون إلى العراق القائد فريد بك للقضاء على الحركة الإصلاحية العربية ـ أي الحركة اللامركزية ـ والفتك بزعيمها السيد طالب النقيب. إلاّ إن الأخير شعر بالمؤامرة المدبرة ضده فأسرع بدوره ونصب شركاً لفريد بك وفتك به!..

المعارضة لفكرة اللامركزية

في هذه الظروف زج الأتراك أنفسهم في المغامرة الألمانية الاستعمارية وانهمكوا بالاستعدادات للحرب الطاحنة، وشرعوا يظهرون عداءهم لمطلب العرب المتواضع القائل بتشكيل حكومات عربية محلية متحالفة مع الآستانة ونثروا بذور الخلاف والشقاق في صفوف اللامركزيين فأفسدوا معنويات بعضهم عن طريق شراء ضمائرهم بالوظائف وبإقطاع الأراضي؛ وخدعوا البعض الآخر بالوعود الخلابة؛ ثم قاموا بعملية إرهاب أولية أصابت الضباط العرب وجمعياتهم ونوابهم وموظفيهم، وإذا بالحركة الوطنية العربية تواجه وضعاً جديداً يتطلب منها أن تكيف برنامجها وسياستها بمقتضاه.

أخذ العرب يدركون شيئاً فشيئاً أن شعار اللامركزية أصبح شعاراً غير عملي!.. والتمسك به معناه المطالبة بالمستحيل لأن الأتراك كانوا كما أسلفنا غير مستعدين لمنح العرب هذه الحرية ثم أن ارتباط مصير الأتراك بمصير الاستعمار الألماني قضى على كل واسطة للتفاهم بينهم وبين الوطنيين العرب.

فإذا كان الاتحاديون الأتراك أعلنوا العدوان على طلاب الاستقلال الذاتي من العرب، فهؤلاء بدورهم أعلنوا عدم اكتفائهم بشعار اللامركزية الإدارية ومعنى ذلك الاصطدام بالأتراك وجهاً لوجه.

وها نحن نسوق مثلاً برنامج الجمعيتين اللتين أُسّستا عشية الحرب العامة وجعلتا هدفهما معارضة اللامركزية والمطالبة بشعار المرحلة الثالثة من تطور الحركة الوطنية ألا وهو: الاستقلال التام.

١ ـ «الجمعية القحطانية» أو «الجمعية الثورية»

تأسست في مصر في أواخر ١٩١٣.

مؤسسوها: حقي العظم، الشيخ فؤاد الخطيب، والدكتور عزت الجندي.

برنامجها: معارضة اللامركزية ومقاومة الترك وتحريض العرب على الثورة.

هدفها: الاستقلال التام.

وقد انضم إلى هذه الجمعية كل المعارضين لفكرة اللامركزية حتى إن حقي العظم أُقصي من الحزب اللامركزي لمعارضته إياه بعد أن كان سكرتيره العام.

شرعت الجمعية القحطانية بالعمل فأصدرت أول منشور تعبر فيه عن أفكارها وأهدافها وقد وقعته باسم «الجمعية الثورية» جاء فيه: «وما هو الإصلاح على أساس اللامركزية؟.. يجب أن نعمل على أساس الاستقلال التام وتأليف دولة عربية تعيد سالف مجدنا العظيم...

«علينا أن نثور على هؤلاء الطغاة الأتراك وأن نقاتل كل من يقاتل العرب!»

٢ ـ «جمعية الجامعة العربية»

أُسست في القاهرة في أواخر ١٩١٣ أيضاً.

واضع فكرتها السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة «المنار».

هدفها: (١) السعي لاتحاد حلفي بين أمراء جزيرة العرب للاتفاق ومنع الشقاق.

(٢) التعاون على عمران البلاد والدفاع عنها وإيجاد صلة قوية مع الجمعيات

العربية في سورية والعراق وغيرها.

(٣) تأسيس مُلك جديد للعرب.

وقد انضم إلى هذه الجمعية الإمام يحيى حميد الدين إمام اليمن، والإمام عبد العزيز السعود إمام نجد، والسيد الإدريسي، والأمير عبد الله، ورفيق العظم، والشيخ علي يوسف صاحب «المؤيد». وانضم إليها أيضاً بعد إعلان الحرب: الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، وشريف الفاروقي.

دور الأرستقراطية العربية الثوري

فالغاية التاريخية من تأليف «جمعية الجامعة العربية» المذكورة هو استمالة الجماعات الحضرية والبدوية بما فيها من أشراف وأمراء؛ أي الجماعات التي لم تبلغ بعد درجة الوعي القومي بسبب وضعها الاجتماعي المتأخر، إلى جانب الحركة الوطنية العربية المنظمة التي يقودها الوطنيون العرب أولئك الذين نما فيهم الوعي القومي وأصبح تفكيرهم الاجتماعي، والثقافي، والاقتصادي يرمي إلى تغيير مساوئ الحياة القديمة بما هو أحسن منها وأفضل.

وقد قبلت هذه الجماعات الحضرية والبدوية المساهمة في الحركة الوطنية العربية. ولا يمكن إرجاع قبولها هذا إلى روابط الجنس والدين والتاريخ فقط مع ما لهذه الروابط من أثر فعال في إنهاض الهمم بل إن هنالك عاملاً أقوى وهو وجود أخصب الأراضي العربية بين أيدي الحكام والإقطاعيين الأتراك دون العرب فكان هذا حافزاً أساسياً للجماعات الأرستقراطية العربية وأتباعها كي تأخذ نصيبها في الحركة الوطنية على أمل أن يتم لها الاستيلاء على الأراضي بعد الانتصار على الأتراك.

وسنرى في الفصول المقبلة كيف أفادت الأرستقراطية العربية الحركة الوطنية وكيف أضرت بها، أفادتها كقوة حربية جريئة كافحت الأتراك بشدة، وأضرت بها لسرعة وقوعها تحت تأثير المستعمرين الأوروبيين.

من المسؤول عن الحرب الاستعمارية العامة؟

تحاول كل دولة من الدول الاستعمارية التي اشتركت في حرب ١٩١٤ أن ترمي تبعة إشعال نيران تلك الحرب على عاتق الدولة الأخرى، مع أن التبعة تقع على رأس الجميع من حلفاء أو خصوم على السواء.

فمن أين ابتدأت الحرب الماضية، ومن كان أول من نفخ في نيرانها؟

الجواب الوحيد على هذين السؤالين أن كل دولة اشتركت في التطاحن الاستعماري هي البادئة وهي النافخة. ولمّا نطلق على حرب ١٩١٤ اسم حرب استعمارية فذلك لأنها كانت ترمي إلى الفتح وتدويخ الشعوب الضعيفة باسم «الإنسانية» ومنح «الحريات القومية».

وحقيقة تلك الحرب أنها كانت مرحلة فاصلة في إعادة تخطيط حدود الأقطار والأمصار التي فرضها عهد الاستعمار القديم المعروف «بالكولونيزاسيون» (Colonisation)، أي أن الاستعمار الحديث المعروف «بالأمبيرياليزم» (Imperialisme) أعاد تقسيم الإمبراطوريات القديمة وفقاً لما تقتضيه حاجيات البيوتات الصناعية الضخمة والمصارف المالية الكبرى. فإذا كان الاستعمار القديم يكتفي بأن تكون له مستعمرات مجزأة عن بعضها البعض ليبيع بها محصولاته التجارية مقابل ما يستولي عليه من حلى، وجلود ثمينة، وقطع عاجية، وينزح بالعبيد من بلادهم إلى أوروبا وأميركا ليفلحوا أراضي «البيض» بالسياط، أو ليشتغلوا في التجذيف في المراكب التجارية مقيدين بالسلاسل حتى يهلك المركب ويهلكوا معه، فإن الاستعمار الحديث يريد لذاته إمبراطورية متماسكة الأطراف يمد في أرجائها الخطوط الحديدية، ويؤسس فيها فروعاً لمصارفه، ويمنح ثرواتها الطبيعية إلى الشركات الرأسمالية، ويحرمها نقدها الوطني ويجعله جزءاً لا يتجزأ من النقد الاستعماري، وأمّا الأيدي العاملة الوطنية فلا «يصدرها» إلى الخارج بل يبقيها في البلاد تبحث عن رزقها في مناجم الفحم، والحديد، أو في مزارع القطن والبن والشاي، أو في آبار البترول ومصانع حلج القطن وتكرير السكر.

ومن صفات الاستعمار الحديث أيضاً أنه كلما شعر بتضخم قواه المالية والصناعية ازداد ادعاءً بأنه جبل من طينة خاصة تصطفيه من بين سائر الشعوب وتضعه على رأسهم!..

وهذا ما كان مع ألمانيا إبان الحرب الاستعمارية عندما اتخذت لنفسها شعار: «دويتشلاند أيبر اللس» (Deutschland Uber Alles) ألمانيا فوق الجميع.!! أي أن الصناعة الألمانية تفوقت على الصناعة الإنكليزية والافرنسية إلخ.. وأن المؤسسات الرأسمالية الألمانية بلغت أعلى درجة من التطور والازدهار حتى سمحت لنفسها بالقول أنها فوق كل المؤسسات المالية والصناعية العالمية.

فإذا كانت ألمانيا وإنكلترا وفرنسا وغيرها من الدول الصناعية الاستعمارية دخلت الحرب لتقسيم العالم فيما بينها فما شأن تركيا في هذه الحرب؟..

فهمنا أن إنكلترا وفرنسا أرادتا ابتلاع الأراضي التركية فحاربتا تركيا، وفهمنا أن ألمانيا تحالفت مع تركيا لمحاربة الإنكليز والافرنسيين، ولكن لماذا هاجمت

الجيوش التركية ترعة قناة السويس محاولة احتلال مصر؟.. أو هل كانت مدافعة عن إمبراطوريتها المتداعية الأركان أم كانت ترمي إلى توسيع ممتلكاتها؟..

لا جدل أن تركيا لم تدخل الحرب طامعة بالتوسع وإيجاد أسواق جديدة تصرف فيها «إنتاجها» الصناعي أو تضع فيها «رؤوس أموالها» للاستثمار، كلا، لم تكن غايتها هذه لأنها لم تكن حائزة على صناعة ولا على رؤوس أموال، فكان دخولها الحرب للدفاع عن ممتلكاتها أولاً، ولتعبيد الطريق أمام جحافل الاستعمار الألماني ثانياً.

يقولون إن تركيا «زجت» نفسها في الحرب الماضية، ولكن هذا غير صحيح فتركيا لم تشأ تلك الحرب بل وجدت نفسها أمام الأمر الواقع:

إمّا أن تخضع للاستعمار الإنكليزي والافرنسي والإيطالي وإمّا أن تخضع للاستعمار الألماني!.. فاختارت الأخير مرغمة على أنه أهون الشرين..

استلم الإمبراطور غليوم (ولهلم) وقواده زمام الإدارة التركية السياسية والاقتصادية والعسكرية، وأخذوا يلجأون إلى كل الوسائل التي تضمن لهم النصر على أعدائهم، ففتقت لهم الحيلة إثارة العالم الإسلامي، فأخرجوا «السلطان» إلى حيز الوجود بعد أن وضعه رجال الاتحاد والترقي في دار الآثار القديمة سنة ١٩٠٨، ودفعوا شيخ الإسلام إلى أن يبث الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ويحرض العالم الإسلامي على الجهاد بجانب ألمانيا!..

وقد كان لهذه الدعوة أثرها في البلاد العربية عندما حاولت الجيوش التركية والألمانية عبور قناة السويس تحت قيادة أحمد جمال باشا وليمان فون ساندرس، وإني لأتذكر شخصياً أنه لمّا اقترب الأتراك من الإسماعيلية اندفعت الجماهير الشعبية العربية وراء عاطفتها التقليدية وأخذت تقيم معالم الزينة والسرور منادية: أدخلوها بسلام آمنين!.. غير مدركة أن استيلاء الأتراك على مصر معناه إخماد أنفاس الحركة الوطنية العربية لحقب جديدة من الزمن وإيقاع العرب تحت نير الاستعمار الألماني. ولا ريب أنه لو أتيح للألمان أن ينتصروا على الحلفاء في الميدان الغربي والشرقي لكانت البلاد العربية الآن جزءاً من الإمبراطورية الألمانية الكبرى.

دخلت تركيا الحرب الاستعمارية على أمل أن تنقذ إمبراطوريتها من الانهيار راضية بأن تكون صنيعة ألمانيا، ثم رأت أن دخولها الحرب سيكون وسيلة فعالة لتحويل أنظار العرب المطالبين بالاستقلال التام الذي أصبح شعارهم الوطني الوحيد الدفاع عن الأوطان التي يهددها استعمار الحلفاء.

جاء جمال باشا دمشق يوم ٥ كانون أول [ديسمبر] ١٩١٤، وقد فوضته القيادة العامة التركية والألمانية بأن يفتك بزعماء الحركة الوطنية العربية ويقضي على حركتهم ويغرقها بالدماء، فمهد لذلك الطريق بالتقرب من بعض رجالهم كاتخاذه الدكتور عبد الرحمن الشهبندر طبيباً خاصاً له، وتصادقه مع عبد الكريم الخليل، ومنحه مبلغاً من المال إلى محمد كرد علي باسم جريدة «المقتبس» ومبلغاً آخر إلى عبد الغني العريسي باسم جريدة «المفيد».

وفي أوائل كانون ثاني [يناير] ١٩١٥ ألقى جمال باشا خطاباً في النادي الشرقي بدمشق تكلم فيه عن مجد العرب وعن ضرورة مقاومة «المنافقين» الذين باعوا وطنهم للعدو!.. وفي نفس الليلة أبعد ثمانين شاباً من صغار الضباط إلى ميادين القتال ليوضعوا في خطوط النار. ثم انتقل إلى القدس ليشرف على إعداد المعدات لحملة قناة السويس. وفي ٢ شباط [فبراير] ١٩١٥ منيت الحملة المصرية بالفشل المريع مما أضعف معنويات الجنود العرب وجعلهم يفرون من الميدان لا يلوون على شيء، وكان حافزاً لزعماء الحركة الوطنية العربية لأن يستعدوا للمعركة الفاصلة مع الأتراك.

ثم جاء دور اعتقال الزعماء العرب تمهيداً لإبادتهم عن بكرة أبيهم، فتوالت الاعتقالات، واشتد الاضطهاد، أمّا التهم التي وجهت ضد المعتقلين فهي:

(١) الانتساب إلى الحزب اللامركزي الذي تغلبت فيه العناصر الثورية العربية وجعلته يعتنق شعار الاستقلال التام بدلاً من شعار الاستقلال الداخلي.

(٢) الانتساب إلى الجمعية القحطانية الثورية وهي جمعية أُسست في مصر إبان المرحلة الثالثة وليس لها أية علاقة مباشرة بالجمعية القحطانية التي أُسست في الآستانة إبان المرحلة الأولى.

(٣) الاتصال بدوائر الجاسوسية الإنكليزية والافرنسية.

لقد أعدم الاتحاديون أبطال حركتنا الوطنية التحريرية ـ ظناً منهم أنهم يعدمون الحركة الوطنية نفسها ـ فاتهموهم بشتى التهم الكاذبة وعاملوهم كالجواسيس الحقيقيين.

إن إعدام زعماء الحركة الوطنية العربية وهي تجتاز مرحلتها الثالثة لهو أخص ظاهرة من ظواهر الاصطدام بين السيطرة التركية ـ الألمانية وحركة التحرير العربي، ولقد كان فاتحة عهد جديد وهو عهد الدعوة إلى رفع علم الثورة العربية في وجه دولة حكمت بلاد العرب خلال خمسة قرون من الزمن.

والحركة العربية التحريرية تتبرأ من أولئك الأفراد الذين كانوا يعملون لحساب الاستعمار الإنكليزي والافرنسي ولا تعتبرهم بتاتاً من ضمن شهداء العرب بقطع النظر عن معتقدهم الديني.

وهي تتبرأ أيضاً من «حزب الإصلاح الحقيقي» الذي أسسه الأمير شكيب أرسلان في دمشق، لأنه استغل خطر الاحتلال الإنكليزي والافرنسي فدعا إلى الخضوع للسيطرة التركية الألمانية وقاوم الحركة التحريرية العربية وأيد الاتحاديين بأعمالهم الإرهابية الأثيمة.

دور الحجاز في الحركة التحريرية العربية

أ ـ الشريف بين قطبين

منصب شريف مكة من المناصب الكبيرة في الإمبراطورية التركية. ويأتي صاحبه بعد الصدر الأعظم وخديوي مصر، ويتصل بمقام الصدارة مباشرة، وهو المرجع الأكبر في الحجاز للعربان، وصاحب الكلمة العليا في تصريف أمور البادية.

وسبب منح الأتراك هذه السلطات لشريف مكة هو خشيتهم بأس القوى البدوية وهم بحاجة قصوى إليها كقوى حربية، ثم أنهم بمنحهم ذلك «الاستقلال النوعي» للحجاز كانوا يبتزون الأموال الطائلة من العالم الإسلامي.

فشريف مكة صاحب النفوذ التقليدي بين العرب والمسلمين كان والحالة هذه مطمح أنظار القطبين المتضادين، قطب العرب العاقدي الآمال على الثورة العربية المقبلة بمساعدة القبائل الحجازية والنجدية الشديدة المراس، وقطب الأتراك العاقدي الآمال على خنق الحركة الوطنية العربية بمساعدة أمراء شبه الجزيرة ومشايخ قبائلها.

ب ـ أزمة الحركة الوطنية العربية والحجاز

دخلت السنة الثانية من الحرب، واشتدت أزمة الحركة الوطنية العربية. ومن خصائص هذه الأزمة النقاط التالية:

أولاً ـ إن العرب يريدون التخلص من الاستبداد التركي.

ثانياً ـ إنهم تخوفوا من تدخل الاستعمار الألماني في شؤون بلادهم.

ثالثاً ـ إنهم لا يريدون أن يقعوا غنيمة باردة بيد الاستعمار الإنكليزي والافرنسي.

رابعاً ـ إنهم واثقون من عدم مقدرة الأتراك على الانتصار على الحلفاء.

خامساً ـ إنهم صدموا صدمة عنيفة بإعدام خيرة رجالهم.

سادساً ـ إنهم كانوا حيارى في تلمس الطريق الذي ينبغي عليهم أن يسلكوه لكي يحققوا أمنيتهم في الاستقلال التام.

ولذلك كله شرع الوطنيون العرب ـ والسوريون منهم خاصة ـ بتنظيم حركتهم التحريرية سراً وعلناً، فاتصلوا بالشريف حسين وفيصل، وفاتحوا الأخير بعزمهم على إضرام الثورة العربية على أن يكون هو قائداً لها وزعيماً فرضي بذلك ومنحهم ألف ليرة عثمانية ذهبية كتبرع «للجمعية العربية الفتاة» وهي جمعية تأسست إبان المرحلة الأولى في الآستانة ثم انتقل مركزها إلى سورية في سنة ١٩١٤ وساهمت في مطاليب المرحلة الثانية والثالثة وقد انضم إليها مؤخراً الأمير فيصل أيضاً (المرحوم جلالة الملك فيصل).

ج ـ لماذا وقع الاختيار على الهاشميين؟

لماذا اختار الوطنيون العرب العائلة الهاشمية لا غيرها لقيادة الثورة العربية مع العلم أن بينهم الكثير من الشخصيات القادرة على أخذ زمام تلك الثورة؟.. لماذا اختاروا الحسين ولم يختاروا هاشم الأتاسي؟... لماذا اختاروا فيصلاً ولم يختاروا عبد الرحمن الشهبندر؟... لماذا اختاروا زيداً ولم يختاروا ياسين الهاشمي؟... لماذا اختاروا عبد الله ولم يختاروا كاظم الحسين؟...

فالسبب في ذلك ما يلي:

أولاً ـ إن العائلة الهاشمية كانت صاحبة نفوذ عربي وديني عظيم لتحدرها من السلالة النبوية الشريفة.

ثانياً ـ إن القبائل الحجازية المسلمة تخضع لها وتأتمر بأوامرها.

ثالثاً ـ إن العائلة الهاشمية هي رمز العروبة الكلاسيكية.

رابعاً ـ إن اختيار العائلة المذكورة هو الحل الوحيد لخلاف يمكن وقوعه على الزعامة بين سوري وعراقي وفلسطيني إلخ..

خامساً ـ إن العائلة المذكورة أخذت على نفسها مفاوضة الحلفاء بشأن المساعدة العسكرية والمادية والأدبية المتبادلة.

سادساً ـ إن العائلة المذكورة مسيطرة على بلاد تتمتع بشيء من السيادة

العربية، وهذا مما يسهل على الوطنيين العرب جعلها قاعدة لحركاتهم الحربية المقبلة.

ثم إن هناك عوامل أُخرى محلية دفعت الشريف حسين لأن يقبل فكرة تزعم الثورة على الأتراك التي عرضها عليه الوطنيون العرب، وتتلخص هذه العوامل بما يلي:

أولاً ـ خوف الحسين من الاتحاديين لئلا يبطشوا به ويقضوا على ما يتمتع به الحجاز من حريات نسبية محلية.

ثانياً ـ إن الحجاز قطر مجدب أو «واد غير ذي زرع» لا يصلح للزراعة بتاتاً ويعتاش سكانه بالدرجة الأولى من أموال الحجاج. فإعلان الحرب الاستعمارية العالمية بشهر رمضان من سنة ١٣٣٢ هجرية أي قبيل موسم الحج بثلاثة أشهر تقريباً، وضرب الإنكليز الحصار البحري على سواحل الحجاز في البحر الأحمر، أدى إلى تعطيل الموسم في تلك السنة وفي السنة التي تلتها، فانتشرت الأزمة الاقتصادية في طول البلاد وعرضها، وعض الجوع الحجازيين بأنيابه الحادة، فعم السكان السخط والاستياء وصاروا يضغطون على الشريف كي يجد لهم مخرجاً من هذا المأزق الحرج.

ثالثاً ـ طموح الشريف لأن يكون خليفة المسلمين على أثر تدهور الإمبراطورية التركية.

د ـ مفاوضات مكماهون والحسين غير مشروعة

هل تعترف الحركة الوطنية العربية بصحة المفاوضات بين مكماهون ممثل الاستعمار البريطاني في مصر، والشريف حسين ممثل الثورة العربية؟... هل يعترف تاريخ التحرير العربي بمفاوضات تجري بين شعب يسعى وراء حريته واستقلاله وبين دولة تريد توسيع مناطق نفوذها الإمبراطوري؟.. هل من المعقول النظر إلى إنكلترا وفرنسا كحليفتين لشعب مظلوم، ضعيف يناضل لينال مكانه اللائق به بين الشعوب الحرة؟..

لا شك بأن الجواب يكون سلباً. فالمفاوضات مع «الحلفاء» لم تكن مشروعة تاريخياً، ولا يجوز القول إن العرب طلبوا من الإنكليز والافرنسيين أن ينقذوهم من تحت النير التركي الألماني، أو أن مصلحة الثورة العربية تلاءمت موقتاً مع مصلحة الاستعمار. وعليه فإن المفاوضات التي جرت بين الشريف حسين و«الحلفاء» كانت مفاوضات فردية اقتضتها بعض المصالح المحلية ويستحيل

اعتبارها صادرة عن إرادة الأمة العربية. وإن في تآمر المستعمرين على العرب في اتفاقية سايكس ـ بيكو الناصة على توزيع البلاد العربية بين إنكلترا وفرنسا، ونفي الحسين إلى جزيرة قبرص لدليل كاف على أن الإنكليز أنفسهم كانوا هازلين في عقد الاتفاقيات مع «الحلفاء» العرب.

هـ ـ إعلان الثورة العربية في الحجاز

يمر يوم ١٠ حزيران [يونيو] على العرب ولا يشعرون به على الإطلاق، فيوم ١٠ حزيران ـ يونيو ـ ١٩١٦ أو يوم السبت ٩ شعبان ١٣٣٤ هو اليوم الذي بدأت به الثورة العربية في مكة، وكان ذلك بأن أطلق الحسين رصاصة رمزية من قصره على ثكنة الترك معلناً اندلاع لهيب الثورة العربية العامة.

وقد أتبع عمله هذا بإذاعة «منشور الثورة» حمل فيه حملة شعواء على الاتحاديين وختمه قائلاً: «لقد هبت البلاد للنهوض بأمر استقلالها، بعد أن ضربت على أيدي عمال الاتحاديين ورجال حامية حكومتهم فاستقلت فعلاً وانفصلت عن تركيا انفصالاً لا تشوبه شائبة مداخلة أجنبية ولا تحكم خارجي إلخ...»

و ـ لورنس والثورة العربية

أمّا لورنس الذي يلقبه المستعمرون «بملك العرب غير المتوج» فهو لم يشترك بالثورة العربية حباً بالعرب كما يتوهم بعض المؤرخين. و«صداقته» للأمير فيصل ما هي إلاّ صداقة استعمارية بحتة. ولورنس بحد ذاته لم يكن إلاّ رجلاً مغامراً من الدرجة الأولى لكنه على درجة عالية من الفطنة والثقافة. وإنصافاً للورنس نقول بأنه تلقى علومه في جامعة أكسفورد وتخرج منها متخصصاً في علم الآثار، وسافر إلى سورية والعراق، وجبل سيناء في أيام الأتراك لكي يوالي أبحاثه العلمية الصحيحة غير أن دولته الاستعمارية حولته، لسوء حظه، من عالم كبير إلى جاسوس خطير!...

ز ـ هل الثورة العربية صنيعة الاستعمار؟

إن ثورة العرب على الأتراك كانت ثورة وطنية ترمي إلى استقلال الشعوب العربية وإعلان سيادتها القومية على أراضيها، ويجزم المؤرخون الاستعماريون عندما يقولون إن الثورة العربية هي «حركة» دبرتها دولهم، وأن العرب كانوا فيها مسيرين لا مخيرين.

الثورة العربية ثورة تاريخية دامية سجلت بمداد الفخر في تاريخ حركة العرب الوطنية التحريرية. وموقف الدول الاستعمارية منها هو موقف من استفاد من الشيء الموجود وليس أنه أوجد هذا الشيء والفرق شاسع بين الحالة الأولى والثانية.

ج ـ الثورة العربية عامة وليست كبرى

ومما يستوجب الإشارة إليه هو تعريف الثورة العربية، فقد اعتاد الكتّاب أن يطلقوا عليها اسم «الثورة العربية الكبرى»، ونحن لا نشاطرهم الرأي في هذا التعريف، ولا يمكن أن نضع ثورتنا لسنة ١٩١٦ في مصاف الثورة الافرنسية الكبرى، والثورة الأميركية الكبرى، والثورة الروسية الكبرى، لأن الثورات التي وقعت في البلدان المذكورة انتهت بأن أحدثت فيها تغييرات وتبديلات عظيمة، فالثورة الافرنسية قضت على نظام الملكية الإقطاعية وأوجدت مجتمعاً بورجوازياً.. والثورة الأميركية انتهت بالانتصار على الإنكليز وإعطاء بعض الحريات للزنوج، وقيام نظام ديمقراطي حر في الولايات المتحدة، والثورة الروسية انتهت بالقضاء على نظامين اجتماعيين معاً وهما نظاما الإقطاعية والرأسمالية وأعلنت نظاماً اشتراكياً جديداً.

أمّا الثورة العربية فما هي نتائجها؟... حقاً إنها انتهت بالقضاء على التحكم التركي المستبد، ونبهت في العرب شعورهم القومي، ولكنها لم تنلهم حريتهم القومية التامة ولم تحدث في حياتهم الاجتماعية أية تغييرات هامة، فانتهى الأمر بوقوعهم تحت أنيار استعمارية جديدة ذات مفعول شديد الوطأة.

وعليه فإن الثورة العربية هي ثورة عامة اشترك فيها كل العرب جنباً إلى جنب، لكنها ليست كبرى. فالثورة العربية الكبرى هي الثورة المقبلة.

* * *

«إنني أتمنى من صميم قلبي أن يتاح لنا ولبلادنا ـ وهي بلادي كبلاد سواي ـ من يجرنا إلى الإصلاح جراً ويسوقنا إليه سوقاً ويسرع فينا ما استطاع إلى الإصلاح سبيلاً حتى تعمر البلاد وتصلح شؤون الناس على السواء. وحتماً نصير جميعاً في العمران جزءاً حياً قاعدتنا فيه أننا بشر قبل كل شيء.»

شبلي شميل

من كتاب «مستقبل سوريا»

لماذا فشلت الثورة العربية العامة؟

فازت الثورة العربية العامة على الأتراك والألمان لكنها منيت بالفشل في الحصول على الاستقلال الذي قامت من أجله. فكان جل ما أدت إليه أنها «سهلت» على الإنكليز والافرنسيين أمر الاستيلاء على البلاد العربية، إذ هي أبعدت ٤٠ ألف جندي تركي من ميدان القتال مع الإنكليز في غزة وراحت تقاتلهم بكل جرأة وبسالة في ميدان «المدينة عمان» إلى أن أفنتهم. ومما لا ريب فيه أنه لولا الثورة العربية العامة لتعذر على الحلفاء أن يخترقوا الميدان الفلسطيني السوري بمثل تلك السرعة، ويشهد بذلك رجال الاستعمار أنفسهم. فها ما يقوله اللورد أللنبي بهذا الصدد: «أشكر جلالة الحسين بن علي ملك الحجاز على إخلاصه العظيم لقضية الحلفاء!... وقد ساعدت أعماله وأعمال فيصل الحلفاء مساعدة كبيرة في الحصول على نتائج فاصلة في الحرب.» («التايمز»، ١٩ كانون أول [ديسمبر] ١٩١٨). وقد قال لورنس أيضاً ما يلي: «كلنا يعرف أن فيصلاً بذل جهداً كبيراً في نشر ألوية الثورة التي أعلنت في مكة وفي توسيع نطاقها فتم له ما أراد وبفضل بسالته وحكمته أسدت هذه الثورة أعظم خدمة للحلفاء في ميدان فلسطين» - لورنس، «الثورة في الصحراء».

فيُستنتج من ذلك أن «الحلفاء» لم يمدوا الثورة العربية العامة بالمال والسلاح إلاّ لتخدم مآربهم الاستعمارية وتساعدهم في الحصول على «النتائج الفاصلة».

لم تفز الثورة العربية العامة بالاستقلال الذي كانت ترمي إليه لعدة أسباب وأهمها:

١ - خروج البلاد العربية من حرب استعمارية دامت أربع سنوات أنهكت قواها، وأتلفت زرعها، وأفنت الأيدي العاملة فيها، ودهورت تجارتها وصناعتها، وأوصلت ماليتها إلى لا شيء ثم انتشر في ربوعها مرضا الكوليرا والتيفوس المتأتيان عن جثث القتلى، وعن الجوع، وأكل الأقذار - كقشور البرتقال، والجراد «المشوي»، و«الكراديش» المؤلفة من الترمس والشعير - ثم هاجمتها جيوش جرارة من الجراد غزت أشجارها فأكلت الأخضر واليابس، فصار الناس يوجهون قواهم نحو مكافحة الجراد بدلاً من إنتاج المواد المغذية، وتبع ذلك كله القحط والمحل الناتجان عن قلة الأمطار، فنشفت الأرض وتفسخت، وعطش الناس وصاروا يجمعون المياه في الأقنية والحفر ويقتصدون في شربها مع ما فيها من ميكروبات يراها المرء بلا ميكروسكوب، فهلك منهم ١٢٠ ألفاً من الأمراض و٣٥٠ ألفاً في الحرب. فالحالة هذه أتعبت العرب تعباً شديداً فرغبوا إلى السلام بأي ثمن كان.

٢ ـ عدم نضوج العرب سياسياً، وقومياً، وتنظيمياً، إذ إن الهيئات السياسية التي وجدت في تلك الأيام كانت هيئات خاصة «بِعِلِّيَّة القوم» ولم تكن لها تنظيمات تنور الشعب وتقوده.

٣ ـ تقهقر العائلة الهاشمية أمام الإنكليز والافرنسيين وإنهاكها بمقاتلة الوهابيين الذين ذبحوا ما بين ثلاثة أو أربعة آلاف سوري متطوع في الفرقة الحجازية.

وملخص هذا الحادث المريع أن المرحوم الملك حسين اتبع سياسة خرقاء في آخر أيام ملكه فكان يرغب بالاستيلاء على نجد بدلاً من التفاهم مع الأمير عبد العزيز بن السعود آنئذ ليعملا معاً على نصرة الوطنيين السوريين، وهكذا جهز الشريف حملة كبرى «التأديب» الأمير عبد العزيز مؤلفة من المتطوعة السوريين ومن الفرق النظامية الحجازية وسلم قيادتها إلى ولده الأمير عبد الله وصدقي بك الحلبي، وبينما كان رجال الحملة نياماً في خربة النخيل بالقرب من الطائف وإذا بالوهابيين يزحفون على بطونهم في ظلام الليل الحالك ويدخلون الخيام ويبقرون البطون، ويجزون الرقاب، متمتمين: لا إله إلاّ الله مالك يوم الدين!.. فدامت هذه العملية مدة ربع ساعة من الزمن أتوا بها على أكثر رجال الحملة ولم ينج منها سوى الأمير عبد الله وحاشيته، وقد شاهدت بعيني فلول الأمير وجرحاه في الطائف عندما جئتها مع المرحوم والدي الضابط في الجيش العربي آنئذ.

٤ ـ اندفاع الاستقلاليين وراء الخيال في مسألة الوعود والعهود.

من الثورة العامة تولدت عدة ثورات محلية

أجل، لقد فشلت الثورة العربية العامة في نيل غايتها العامة، لكنها تمخضت عن عدة ثورات محلية ضد المحتل الجديد ووفقاً للأحوال المحلية.

فقامت الثورة الفلسطينية سنة ١٩٢١ ضد الإنكليز والصهيونية. ثم اندلعت نيران الحركة الثورية السورية سنة ١٩٢١ و١٩٢٥. ثم هبت الثورة العراقية سنة ١٩٢٢ وقد كبدت الإنكليز خسائر فادحة. ونذكر بهذه المناسبة الثورة المصرية سنة ١٩١٩ ولهذه الثورة عواملها الخاصة لكنها لا شك تأثرت بنهضة العرب العامة عن طريق القواد والضباط المصريين الذين رافقوا الجيش العربي، وعن طريق الفلاحين المصريين الذين رافقوا الجيش الإنكليزي في حملته على فلسطين وسورية.

وهنا نقف بالقارئ على مفترق الطرق ونسير به إلى الفرع السوري من الحركة الوطنية العربية تاركين بحث بقية الفروع إلى فرصة أخرى.

الحكومة الفيصلية وانهيارها

بعد احتلال الجيش العربي دمشق قامت فيها حكومة عربية مستقلة مبنية على مبادئ الشورى، والانتخاب الديمقراطي، تعرف بالتاريخ العربي الحديث باسم الحكومة الفيصلية. وفي تشرين أول [أكتوبر] سنة ١٩١٨ أذاع الأمير فيصل بلاغاً رسمياً جاء فيه: «تشكلت في سورية حكومة دستورية عربية مستقلة استقلالاً مطلقاً لا شائبة فيه وعهدت إلى السيد رضا باشا الركابي بالقيادة العامة إلخ...»

وفي ٦ تشرين أول [أكتوبر] سنة ١٩١٨ تشكلت حكومة عربية في بيروت يرئسها عمر الداعوق على أن تعمل وفقاً لأوامر الحاكم العام المرسل من دمشق شكري الأيوبي، فوصلها هذا بالتاريخ المذكور وقلد السيد حبيب السعد منصب الحاكم المدني على الثغر بعد أداء يمين الطاعة للحسين بن علي. لكن حكومة بيروت العربية لم تعش سوى عشرة أيام!... إذ تآمر كل من الإنكليز والافرنسيين على تحطيمها بأسرع ما يمكن، فجاءها في ٨ تشرين أول [أكتوبر] سنة ١٩١٨ الكولونيل «بياباب» وفي ٩ منه أنزل العلم العربي «باحتفال عسكري مهيب» وفي ١٠ منه وصلها الأميرال «فارني» مع القوات البحرية واحتلها احتلالاً عسكرياً.

أمّا حكومة دمشق العربية فقد دامت ٢٢ شهراً من أول تشرين أول [أكتوبر] سنة ١٩١٨ وتنتهي في ٢٥ تموز [يوليو] سنة ١٩٢٠ ففقدت البلاد السورية سيادتها الوطنية وسقطت فريسة بين براثن الاستعمار بعد أن أصيب رجالها بالفشل الحربي في معركة ميسلون، معركة الشهيد يوسف العظمة.

صفات الحكومة الفيصلية التاريخية

قلنا إن الحكومة الفيصلية في سورية لم تدم سوى ٢٢ شهراً، وهي مدة ضئيلة جداً في التاريخ، لكنها كانت عظيمة في صفاتها وفي نتائجها التي توجز بما يلي:

أولاً ـ كانت الحكومة الفيصلية أول حكومة عربية مستقلة قامت بعد مرور ما يقارب ستة قرون على تحكم الأتراك برقاب العرب.

ثانياً ـ كانت حكومة شورية وقد تمثلت ديمقراطيتها «في المؤتمر السوري الكبير» الذي جرى انتخابه الشعبي على الدرجة الثانية فضم ٨٥ مندوباً من مختلف الجهات أضيف إليهم ٣٥ مندوباً من زعماء القبائل ورؤساء الأديان، و٣ من لبنان، فعقد أول جلساته في ١٧ حزيران [يونيو] ١٩١٩ في بهو النادي العربي في دمشق

وكان هو بمثابة أول «برلمان» للشعب السوري العربي.

ثالثاً ـ كانت أنموذجاً لشكل الحكم المستقل الذي تطلع إليه العرب في مختلف أقطارهم، وكانت منتهى آمالهم في ذلك الوقت.

رابعاً ـ كانت حكومة ذات صبغة عربية عامة إذ ضمت في هيئاتها القائدة الكثير من الشخصيات العراقية، والفلسطينية، والحجازية إلخ..

خامساً ـ كانت حكومة عادلة مع الأقليات القومية والطائفية فأشركتهم في مناصب الحكم متمتعين بنفس الحقوق التي تمتع بها العرب المسلمون.

وعلى ذلك فسقوط الحكومة الفيصلية كان صدمة عنيفة للعرب فصاروا يتصورون مستقبلاً مظلماً بعد أن تذوقوا حلاوة الحكم الوطني والسيادة العربية المستقلة.

أسباب تدهور الحكومة الفيصلية

أمّا أسباب تدهور الحكومة الفيصلية فنجمله بما يلي:

أولاً ـ انهماك الحكومة والشعب «بالطبل والزمر» من شدة الفرح بنيل الاستقلال بدلاً من توجيه العناية إلى إنهاض مرافق البلاد الاقتصادية التي دمرتها الحرب والثورة، وإلى تقوية البلاد من الوجهة الدفاعية.

ثانياً ـ عدم استعداد البلاد مادياً ومعنوياً للدخول بحرب ليست بهينة مع الافرنسيين بعد أن أتعبتها الحرب العامة كما ذكرنا في مطلع هذا المقال وشعور ضباط الجيش العربي بأن مهمتهم انتهت بتصفية الحساب مع الأتراك.

ثالثاً ـ وجود عناصر تركية ومتفسخة في جهاز الحكومة الفيصلية كان لسان حالها «همنا نختم دفاتر همنا نقبض معاش»!

رابعاً ـ ارتكاب المرحوم الملك فيصل هفوة كبرى بقبول مطاليب الجنرال غورو وتسريحه للمؤتمر السوري لمدة شهرين فقط! ثم تسريحه لبعض القوى العسكرية المرابطة في لبنان، وذلك رغبة منه بتحاشي الاصطدام مع المحتلين فأدى سلوكه هذا إلى إضعاف معنويات الجيش والشعب.

خامساً ـ وقوع خيانات كبرى في ميدان القتال من قبل عصابات متصلة بدوائر الجاسوسية الافرنسية في بيروت.

سادساً ـ وأخيراً وجود عناصر تعطف على الاحتلال الافرنسي وصفهم محيي الدين السفرجلاني في كتابه «فاجعة ميسلون» بما يأتي: «في كل شعب من شعوب الأرض، أناس يرقصون على القبور، فبينما كانت الأمة غارقة في لجج

التفكير بما آلت إليه من مصاب وعذاب، كان فريق من وجوه الشام، لم يشارك الشعب بعواطفه.. وقد ذهبوا لحفلة الاستقبال.»

الحركة الوطنية السورية في عهد الكتلة الوطنية

الكتلة الوطنية السورية مجموعة من الوطنيين العرب الذين رافقوا الحركة الوطنية العربية في كل مراحلها أو بعضها، وأخذوا على أنفسهم تحمل المسؤوليات أمام الشعب والوطن في كل عمل يقومون به كبيراً كان أم صغيراً والكتلة الوطنية لا تؤلف حزباً بالمعنى المعروف وليس لها جهاز حزبي له قمة وقاعدة تنظيمية، فهي ليست سوى «أركان حرب» الشعب السوري المناضل، خولها الشعب السلطات المطلقة ومنحها ثقته وطاعته بكل نزاهة وإخلاص.

وعهد الكتلة الوطنية يعود إلى أيام الحكم الفيصلي؛ فنجد مثلاً أن رئيسها الحالي هاشم الأتاسي كان رئيس وزراء الحكومة الفيصلية، وجميل مردم عضو الهيئة العامة للجمعية العربية الفتاة وهي الحزب الرسمي للحكومة الفيصلية، وشكري القوتلي عضو الهيئة العامة للجمعية المذكورة، وفخري البارودي حاجب الملك فيصل، وفارس الخوري وزير المالية في الحكومة الفيصلية، وإحسان الجابري رئيس أمناء الملك فيصل، وأحمد اللحام المعتمد العربي في بيروت، ونسيب البكري ثاني أمناء الملك، والدكتور عبد الرحمن شهبندر (كتلوي معارض) وزير الخارجية، وسعيد حيدر (كتلوي معارض) عضو الهيئة العامة للجمعية العربية الفتاة أيضاً.

وهكذا يتضح لنا أن تاريخ الكتلة الوطنية هو جزء لا يتجزأ من نفس الحركة الوطنية العربية. وقد مرت الكتلة المذكورة في نضالها الوطني بعد الاحتلال وسقوط الحكومة الفيصلية في ثلاثة أدوار:

أ ـ الدور الثوري من ١٩٢١ إلى ١٩٢٥

ففي هذا الدور قامت الكتلة الوطنية بنضال ثوري ضد المحتل الجديد. وهناك ثلاثة أسباب رئيسية تجلو لنا الغوامض عن حقيقة نضال الكتلة في دورها الثوري. فأول تلك الأسباب فلسفي، والثاني سياسي، والثالث اقتصادي:

فالسبب الفلسفي هو أن السوريين كانوا لا يزالون يعيشون في كنف نظام اجتماعي تسوده العلاقات العائلية، ويذعن لأحكام الشريعة الإسلامية ولتقاليدها التاريخية. فجاء الاحتلال الافرنسي يحمل في طياته نظاماً اجتماعياً ينافي عقلية

السوريين ونفسيتهم فوقع الاحتكاك بين النظامين الاجتماعيين المتناقضين، بين النظام العربي الوادع المدافع عن كيانه والقابل لسنّة التطور الطبيعي، وبين النظام الافرنسي الاستعماري المهاجم والرامي إلى تشويه شكل الهيئة الاجتماعية السورية لا إلى صقلها وتهذيبها.

والسبب السياسي هو أن السوريين الذين كافحوا الأتراك في المراحل الثلاث الماضية صعب عليهم أن يروا دماء أبنائهم تذهب هدراً في مناصرة الحلفاء، وأن أمانيهم في الاستقلال معرضة لخطر التلاشي، وتمثلت لأعينهم حوادث الإيطاليين في طرابلس الغرب، والإنكليز في مصر، وما جرى آنئذ في فلسطين، فهبوا منذعرين وقد ساقتهم أرجلهم إلى طريق النضال الثوري.

والسبب الاقتصادي هو أن السوريين الذين يقوم إنتاجهم الصناعي على نظام الحرفة بين المعلم والأجير، وآلاتهم الإنتاجية لا تزال تدار باليد والرجل، اصطدموا بالاستعمار الذي يطمع بإحلال ماكنته البخارية والكهربائية محل طرق الإنتاج الوطني؛ على أن يجعل من أصحاب المعامل الوطنية عمالاً مأجورين يستخرجون المواد الخام كالقطن والحرير ويشحنونها إلى بلاده أو يصنعونها في البلاد في مصانع يشيدها هو أو يمدها برؤوس أمواله.

هذه هي المسببات الأساسية للحركة الوطنية السورية الثورية في دورها الأول وقد تمثلت في ثورة ١٩٢١ وثورة ١٩٢٥ وقادتها الكتلة الوطنية. وقد عرف هذا الدور خمسة مندوبين سامين وهم جورج بيكو، واستلم منصبه في ٩ نيسان [أبريل] ١٩١٨، والجنرال غورو في ٨ تشرين أول [أكتوبر] ١٩١٩، والجنرال فيغان في ٩ أيار [مايو] ١٩٢١، والجنرال سرايل في ٢ كانون ثاني [يناير] ١٩٢٥، والجنرال ديبور - بالوكالة - ٥ تشرين ثاني [نوفمبر] ١٩٢٥.

ومن مميزات هذا الدور أن السوريين لم يكونوا مقتنعين بأن نضالهم الثوري سيؤدي بهم إلى إعادة الاستقلال بل الغاية منه إفهام المحتلين بأن في البلاد شعباً له ماض وطني كبير وقد بلغ درجة عليا من وعي مصالحه القومية بحيث لا يسمح لنفسه أن يعامل كما يعامل زنوج إفريقيا.

ب - الدور الانتهازي من ١٩٢٦ إلى ١٩٣٦

فالدور الانتهازي الذي نحن بصدده هو الدور الذي أسمته الكتلة الوطنية بدور «السياسة الإيجابية» مع المنتصرين. وكانت تلك السياسة الانتهازية مخطئة ومهلكة معاً في دور سلط فيه المستعمر سيف الرجعية وأراد أن ينال أكثر ما يمكن نواله

من حريات الشعب السوري وحقوقه الوطنية. ومآسي هذا الدور أنه كلما ضاعف المحتل عسفه وطغيانه أظهر الكتلويون استعدادهم للتفاهم والمفاوضة. فكان ذلك منهم إبان المفاوضة مع دي جوفنيل بشأن الثورة السورية في أواخر ١٩٢٥، وحين طرح نص المعاهدة الأولى المنتقصة من حقوق البلاد في تشرين ثاني [نوفمبر] ١٩٣٣، وفي حوادث ١٩٣٤ الانتخابية الدامية، وفي حوادث حلب ١٩٣٥، وقد كان من شأن هذه المواقف الضعيفة أن تعاظم استياء الشعب على قادته وأخذ يتظاهر مطالباً بتغيير هذه السياسة الخاطئة. وإن نذكر حادثاً بهذه المناسبة فهو حادث اقتحام الشباب الدمشقي في أواخر سنة ١٩٣٥ لبيوت الزعماء وإخراجهم بالرغم من إرادتهم إلى الشوارع لكي يقفوا على رأس المظاهرات الشعبية الصاخبة.

والمعنى من الانتهازية هنا هو إقدام الزعماء على تأييد أوضاع ومشاريع يعتبرونها «فرصة سانحة» وما هي إلاّ قيد من قيود الاستعمار وسوط من سياطه اللاهبة.

وضرر الانتهازية ليس في مبدأ «المفاوضة» مع المستعمر بل في قبول مطاليبه بلا مقابل أولاً، وإظهار الاستعداد للتفاهم معه وهو في حالة رجعية ثانياً.

في هذه الأسطر نلخص دور الكتلة الوطنية الانتهازي وقد عرف هذا الدور ثلاثة مندوبين سامين وهم مسيو دي جوفنيل نصب في ٢ كانون أول [ديسمبر] سنة ١٩٢٥، ومسيو بونسو ١٢ تشرين أول [أكتوبر] ١٩٢٦، والكونت دي مارتيل ١٢ تشرين أول [أكتوبر] سنة ١٩٣٣.

ج ـ الدور الديمقراطي من ١٩٣٦ إلى؟...

أمّا الدور الديمقراطي الذي تجتازه البلاد في عهد الكتلة الوطنية فيبتدئ منذ أن ألغي الانتداب الافرنسي واستبدل بعقد المعاهدة الافرنسية ـ السورية، وتأليف حكومة وطنية تلعب دوراً كبيراً في تقرير مصير البلاد. فعاقدو المعاهدة السوريون رأوا فيها أنها تساعدهم على تمهيد الطريق نحو الاستقلال المفقود، وعاقدوها الافرنسيون رأوا فيها أنها توطد عرى الصداقة ما بين فرنسا والشعب السوري وتجعله حليفاً لها في حالة هجوم الأتراك على سورية من الشمال أو الإيطاليين من البحر، فنتج عن ذلك وجود حالة «هدنة» ما بين المستعمِر والمستعمَر.

ويعود الفضل في ظهور هذا الدور إلى عدة عوامل محلية وخارجية أهمها:

المحلية ـ أولاً: إن الحركة الوطنية السورية استعادت نشاطها الذي تضعضع إبان سيطرة الرجعية الاستعمارية في البلاد وأخذت تظهر بمظهر جديد قوي بتنظيماته

وبمعنوياته، مما حدا بالفريق الافرنسي أن يأخذ هذه الحالة بعين الاعتبار ويظهر استعداده للتساهل.

ثانياً: إن حالة البلاد الاقتصادية بلغت درجة عليا من التدهور خلال ١٥ سنة من الاحتلال فكسدت التجارة، وكثرت البطالة، وتقهقرت الصناعة الوطنية، فتعقدت الأمور أمام الفريق السوري راغباً منه أن يشاطره في العمل على تلافي هذه الوضعية الاقتصادية.

الخارجية ـ أولاً: قيام الجبهة الشعبية الافرنسية في فرنسا المؤلفة من الراديكاليين والاشتراكيين والشيوعيين، ومن برنامجها رفع الضغط عن سكان البلاد الخاضعة لفرنسا ومنحها أبسط الحقوق والحريات الديمقراطية.

ثانياً: استحكام حلقات الخلاف في فرنسا بين الفاشستية الرامية إلى خنق كل حرية شعبية في فرنسا وممتلكاتها، والديمقراطية الرامية إلى توسيع الحريات واكتساب عطف شعوب الممتلكات الافرنسية وتأييدها.

ثالثاً: تمخض أوروبا بحرب استعمارية جديدة ساحقة ماحقة، لا تبقي ولا تذر ينفخ في نيرانها هتلر من الغرب وموسوليني من الشرق، ومن جملة أهدافها تقويض النظام القائم اليوم في فرنسا ونكبها مع ممتلكاتها بالنكبة الإسبانية.

رابعاً: قيام الدول المطالبة بإعادة النظر في تقسيم المستعمرات ببث دعاوة واسعة النطاق بين شعوب الممتلكات الافرنسية، والغرض من هذه الدعاوة الاستعمارية تعبيد الطريق أمام الاستعمار الإيطالي والألماني.

ومجموع هذه العوامل المحلية والخارجية دفع بحكومة بلوم لسنة ١٩٣٦، وحكومة شوطان لسنة ١٩٣٧، وحكومة المسيو بلوم الثانية لسنة ١٩٣٨، وحكومة المسيو دلاديه الحاضرة، أن تؤيد محتويات المعاهدة الافرنسية ـ السورية وتعد بالتصديق عليها في مجلس النواب الافرنسي.

فالديمقراطية الافرنسية مضمونة ما بقيت الجبهة الشعبية مالكة لسلطتها ونفوذها في فرنسا، أمّا الديمقراطية السورية فهي القاعدة الأساسية التي تقوم عليها الحركة الوطنية التحريرية السورية. فحركة كهذه مطمح آمالها التحرر والتقدم يستحيل أن تكون سوى حركة ديمقراطية تستوحي وحيها من رغائب الشعب مباشرة. والمفهوم من الديمقراطية ليس «التواضع»، وتفضيل «المشي على الأقدام»، والظهور «بهندام بال»!.. بل السير بالبلاد وفقاً لما تريده الأمة والأخذ بيدها نحو السعادة المنشودة، فضمان الحريات الشعبية، وإيجاد المشاريع العمرانية، وسَنّ القوانين الصالحة، وتطهير الجهاز الحكومي من العناصر الفاسدة والعمل طبقاً لروح الدستور السوري.

فالكتلة الوطنية السورية القابضة على زمام الحكم اليوم تسير في أعمالها كما تقتضي ظروف الديمقراطية السورية إذ إن لكل ديمقراطية من الديمقراطيات ظروفاً خاصة تطبعها بطابعها، وتصبغها بصبغتها. وأهم ظاهرة من ظواهر الديمقراطية السورية: ضمان كل حرية سياسية وثقافية لا تتعارض مع مصلحة الشعب والوطن.

حقاً إن الكتلة الوطنية لم تزل مقيدة بقيود عديدة تمنعها عن إجراء الإصلاحات اللازمة، إلاّ إن هذا لا يبرر تلك المواقف الضعيفة التي تقفها من الدسائس والفتن التي يحيكها أعداء الحكم الوطني. ونظن بأن مصلحة البلاد تتطلب من الكتلة الوطنية أن تعتبر بتاريخ الحكومة الفيصلية فلا تنهمك بالتطلع إلى المستقبل البعيد، أو تنشغل بالأمور الشكلية؛ بل تحصر همها، في حالة تصديق المعاهدة أو عدم تصديقها، في تحقيق النواحي العملية التالية:

أولاً ـ تطهير الجهاز الحكومي من القاعدة إلى القمة من الرجعيين، من اللاأباليين، وجعله متيناً منيعاً لا ينهار عند أول صدمة وذلك بتمكين الشباب المثقف المخلص من المراكز المسؤولة.

ثانياً ـ الإكثار من المشاريع الاقتصادية عن طريق حُسن التنظيم والإدارة مما يكفل للطبقة العاملة السورية قوتها ويرفع مستوى حياتها.

ثالثاً ـ القيام بأعمال تثقيفية سياسية واسعة النطاق في البلاد عن طريق المتطوعة من الشباب، تفهم سكان المدن والقرى واجباتهم نحو أنفسهم ونحو الوطن.

رابعاً ـ الاعتماد على النفس في تهيئة وسائل الدفاع الوطني بجميع فروعه حتى لا يصيب الحكومة الوطنية الحاضرة ما أصاب الحكومة الفيصلية ولا تنزل البلايا والرزايا بالشعب جزافاً عندما ترفع الرجعية الاستعمارية رأسها من جديد.

خامساً ـ تقوية أواصر التعاون مع البلاد العربية المناضلة في سبيل حرياتها الوطنية.

ملاحظة: لي كلمة تفسيرية حول هذا البحث مع الإشارة إلى المصادر أُرجئها إلى حين طبعه في كراس صغير متى سمحت لي الظروف.

الإيقاعُ الموسيقيُّ التاسِع لبتهوفِن

ـ أعظم قطعة موسيقية كلاسيكية عرفها البشر حتى الآن ـ

بقلم نجاتي صدقي*

دخلت مرة أميرة إلى إحدى القاعات الموسيقية، وصدف أنها جاءت بعد ابتداء العزف، فدخلت على أطراف قدميها إلى أن اقتربت من امرأة أُخرى وجلست إلى جانبها ثم سألتها بصوت خافت: ماذا يعزفون؟ فأجابتها تلك: إنهم يعزفون الإيقاع الموسيقي التاسع لبتهوفن، فشهقت الإمرأة وقالت بأسف: يالله... لقد تأخرت إذن عن سماع ثمانية إيقاعات؟!...

وحقيقة الأمر أن لبتهوفن إيقاعات موسيقية. غير أن أصحاب القاعة لم يقدموا للجمهور في تلك الليلة سوى إيقاع واحد وهو الإيقاع التاسع، وتخيل للإمرأة بأنها تأخرت عن سماع ثمانية إيقاعات، وعبثاً تأسفت.

«الإيقاع الموسيقي» هو اصطلاح اتخذته لترجمة اللفظة الافرنجية «سمفوني» وقد رضيت به رغم أنه لا يفي بالمطلوب لأنني عجزت عن إيجاد اصطلاح آخر يقوم مقامه ويؤدي مدلوله. وSymphonie هذه تعني تآلف عشرات الأنغام المختلفة واتجاهها في مجرى موسيقي متناسق يعبر عما تختلج به نفس واضع «النوتة».

و«الإيقاع الموسيقي» يختلف دائماً عن الموسيقى الخفيفة بأنه في أكثر الأحايين كلاسيكي قديم، أصحابه من أساتذة الفن الموسيقي العالميين، فبينما الموسيقى الخفيفة قابلة لأن يقوم بتوقيعها مثلاً خمسة أشخاص نرى أن توقيع قطعة سمفونية يتطلب عدداً كبيراً من الموسيقيين يتراوح أحياناً بين الـ ٥٠ والـ ١٥٠ عازفاً. ولهذا تعتبر القطع السمفونية من أعقد النواحي الموسيقية وقليل من الأوروبيين أنفسهم يستطيع فهمها أو تسمح له أعصابه من الجلوس ساعة من الزمان يسمع أنغاماً متنوعة جداً وعليه أن يجد حلقة الصلة بين نغم وآخر وأن يدرك ما يرمي إليه المؤلف وأن يشعر بما كان يشعر به حين وضعه لتلك القطعة.

هناك أربع أمم أوروبية فقط أنجبت أشخاصاً قدموا للعالم قطعاً موسيقية

---

* «الطليعة»، العدد ٢ و٣، سنة ١٩٣٧.

سمفونية سيبقى أثرها خالداً على طول الحياة، فبالدرجة الأولى تأتي ألمانيا وقد أنجبت أمير الموسيقيين «بتهوفن» و«فرانز شوبرت» و«ريشارد واغنر». ثم تأتي روسيا وقد أنجبت «ريمسكي كورساكوف» و«تشايكوفسكي» و«موسغورسكي». ثم تأتي إيطاليا وقد أنجبت «فردي» و«بلليني» و«بوتشيني». ثم فرنسا وقد أنجبت «ماسنه» و«سان ساينس».

إلاّ إن موسيقى بتهوفن فاقت كل ما صنف في هذا الشأن. والمهم فيها أنها لا تقتصر فقط بالضرب على أوتار الحب والحنان بل هي ملأى بالعواصف، بالبطولة، بالثورة!

وسامع سمفونية البطولة ـ وقد سماها بتهوفن في بادئ الأمر سمفونية نابليون الأول ولكن سرعان ما سخط على نابليون فمسح اسمه من على قطعته الموسيقية واستبدله بـ «الإيقاع البطولي» ـ ينسى تماماً بأنه جالس في قاعة، بل يشعر أنه يُسبح في عالم غير هذا العالم إذ يخال له تارة بأنه يسير بين الورود والرياحين، وأُخرى كأن أمواج البحر المتلاطمة تتقاذفه، وطوراً يرى نفسه وقد غمرها الخشوع فركنت إلى السكينة والهدوء، ثم ما يلبث إلاّ ويراها ارتعدت وارتفعت وأخذت تحلق في الفضاء الواسع حانقة، صاخبة، محتجة على الظلم والاستبداد، باحثة عن موطن العدل والحرية.

* * *

ليس مرادنا في هذه العجالة الكتابة عن الموسيقى الأوروبية بصورة عامة أو عن كافة مصنفات بتهوفن بصورة خاصة، إنما نريد حل رموز «الإيقاع الموسيقي التاسع» وتعريب النشيد الذي وضعه الشاعر الألماني الكبير «شللر» وسماه بـ «نشيد الحرية» (Ode á la Liberté) وقد اخترنا الإيقاع التاسع لا سواه لأنه أعظم قطعة موسيقية كلاسيكية قدمها النابغة الخالد بتهوفن إلى البشرية بأسرها.

كتب بتهوفن سمفونيته في عام ١٨١٧، وكانت تلك الأيام كأيامنا هذه تتمخض بالنضال الطبقي الحاد، ليس بين الديمقراطية والفاشستية، ولا بين الطبقة العاملة والرأسمالية، بل بين الحكم الفردي الإقطاعي القديم والحركة البورجوازية الصناعية التقدمية. والعرف المتبع في التطور التاريخي أن الطبقة الثائرة توجد لها دائماً الكتّاب والشعراء والموسيقيين الذين يعبرون عن حالتها الروحية من حيث يشعرون أنهم يقومون بهذه المهمة أو لا يشعرون على الإطلاق.

وبتهوفن ثار على النظام الملكي الإقطاعي بما خطه يراعه الموسيقي من

«نوتات» عظيمة الشأن، نخص منها بالذكر الإيقاع التاسع أو La Neuvième Symphonie.

من مزايا «الإيقاع التاسع» أن الشطر الأخير منه لا تقوم بإنجازه الآلات الموسيقية فقط بل يشترك به عدد كبير من المغنين والمغنيات وينشدون «نشيد الحرية» الذي اتخذه بتهوفن قاعدة روحية لسمفونيته.

وبهذه المناسبة نذكر أنه لمّا وضع «شللر» نشيده لم يستعمل كلمة Freiheit أي «حرية»، إنما Frende أي «ابتهاج» وذلك خوفاً من أن تزجه السلطات في أعماق السجون، غير أن الجماهير الشعبية الألمانية فطنت إلى هذا التغيير وكانت لا تلفظ إلاّ كلمة الحرية محل الابتهاج.

وهكذا كان الأمر مع الموسيقي العظيم بتهوفن فقد فهم ما كان يرمي إليه «شللر» وبنى إيقاعه التاسع على أساس النضال في سبيل الحرية..

ينقسم الإيقاع التاسع إلى أربعة أقسام:

الأول: دعوة هادئة إلى الحرية، أو محاولة إقناع بضرورتها، وهي مليئة بالأنغام الشجية الحية.

الثاني: يظهر لنا نهضة المحاربين وزحفهم لانتزاع الاستقلال.

الثالث: نشيد ديني خاشع يتخلله طنين الأمل بالانتصار.

الرابع: انفجار الحماسة الشعبية والابتهاج بتحرر النفوس، ودعوة الشعوب إلى التآخي.

أجل، مئة عازف موسيقى ومئة مغنٍّ ومغنية يقومون كلهم كشخص واحد، ولكن بألحان لا تعد ولا تحصى، بإنشاد «نشيد الحرية» فتدوي هذه الأصوات الآلية والبشرية كالرعد القاصف مطالبة بالحرية، بالقضاء على الاستبداد، بتآخي الشعوب!

لا أعرف إذا كان ترجم أحد شعرائنا العرب نشيد «شللر» ووضعه وفقاً لأوزان الشعر العربي، إلاّ إنني أرى نفسي مضطراً إلى ترجمته ترجمة نثرية، متواضعة، سهلة المنال، هي طبق الأصل تماماً:

نشيد الحرية
ـ وهو خاتمة الإيقاع الموسيقي التاسع ـ

ـ ١ ـ

إخوتي لنمسك عن الشكوى
لتهادن الدموع، ليتهادن الفزع
ولنهتف مبتهجين بأصوات تبلغ عنان السماء
ولننشد أناشيد العيد ولنتفق على التقوى والورع

ـ ٢ ـ

إخوتي، ها هي الحرية آخذة بالانحدار
خارجة من قصرها الوهاج
ويداها تذران علينا
بذور الوئام والسلام
نفحها يضرم فينا اللهيب
فيحيط بنا حينا وحينا
يسكب في قرارة نفوسنا
الحب العفيف الأجاج

ـ ٣ ـ

كل الشعوب تحت جناحيها
سيمدون يوماً ما الأيادي
وبوثاق أخوي واحد
يتآلف بنو البشر
فلا كراهية ولا حروب
بفضل سلطانها الفائز
كل الشعوب إنما هم إخوة
وليس لهم سوى قلب واحد!

ـ ٤ ـ

النفس مفتوحة لأحلام الورود
فلا داعي للبكاء والاضطراب.

إننا نتابع سيرنا بين الورود
في طريق بالزهور غرس.
لتصعق الشكوك الشاحبة
تحت ضياء السماء الوهاج
إننا نتابع سيرنا كل في طريقه
طريقين ترعانا العناية الإلهية!

ـ ٥ ـ

سر أيها المحارب وتدجج بالسلاح
سر بلا رعب وبلا جزع
فإنما أنت تجاهد في سبيل الصلاح!
أيها القلب الفتي المولع بالمجد
سر، طر، نحو الانتصار
والق بالمستبدين جانباً!

ـ ٦ ـ

ها هي شمس العصر الذهبي آخذة بالإشراق
فيا أيها القديس حرك القلوب!
إخوتي، لنعقد فيما بيننا اتفاقاً رؤوفا
مفتوحة أبوابه للحنان والرحمة.
كل الناس إنما هم شعب واحد؛ شعب هائل
ليس لهم سوى سيد سائد؛ رب واحد!
تحت سمائه الزرقاء الصافية
يعبدونه ويمجدون عظمته!

* * *

في ٧ أيار [مايو] سنة ١٨٤٢ أقام بتهوفن في تياترو الكاريتيه بفيينا أول حفلة موسيقية لإيقاعه التاسع وقد كانت قاعة التياترو غاصة بجماهير الشعب ابتداء من الأرستقراطية حتى التلامذة والصناع، وكيف لا تفد الجماهير الغفيرة لسماع رائعة موسيقيها المعبود بتهوفن!

حانت الساعة وجلس الموسيقيون أمام «نوتاتهم» واستلم زمام إدارة الكونسرت الموسيقي النمسوي الشهير «أومباوف» وأعانه على ذلك بتهوفن بذاته. طال العزف

ساعة من الزمن، وما كاد الجوق يأتي على «نشيد الحرية» حتى أخذ الجمهور المكهرب يصفق تصفيقاً حاداً ويهتف هتافاً حاراً على شرف بتهوفن.. ثم صار الحضور يلوحون بالمناديل والقبعات باغين جلب نظر بتهوفن نحوهم.. إلاّ إن بتهوفن أدار لهم ظهره في تلك الفترة التي انفجرت بها حماستهم ولم ينبهه إلى ذلك إلاّ أحد العازفين الذي كان بالقرب منه.

لسوء طالع بتهوفن أنه أصيب في أيامه الأخيرة بالصمم فكان يضع «النوتات» حسبما يوحيه إليه فكره، ويمليه عليه إحساسه، غير أنه لم يكن باستطاعته سماع ما أخرجه من تصانيف خالدة، هي كنز خلفه لجميع شعوب العالم، ولو أن هذا الكنز ما زال يتمتع به الجزء الضئيل من الأوروبيين فكيف بشعوبنا العربية التاعسة التي قصم ظهرها الاستبداد الاستعماري..

لا ريب بأن كل العالم يقدر بتهوفن حق قدره، لكن لا يوجد في العالم بأسره قط من رفع بمصنفات بتهوفن إلى أسمى الدرجات وجعلها سهلة المنال إلى الملايين من السكان ابتداء من الأطفال حتى الطاعنين بالسن كالاتحاد السوفياتي. هذا بينما ألمانيا الحالية مسقط رأس الموسيقار العظيم، ما فتئت تتناقش فيما إذا كان بتهوفن «ماركسياً» أم «هتلرياً» سابقاً لأوانه!؟..

فهرست الأعلام

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ك)

(ل)

(م)